بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم : ابراهيم الترزى

لكلِّ لغة تُراثها الأصيل .

وبقدر ما يمتدُّ الزمان والمكان باللغة ، ويتوافر عطاء أهلها الثقافى ، تكون ذخيرة هذا التراث اللغوى فى ميادينه العلمية والأدبية والفنية .

ولغتنا العربية من أعرق لغات العالم ، ولكنها تتفوَّق على كل اللغات بوفرة تراثها ، وتنوُّعه ، وجلاله ، وجماله .

كما تمتاز لغتنا العربية بأنَّها – مع قِدَم حركة تدوينها – قد تلاحقتْ ، ونشطتْ ، ولم تتوقف فى عطائها الثقافى ، بل أخذتْ تغزو بلداناً كثيرة فى الشرق والغرب ، وتُصبح اللغة القومية لأَبنائها .

وبذلك الامتداد الزمانى والمكانى للغة العربية ، وفى ظلِّ الحضارة الإسلامية المزدهرة، ازداد تراثنا العربى قدرا وقيمة ، وأخذ تأْثيره الحضارى يتجاوز حدود العالم الإسلامى إلى سائر الحضارات فى شتَّى أرجاء العالم ، بعثاً ، وإحياء ، وتنويرًا ، وتطويرا ، وبذلك كان للتراث العربى آثاره العميقة العريقة فى مختلف الحضارات ، وصارت جزءًا غالياً من التراث الإنسانى العالمى !

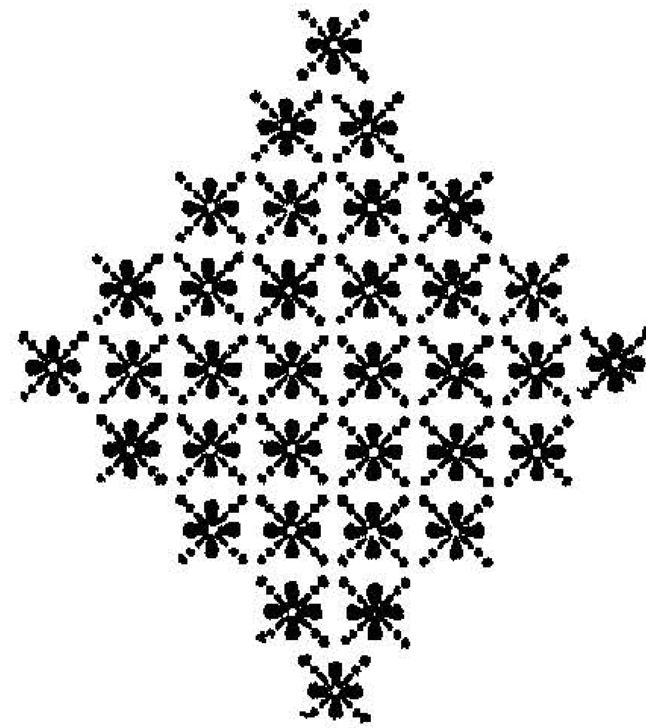
ولعلَّ هذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى إحياء تراثنا العربى ونشره ، وإلى أن يكونوا سَبَّاقين إلى ذلك ، فى عناية وإتقان نفتقدهما فى كثير من المحققِّين العرب !

وإن واجب الوفاء لأُمتنا ، بل واجب الوفاء لأَنفسنا ، ليفرضان علينا ألاَّ نَدَّخِر وسْعاً فى إحياء تراثنا العربى ، تعميقاً لأَصالتنا العربية الإسلامية ، وتأْكيدًا لقدرتنا على العطاء الحضرى ، ودَعْماً لثقافتنا المعاصرة بمقوِّماتنا الثقافية العريقة !

ولا تتوقَّف الآثار الجليلة لإحياء تراثنا العربى عند هذه الحدود ، و كلُّها مطلوب منشود ، لأَن هذا الإحياء لتراثنا فيه تقويم وتسديد لبعض أَحكامنا الثقافية والتاريخية . بل إنه يكشف ــ أَحياناً ــ مايُؤَدِّى إلى تغيير بعض هذه الأَحكام التى صارت قضايا ومُسَلَّمات فَرَضَتْ نفسها على الدارسين والباحثين !

ولهذا كله يدعو المجمع فى توصياته إلى العناية بإحياء تراثنا ونشره . ويُسهم فى هذا الإحياء والنشر ، وقد اقترحه موضوعًا للبحث فى مؤتمره هذا العام . وقف عليه بعض أَعضاء المؤتمر بحوثهم ، التى نلتقى بها فى هذا الجزء من المجلة .

ابراهيم الترزى
رئيس التحرير



كلمة الأستاذ منصور حسين
نائب وزير التعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

السيد الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية :

السادة علماء اللغة والعلم فى جمهورية مصر العربية والدول العربية :

أتشرف فى بداية كلمتى بأن أبلغ الحاضرين جميعا اعتذار الأستاذ الدكتور مصطفى كمال حلمى وزير الدولة للتعليم والبحث العلمى من عدم حضوره هذه الجلسة، فقد اضطر لسفر مفاجئ إلى السودان الشقيق مساء أمس، للاحتفال بتسليم رئيس جمهورية السودان الشقيق شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة .

وبعد ، فيسرنى بالإنابة عن أسرة التعليم والبحث العلمى أن أفتتح أولى جلسات مؤتمر مجمع اللغة العربية فى دورته الثامنة والأربعين وأن أنوه بنشاط مجمع اللغة العربية سواء فى هذه المناسبة أو فى مناسبات غيرها فقد شارك مشاركة لغوية وعلمية جادة وبناءة فى صقل اللغة العربية ومصطلحاتها فيما يتصل بالعلوم والاقتصاد وغير ذلك من فروع العلم والأدب والفن حتى أصبح المجمع حقيقة مجمعا للغة ومجمعا للعلم ومجمعا للثقافة ، ونحن فى مصر كلما لجأنا إلى نص فى اللغة أو العلم يكون مجمع اللغة العربية عونا لنا فى الخروج من هذه المشكلة أو تلك بإرشاداته وتوجيهاته ، لا على مستوى جمهورية مصر فحسب ، بل على مستوى العالم العربى وجميع الناطقين بلغة الضاد .

وبهذه المناسبة فإنه يشرف مصر ويشرف مجمع اللغة العربية أن يحضر زملاء لهم ، وأساتذة لنا من الدول العربية، يشاركون فى هذا اللقاء الهام، يشاركون فى هذا اللقاء القومى ، فى هذا اللقاء الإنسانى ، من أجل دراسة كثير من الموضوعات التى يتناولها جدول الأعمال ، على يد أساتذة أجلاء أفاضل يخوضون معارك اللغة والعلم بكل الجدارة والكفاءة والثقة .

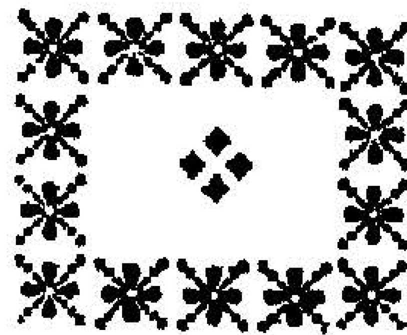
تحية لكم أيها السادة الأفاضل ، تحية لجهدكم البناء فى سبيل دراسة كثير من الموضوعات المتصلة باللغة والعلم والثقافة ، وإن دراسة اللغة العربية وما يتصل بها تعتبر دراسة لثقافة عربية ، وتراث أصيل فى مجتمعنا العربى . حياكم الله وحيا جهودكم

(*) ألقيت الكلمة فى الجلسة الافتتاحية من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢ م .

وإن قطاعات التعليم — سواء فى مصر أو فى غيرها من الدول العربية والإسلامية — لتنتظر بفارغ الصبر كل ما تتوصلون إليه من توصيات ومقترحات ، ولابد لى فى هذه المناسبة أن أقرر حرص مؤسسات التعليم فى مصر ، وأعلم أيضاً ذلك الحرص فى الدول العربية ، على أن تعود اللغة العربية إلى أصالتها وإلى ازدهارها التى كانت تتمتع به من قبل ، وكم دعونا أساتذة اللغة العربية إلى الاهتمام بالتحدث والكتابة باللغة العربية . وقد كان هناك لقاء قريب دعوت فيه إخوانى المدرسين والمعلمين على مستوى نقابة المهن التعليمية فى القاهرة ، دعوتهم إلى أن تكون اللغة العربية لغة الحديث فى مواد اللغة العربية والتربية الدينية ، وفى بقية المواد الدراسية الأخرى ، حتى تأخذ اللغة مكانها الصحيح ، فهى ثقافة وهى علم وهى فن وهى تاريخ وهى حضارة ، وأنا شخصيا على رغم أنى لست من رجال اللغة ، إلا أننى أتوقع دائما أن يكون لى دور للمواد العلمية وللرياضيات ولغيرها من المواد الدراسية ، دور فى تأصيل هذه اللغة وفى تحقيق مكانتها ، فالحق أننا كلما أردنا أن نتزود من الثقافة لجأنا إلى اللغة العربية وقيمها ، وكلما أردنا أن نتزود من العلم لجأنا إلى اللغة العربية ومصطلحاتها ، وفى هذه المناسبة أتوقع أن تصدر عن هذه الدورة توصيات وتوجيهات ومقترحات أعد مقدما بأن تضعها وزارة التعليم نصب أعينها لاهتمامها البالغ والشديد بقيم هذه اللغة ، والاهتمام البالغ والشديد بأن تعود اللغة العربية إلى ما كانت عليه ، لا بين المدرسين فحسب ، بل بين الطلاب وبين الشعب كله ، فهى مصدر من مصادر الحضارة ، وهى مصدر من مصادر الثقافة . وفقكم الله وحيا جهدكم سواء فى هذه الدورة أو فيما سبقها من دورات أو فيما يتلوها من دورات أخرى ، حتى يتحقق الجهد البناء الذى نتوق إليه على أيديكم .

مرة أخرى أعود فأكرر الترحيب بحضراتكم جميعا ، وأذكر بالشكر والتقدير كل ما بذلتم من جهود ، وفقكم الله ، وسدد خطاكم ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



كلمة الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع
فى افتتاح المؤتمر

السيد نائب وزير التعليم والبحث العلمى :

إخوانى وزملائى :

إن أول ما نبدأ به هو أن نوجه الشكر الخالص إلى السيد نائب وزير التعليم والبحث العلمى على تلك الكلمات الطيبة التى تفضل بها . وإنى أشاركه فى الترحيب بزملائنا أعضاء مؤتمرنا ، الذين وفدوا إلينا من البلاد العربية الشقيقة ، وهم شركاء لنا فى كل ما نبذله من جهد ، فى خدمة اللغة العربية ، ولست فى حاجة أن أشير إلى أن مجمع اللغة العربية بدأ حياته فى تعاون صادق منذ نصف قرن تقريبا مع وزارة المعارف حينذاك ، ثم وزارة التربية والتعليم بعد هذا ، ثم انقطعت الصلة وقتا ما ، وعاد المجمع مرة أخرى إلى قواعده مع وزارة التعليم والبحث العلمى . وإنصافا للتاريخ أود أن أشير إلى بعض الأعمال المجمعية التى تمت خلال نصف القرن هذا ، وهذا مثل من أمثلة التعاون بين المختصين والقائمين على أمر تعليم اللغة العربية ورعايتها . أقول — إنصافا للتاريخ — أود أن أقرر أن مجمع اللغة العربية اتجه نحو معجمه الوسيط بناء على رغبة من وزير سابق لوزارة المعارف هو المرحوم محمد على علوبة ، فقد طلب إلى مجمع العربية أن يضع معجما مدرسيا ، يغنى أو على الأقل ، يمكن أن يحل محل مختار الصحاح والمصباح المنير . عرض الأمر على المجمع فرحب — حينذاك — وسار به شوطا طويلا ، قضى فيه نحو عشرين عاما أو يزيد ، يعد مادته ولكنه — وهو مجمع أكاديمى — لم يقف عند الرغبة الأولى التى اتجه إليها الوزير حينذاك فجاء معجمه أوسع من المعجم المدرسى . والمعجم الوسيط لم يمض على طبعته الأولى التى ظهرت عام ١٩٦١ بضع سنوات حتى نفدت ، ثم أعد للطبع فى عام ١٩٧٢ ، ودرج المجمع دائما على ألا يعيد مطبوعا إلا بعد تنقيحه وتهذيبه ، فيضيف ما يضيف ، ويحذف ما يحذف . ولست فى حاجة إلى أن أقول لكم : إن هذا المعجم الوسيط يجد طريقه إلى الدارسين والباحثين فى العالم العربى جميعه ، بل فى العالم الإسلامى . وأستطيع أن أقول أيضا : إن سوقه خارج مصر أروج من سوقه فى مصر . وها نحن أولاء نعد العدة لطبعته الثالثة وأرجو أن نقدمها للمطبعة قريبا إن شاء الله . ولست فى حاجة إلى أن أشير إلى طبعات أخرى قام بها بعض الشطار فى الأقطار الشقيقة ، ولم نحاول أن نحاسبهم على ما صنعوا ولكننا اضطررنا فى العام الماضى أن نخرج خمسة آلاف نسخة مصورة من الطبعة الثانية ، لأننا أحسسنا أن السوق فى

(*) ألقيت الكلمة فى الجلسة الافتتاحية من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢ م .

حاجة إليها ، وكان الباحث الكبير فى هذا أن نقاوم السوق السوداء فى أسعار المعجم الوسيط .

ولا أظننى أبالغ إن قلت : إن المعجم الوسيط يعد معجم القرن العشرين العربى .

على أن الأمر فى التعاون بين المجمع ووزارة المعارف ، أو وزارة التعليم ، لم يقف عند هذا ، بل شاء وزير آخر من وزراء التعليم أن نعود إلى فكرة المعجم المدرسى ، وهو السيد / كمال الدين حسين ، فاتجه نحو هذه الفكرة فى جد ، ورحب المجمع برغبته الترحيب كله ، وكون لجنة مشتركة من القائمين على أمر اللغة العربية فى وزارة التربية والتعليم ، ومن رجال المجمع أنفسهم ، وقد سارت فى الطريق شوطا ، ثم انقطعت الصلة فأبى المجمع إلا أن يسير فى طريقه ، وانتهى أخيرا فى العام الماضى بأن يخرج معجمه الوجيز ، الذى أخرجه مرة أخرى تلبية لرغبة وزارة التربية والتعليم أو وزارة التعليم ، أو وزارة المعارف على حسب أطوار الزمان . هذا المعجم الوجيز ، وإن كان حديث العهد ، لست بحاجة إلى أن أقول : إنه مطلوب فى العالم الخارجى وله سوقه فيها ، ولا أظن أن وزارة التعليم ستغفله ، بل أعتقد أنها ستفيد منه ، فى أن تزود كل طالب من طلاب المدارس الثانوية بنسخة منه على نحو ما كان يحدث فى الماضى من تزويدهم بنسخة من المصباح المنير ، أو مختار الصحاح .

وأختم بمثال آخر فى التعاون التام بين المجمع والقائمين على أمر تعليم اللغة العربية ، هو تلك القضية الكبرى ، قضية تيسير النحو ، ولا تنتظروا من أكاديمى أن يغلق الباب على البحث فى الأجرومية للمتخصصين ماشاءوا ، وليس من عملنا أن نعارض هذا البحث ، أو أن نضيّقه أو نحدّده وإنما الذى يعنينا - كمعنيين بأمر اللغة ونشرها ونحن نعيش فى عصر التعليم الإجبارى . الذى يراد به أن تكون اللغة طوعا لكل أبناء الشعب فى الأمة العربية جميعها - أن نبحث عن سبل التيسير فى تقديم هذه اللغة لطلابنا ، وهنا - مرة أخرى - نجد وزيرا آخر من وزراء وزارة المعارف هو المرحوم بهى الدين بركات ، قد استوقفته مشكلة الأجرومية العربية ، أو مشكلة النحو كما يسمونها ، فشكلت لجنة عام ١٩٣٠ فى أواخر العقد الرابع من هذا القرن مثلت فيها وزارة التعليم والجامعة وانتهت إلى بعض المقترحات ، التى أرسلت إلى مجمع اللغة العربية ، فقضى عاما كاملا يدرسها ، وعامه الكامل حينذاك كان شهرين كاملين من الدرس بين المصريين والعرب والمستعربين ، وانتهى إلى قرارات زودها بتوصية هامة ، تقول : إن تلك المبادىء التى وُضِعَت تَستَلْزِم أمرين أساسيين فى تنفيذها : الأمر الأول : إعداد الكتاب الملائم لها .

والأمر الثانى : تهيئة المدرِّس لذلك .

ولم يكن من عمل مجمع اللغة العربية أن يضطلع بهذين العبئين ، وترك أمرهما إلى وزارة المعارف أو وزارة التربية والتعليم بعد ذلك ، وقد شاء وزير جرىء من وزارة التربية والتعليم هو السيد / كمال الدين حسين أن يضع هذا الموضوع موضع التنفيذ ، وقد أسف هو وأسفنا جميعا ، لأنه وُضع دون أن يؤخذ فى الاعتبار ما أوصى به مجمع اللغة العربية من قبل ، من إعداد الكتاب الملائم ، ومن تهيئة المدرس لتقبل هذه الصورة الجديدة من تعليم الأجرومية العربية وكانت النتيجة أن التجربة لم تحقق الغرض المقصود منها ، ولا يزال حديث تيسير النحو قائما ، وقد قال مجمع اللغة العربية فيه كلمته ، وأحس أن المربين والمعلمين ومدرسى اللغة العربية يشعرون بالحاجة إلى ذلك ولهم جهودهم ولكنى أرجو أن تتسع هذه الجهود ، وأن تصل إلى مدى قريب ، مما سبق لمجمع اللغة العربية ووزارة المعارف نفسها أن وصلت إليه ، ولا أظن أن هذا مسلك جديد ، فقد سلكته اللغات الأخرى ، وأنتم تعرفون ما تم بوجه الخصوص فى أجرومية اللغة الإنجليزية .

وألقى بعض الزملاء فى هذه الجلسات التسع بحوثا فى الموضوع المقترح للمؤتمر وهو « لغة العلم » ، كما ألقوا بحوثاً أخرى فى موضوعات لغوية ، وأدبية ، وعروضية . وكان للشعر نصيب ملحوظ بقصيدة الزميل الأستاذ محمد عبد الغنى حسن : تحية للمؤتمر ، وقصيدة للطبيب الدكتورحسن إبراهيم : « فى الدين والدنيا»

وفى الجلسة الختامية أصدر المؤتمر التوصيات والقرارات التالية :

١ — يوصى المؤتمر وزارات التربية والتعليم فى مصر والوطن العربى بضرورة تيسير تعليم النحو للناشئة فى ضوء الصيغة الميسرة التى قدمها الدكتور شوقى ضيف وأقرها مجلس المجمع ومؤتمره .

٢ — يوصى المؤتمر بأن تُعنَى وسائل الإعلام — صحافة وإذاعة مسموعة ومرئية — بضرورة الحفاظ على قواعد اللغة العربية ونطق الكلمات نطقا سليما وإعداد العاملين بها إعداداً لغوياً وصوتياً . مستعينة فى ذلك بالأساتذة المتخصصين فى مجالى النحو والصوتيات .

٣ — إن الحفاظ على سلامة اللغة العربية يتطلب من الجامعات والمسئولين فى وزارات التعليم ضرورة العناية باستخدام اللغة العربية السليمة فى التدريس سواء فى فروع اللغة العربية أو المواد الأخرى ، ومن ثم يوصى المؤتمر بضرورة إعداد المدرسين إعدادا لغويا وصوتيا ييسر لهم استخدام اللغة العربية فى التدريس استخداما صحيحا .

٤ — يوصى المؤتمر الصحافة العربية بمزيد من العناية بسلامة لغتها ، ويقدر للصحافة ما أخذت به من تخصيص جانب من صفحاتها للثقافة العربية بعامة ويوصى كذلك بفسح مجال أوسع لها ، مع ضرورة الاهتمام بما تخرجه الهيئات المتخصصة فى مجال اللغة العربية وفنونها المختلفة .

٥ – إن تعريب التعليم الجامعى هدف يسعى إليه العالم العربى بأسره . وسبيله الحق هو تزويد مكتباتها بالمصادر العربية القديمة والحديثة ، وتزويدها بفهارس المكتبات الأخرى فى العالم العربى ؛ حتى يتيسر للباحثين إنجاز مهامهم العلمية التى أصبحت الآن فى حدود قواعد ضيقة قليلة .

هذا هو مجمع اللغة العربية فى صلته الوثيقة بوزارة المعارف ، أو وزارة التعليم ، وله صلة أخرى هامة ورئيسية هى لغة العلم ، وأستطيع أن أقرر – دون تردد – أن لغة العلم تشغل من نشاط مجمعنا مالا يقل عن ٦٠٪ من هذا النشاط ، ويكفى أن أشير إلى أن لجان المجمع المتخصصة ، وتكاد تبلغ العشرين أو تزيد ، فيها نحو ست عشرة لجنة منها ، تُعْنَى بالمصطلح العلمى فى الطبيعة والكيمياء والصيدلة والأحياء والزراعة والجيولوجيا والهيدرولوجيا إلى جانب العلوم الرياضية والإنسانية المختلفة ، وفى كل ذلك يتخذ المجمع مقررات مختلفة ، ويقرّ مصطلحات معينة .

وإنصافاً – مرة أخرى – للجهد المجمعى ، أحب أن أشير إلى أن المجمع فى هذا ليس مصنعاً ولا معملاً للألفاظ ، وإنما هو يسجل ما يرتضيه من استعمال استقر وقدرت له الحياة التى نقدرها بألا تقل عن ثلاثين سنة فى الاستعمال المألوف ، تأليفا أو كتابة ، فى الصحافة أو فى المجلات العلمية . المصطلح العلمى هنا فى مجمع اللغة العربية من صنع أساتذة العلم فى جامعاتنا وغيرها ، وهؤلاء هم خبراؤنا ، وعنهم نأخذ ما نأخذ من مصطلح علمى .

وليس لنا أن نتكلم عن الرياضة مثلا ، دون أن يكون بيننا أستاذ رياضى إلى جانب الرياضيين المجمعيين أنفسهم ، أمثال الدكتور محمد مرسى ، شفاه الله ، وغيره من أساتذة الرياضة الآخرين ، أريد بكل ذلك أن أبين أن مجمع اللغة العربية ليس مغلقا كما يظن ، بل هو مفتوح للبحث والدرس .

وهذه الجهود على اختلافها ، لغوية كانت أو علمية ، يسعدنا أن إخواننا وزملاءنا من أعضاء المجمع فى الأمة العربية يشاركون فيها عن بعد ، وعن قرب ، فنحن على اتصال بهم ، نبعث اليهم على مدى العام بما تنتهى إليه لجاننا من دراسات وما يتخذه المجلس من قرارات ، ثم النظر فيما ينبغى أن نعيد النظر فيه .

تلك جوانب أحببت أن أشير إليها بمناسبة هذا المؤتمر ، ونحن على مقربة من العيد الخمسينى ، الذى أرجو أن نحتفل به جميعا فى العام المقبل إن شاء الله . وهنا لا يفوتنى قبل أن أختم كلمتى أن أشكر الدكتور سيد نوفل الذى أتاح لنا ، كما أتاح لنا من قبل ، أن نلتقى فى رحاب هذه الدار بجلستنا الافتتاحية ، ثم نعود مرة أخرى إلى مجمعنا للبحث والدرس إن شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله .

ابراهيم مدكور
رئيس المجمع

المجمع بين مؤتمرين

للدكتور مهدى علام الأمين العام للمجمع

السيد وزير التعليم والبحث العلمى :

السيد رئيس المجمع :

السادة الزملاء أعضاء المؤتمر :

سيداتى . . سادتى :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد ،

فيسعدنى أن أرحب بكم ، فى افتتاح مؤتمرنا المجمعى ، ترحيب الشكر والتقدير والعرفان ، وأخص به من أقبلوا إلينا من زملائنا العرب الأشقاء ، والمستعربين الأعزاء ، ليسهموا فى هذا المؤتمر اللغوى الكبير ، الذى يقيمه المجمع للعربية كل عام . وكم تجتلى فيه آيات بينات ، شواهد على ثراء هذه اللغة ، وما تمتلكه من طاقة خلاقة ، تهيىء لها أسباب البقاء والنماء والعطاء ، فهى تنفرد بين اللغات بالعراقة والخلود ، وبالقدرة على التطور مع كل مستحدث جديد ، وحسبها شرفا أنها اللغة الوحيدة التى ظلت أطول مدة فى التاريخ لغة حية ، موصولة الكيان ، يفهم أهلها اليوم ما نطقت به منذ أكثر من ستة عشر قرنا ، وهو ما لا يتحقق للغتين العريقتين الأخريين ، اللاتينية واليونانية . ولعل الحديث عن مؤتمرنا السابق ، وما أنجزه المجمع ليعرض على هذا المؤتمر اللاحق ، دليل صادق ناطق ببعض ما نوهت به من شأن لغتنا العربية .

المؤتمر السابق :

لقد تابع المؤتمر السابق نشاطه فى اثنتى عشرة جلسة ، منها ثلاث علنية ، إحداها جلسة الافتتاح ، وخصصت الثانية والثالثة لمحاضرتين عامتين ، ألقى إحداهما الزميل الدكتور شوقى ضيف ، وكان موضوعها : تيسير النحو ، وألقى الأخرى الزميل الأستاذ محمد زكى عبد القادر ، وكان موضوعها : لغة الصحافة .

أما الجلسات التسع الباقية فكانت مغلقة عرض فيها على المؤتمر ما أعدته لجان المجمع ، وأقره مجلسه ، من مصطلحات فى الجيولوجيا ، والهيدرولوجيا والفيزيقا ، والكيمياء والصيدلة ، والرياضة ، وعلوم النبات والحيوان ، والطب ، والتربية ، والتاريخ ، وألفاظ الحضارة ، ومواد المعجم الكبير من حرف الجيم ، ومسائل من أعمال لجنة الألفاظ والأساليب .

وبعد مناقشات فى هذه الجلسات تواصلت على مدى أسبوعين ، أقر المؤتمر

(*) ألقيت الكلمة فى الجلسة الافتتاحية من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢ م

أكثر ما عرض عليه من هذه المصطلحات العلمية ، والألفاظ الحضارية ، والمواد المعجمية .

كما أقر المؤتمر المسائل الآتية من أعمال لجنة الأصول ، وهى :

- حذف تاء التأنيث من المؤنث المجازى المصغر ، فى المصطلح العلمى .
- النسبة إلى المثنى فى المصطلحات العلمية .
- « لا » فى محدث الاستعمال .
- الجمع بين « لم » و « لن » ، وبين «لا» و « لن » بالواو ، فى العربية المعاصرة ، فى مثل قولهم : « لم ولن يخلف وعده » .

وأقر الألفاظ والأساليب التالية ، التى عرضتها لجنة الألفاظ والأساليب :

- الموسوعة .
- المنضدة .
- القيمة والقيم .
- صفراوى وصفرائى .
- جمد وتجمد .
- تربوى وتنموى .
- ترسم خطا فلان .
- فحص الشىء .
- مصر تشجب العدوان .
- الاستشعار من بعد .
- حتى أنت يا صديقى .

اعمال المجلس واللجان فى الدورة الحالية :

عقد مجلس المجمع تسعا وثلاثين جلسة ، إحداها علنية ، استقبل فيها زميلا جديدا فاز بعضوية المجمع ، وهو أحد شيوخ الفلسفة العربية والإسلامية ، الدكتور توفيق الطويل .

أما سائر الجلسات فكانت مغلقة .

وقد جدد المجلس انتخاب الأمين العام لمدة أخرى ، ونظر مجلس المجمع فى هذه الجلسات ما أنجزته لجان المجمع من مصطلحات فى الجيولوجيا ، والنفط ، والطب ، والكيمياء والصيدلة ، والأحياء والزراعة ، والهندسة ، والرياضة ، والفيزيقا ، والاقتصاد ، والتربية وعلم النفس ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والسينما ، وألفاظ الحضارة الحديثة ، وأقر المجلس منها أكثر من ألف وخمس مئة مصطلح ، ستعرض على مؤتمرنا هذا ، مع قرارات لجان الأصول ، والألفاظ والأساليب ، واللهجات ، ومواد جديدة أعدتها لجنتا المعجم الكبير .

مسابقة المجمع الأدبية :

كان موضوع المسابقة الأدبية ، فى الدورة السابقة : الشباب فى الأدب العربى الحديث - بحث فنى . وقد فاز بجائزتها الأولى الأستاذ صلاح الدين عبد العزيز .

أما الجائزتان : الثانية والثالثة فقد حجبتا لأنه لم يرق إليهما بحث من الأبحاث المقدمة إلى هذه المسابقة .

وقد أعلنت لجنة الأدب - بعد موافقة المجلس - مسابقتها فى هذه الدورة وموضوعها الشيخ مصطفى عبد الرازق، عضو المجمع- مفكرا وأديبا .

مسابقة المجمع فى احياء التراث :

فاز بجائزة المسابقة الأستاذ السيد إبراهيم محمد ، عن تحقيقه كتاب «ضرائر الشعر» لابن عصفور الأشبيلى الأندلسى . وقد قررت لجنة إحياء التراث ، تشجيعا لتحقيقه ونشره ، أن تكون لمسابقتها جائزتان : أولى وثانية وأقرها المجلس على أن تكون الجائزة الأولى ستمائة جنيه ، والثانية أربعمائة جنيه ، والمسابقة مفتوحة للعالم العربى ولجميع المعنيين بالتراث .

كذلك تسير اللجنة فى تحقيق كتاب آخر من أهم كتب التراث اللغوى وهو التكملة والذيل والصلة ، على القاموس المحيط ، تأليف السيد محمد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس ، وقد وزعت أجزاؤه على المحققين .

المعجم الوسيط :

توشك لجنتا المعجم الوسيط على الفراغ من إعداده للطبعة الثالثة، بعد مراجعة لغوية وعلمية ، وإضافة جزء ثالث إليه ، وهو الجزء الموسوعى الذى يتضمن ما يزيد على ألفى علَم من أشهر الأعلام العالمية .

العيد الخمسينى للمجمع :

كان من المقرر أن نحتفل به فى مستهل هذا المؤتمر ، لكن قصور الاعتمادات المالية ، والشئون الطباعية ، وتأخر تأثيث المبنى الجديد للمجمع ، واستكمال وسائل تجهيزه وإعداده ، كل هذا دفع بموعد الاحتفال بهذا العيد إلى مؤتمر العام القادم ، إن شاء الله .

مطبوعات المجمع :

أصدر المجمع فى هذه الدورة المطبوعات التالية . وهى :

— الجزء الثانى والعشرون من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية .

— مجموعات المصطلحات التى نفدت طبعتها ، فأعاد طبع أجزائها : من الثانى إلى السادس .

— محاضر جلسات الدورة السادسة والأربعين .

— الأجزاء : من الثانى والأربعين إلى الرابع والأربعين من مجلة المجمع .

— الجزء الثانى من كتاب «التنبيه والإيضاح» المعروف باسم «حواشى ابن برى على الصحاح» .

— « مع الخالدين » للدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع ، وهو باكورة مطبوعات العيد الخمسينى للمجمع .

وقيد الطبع المطبوعات التالية :

— الجزء الثانى من المعجم الكبير .

— الجزء الثالث والعشرون من مجموعة المصطلحات العلميّة والفنية .

— محاضر جلسات الدورتين : الثالثة والعشرين ، والرابعة والعشرين .

— محاضر جلسات الدورتين : الخامسة والأربعين ، والسابعة والأربعين .

— الجزء الخامس والأربعون من مجلة المجمع .

— المعجم الجيولوجى .

— الجزء الأول من معجم الفيزيقا الحديثة .

— الجزء الأول من معجم الكيمياء والصيدلة .

— المعجم البيولوجى (فى علوم الإحياء) ؛

— فهارس كتاب الجيم .

صلات المجمع الثقافية :

لا يدخر المجمع جهدا فى دعم صلاته بالمجامع والجامعات والهيئات الثقافية ، وبالباحثين من أساتذة العربية ، فى مختلف أرجاء العالم : شرقه وغربه .

ومن أبرز معالم هذه الصلات الثقافية فى الدورة الماضية ، مشاركة المجمع فى مؤتمر الاتحاد الدولى للأكاديميات الذى عقد فى بودابست ، فيما بين الرابع عشر إلى العشرين من يونية عام ١٩٨١ ، وقد مثل المجمع فى هذا المؤتمر الدولى الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع ، الذى اختاره المؤتمر مقررا للجنة التى كونها لدراسة مستفيضة لأعمال الفيلسوف العربى الكبير ابن رشد .

ومن أبرز معالم صلات المجمع الثقافية فى هذه الدورة ، مشاركة المجمع فى المؤتمر الذى دعت إليه كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، للبحث فى موضوع : « اللغة العربية فى الجامعات : واقعها ووسائل الارتقاء بها » .

وقد عقد المؤتمر بالإسكندرية فيما بين السادس والعشرين إلى الثلاثين من ديسمبر عام ١٩٨١ ، ومثل المجمع فيه الزميل الأستاذ محمد عبد الغنى حسن . وكانت له مشاركات فى عدة مؤتمرات دولية أخرى . بما له من صلات علمية وأدبية معروفة .

سيداتى ، سادتى :

لا يمضى عام دون أن تحظى بجائزة الدولة التقديرية بواحد من أعضاء مجمعنا الموقر ، وقد فاز بها هذا العام ، فى مجال العلوم ، الزميل الطبيب الدكتور أحمد عمار .

سيداتى . . سادتى :

أجدد ترحيبى بكم ، وشكرى للزملاء العرب والمستعربين ، الذين تجشموا مشاق الرحلة إلى مؤتمرهم المجمعى ، راجيا أن نسعد بهم ، وبمن تخلف من سائر الزملاء ، فى مؤتمر العـام القادم — إن شاء الله — ليشاركوا فى الاحتفال بالعيد الخمسينى لمجمعهم .

ولا يفوتنى أن أنوه بمن اعتذر منهم عن المشاركة فى هذا المؤتمر ، وهم السادة الزملاء :

— الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع الأردن .

— والأستاذ محمد مزالى عضو المجمع المراسل من تونس .

— المستعرب الإنجليزى الكبير الأستاذ سارجنت .

— المستعرب الألمانى الكبير الدكتور زلهايم .

شكرا سيدى الوزير ، شكرا أيها السادة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مهـدى علام

الأمين العـام للمجمع

كلمة الأعضاء العرب

للأستاذ عبد الله كنون

سيدى الرئيس :

السيد نائب وزير التعليم :

السادة العلماء والأساتذة :

أحييكم تحية مباركة طيبة باسم أعضاء المجمع الوافدين من مختلف أنحاء العالم العربى لمشاركة إخوانهم أعضاء المجمع من المصريين فى هذا المؤتمر الذى يعد مظهرا من مظاهر وحدة الأمة العربية، يمثل نضالها وتضامنها فى ميدان الفكر والتعبير الذى هو أساس كل وحدة فى أى ميدان آخر .

وإنها لفرصة عظيمة يتيحها لنا انعقاد هذا المؤتمر كل سنة ، فى مدينة القاهرة قلب العرب النابض وعاصمة الفكر العربى للالتقاء برجال اللغة وأعلام الأدب المؤتمنين على تراث العرب ، الذين قلما يجتمعون على صعيد واحد إلا فى هذه المناسبة الفريدة .

لذلك تهفو قلوبنا وتتحرك مشاعرنا كلما دنا الموعد ، وتلقينا الدعوة الكريمة للحضور إلى مؤتمر المجمع ؛ فنفد فى غبطة وسرور ونهبط مصر العزيزة فنجد فيها كل مانريد من متعة النفس والعقل والقلب والروح بجانب حفاوة الأهل والإخوة وإكرام الأقارب والخلان ، وإذا كان لى أن أذكر بشىء من التنويه والإكبار ما يبذله المجمع فى سبيل النهوض باللغة العربية وإحلالها المحل اللائق بها بصفتها لغة أكثر من مائة مليون نسمة ، ولغة الإسلام الذى يدين به نحو ($\frac{1}{5}$) خمس سكان العالم، ولغة العلم والحضارة فى الماضى ، والتجديد والانبعاث فى الحاضر ، فهذه أعماله ومنشآته كفيلة بإسماع الصم وإنطاق البكم ، ممن يتجنون عليه وينكرون أن يكون صنع شيئا للغتنا الضادية الشريفة.

فقد بلغ ماوضعه أو أقره من المصطلحات العلمية الحديثة أكثر من خمسين ألف مصطلح وما أصدره من قرارات تتعلق بتيسير قواعد اللغة العربية المئات ، وما أخرجه من مجموعات للمصطلح العلمى العشرات مما يكون معجما علميا بحتا بالمعنى الصحيح ، وهذا إلى المعجم الوسيط الذى شرق وغرب وأصبح توأم القاموس المحيط فى الشهرة والاستعمال، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ، والجزء الأول من المعجم الكبير الذى هو أول معجم من نوعه فى العربية، والمعجم الوجيز الذى سد فراغا كبيرا فى الاستعمال اليومى للكاتب والطالب وعموم الناس، إلى مجلته التى دأب على إصدارها منذ أكثر من أربعين عاما ، ولا أنسى ما يهتم المجمع بإخراجه من الكتب الأمهات فى اللغة مثل كتاب التكملة للصاغانى ، وكتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى ، وكتاب الأفعال للسرقسطى

(*) ألقيت الكلمة فى الجلسة الافتتاحية من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢ م .

وغيرها من نوافل الخير التي يقوم بها في سبيل خدمة اللغة العربية وإن لم تكن من واجباته الأساسية . إن الكثير من الناس لايعرفون شيئا عن هذا المجهود الضخم الذي يبذلـــه المجمع ، وكيف يعرفـــون وهو يعمل في صمت العلماء وتواضع الحكماء ، والجزء الأكبر من أعماله يخص النشاط العلمي والجامعي ولايطلع عليه إلا من كان من أهل المعرفة الكاملة والانقطاع إلى البحث اللغوى الصحيح .

ثم إن المجمع كان مقصورا — أو يكاد — على زملائنا من أهل الكنانة فلم تكن الأقطار العربية الأخرى تسهم في أعماله أو تلم بمنجزاته إلى أن وسعت دائرته فشمل البلاد العربية كلها ، وضم إلى حظيرته أعضاء من المشرق والمغرب العربيين فصار عمله معروفا ، ومجهوده مقدورا من كل من يعنى بتتبع النشاط الفكرى والعلمى في العالم العربي ، ولاأدل على ذلك من ظهور أثره في المعاجم الجديدة والاقتباس منه في كتب الاختصاصات العلمية التي تصدرها هنا وهنـاك ، ولا شك أن الفضل في هـذا الإنتاج الوافر يرجع إلى زملائنا أعضاء المجمع من أبنـاء مصر الحبيبة الذين يؤلفون مجلسه الدائب العمل الراتب الاجتماع واللجان العلمية المختلفة الاختصاصات التي تضم إليها العديد من الخبراء في العلوم والاختصاصات المتنوعة ، وإن كانت الهيئة الإدارية للمجمع تتفضل بإطلاعنا على أعمـال المجلس وتستطلع آراءنا فيها فنمدها في بعض الأحيان بملاحظاتنا التي تأخذ بعين الاعتبار لكننا مع ذلك نبقى معجبين بهذا العمل الرائع ، ونتطلع إلى أصحابه ونتوق إلى لقياهم في هذا المؤتمر لتزداد الرابطة العلمية بيننا قوة ومتانة ، ولنشهد من كثب عملهم في حرم المجمع ونتعاون معهم ولو في أيام قليلة على البر بحرف الضاد ولغة القرآن متمثلين في ذلك بمـا قاله بعض علـماء المغرب :

ولله قوم كلما جئت زائـــرا
وجدت قلوبا أصبة ملئت حلما
إذا اجتمعوا كانوا نجوم هداية
ويزداد بعض القوم من بعضهم علما
أولئك مثل الطيب كل له شذى
ومجموعه أذكى أريجا إذا شما

بارك الله في أنفاسهم ونفوسهم ، وأدام حياتهم وحيويتهم ، وجمع كلمة العرب ووحد صفهم وأدال لهم من عدوهم وحرر الأرض المغتصبة من وطنهم ، وأسبل على الإنسانية جمعاء رداء الأمن والسلام والسعادة والإخاء .

وأختم هذه التحية بأبيات شعرية تعبر عن مشاعر خاصة نحو الزملاء عامة :

التحايا كأنهن عبـــــــــير
أو نسيم يرق منه الشعـــور

والسلام الأمان تقرأه الأمـ

ـلاك عند استقبالها والحـور

والأماني دوانيـا كالمجاني

كلها يانع الثمار نضيـر

والصلاة والخشوع في هياكل الخلـ

ـد الذي يستطير منه النور

ثمت البـر والتودد والتعـ

ـظيم للخالدين والتوقير

من زميل أو ما زميل هنا إلا

مجاز عن عاجز لا يحير

قاصر أو مقصر بل هما فالشـأ

ن فيه القصور والتقصير

إن يكن قد غدا جليس الثريا

وهو منها سهيل المهجور

فالليالي يدنين كل بعيد

يقطع الدرب ما نأى من يسير

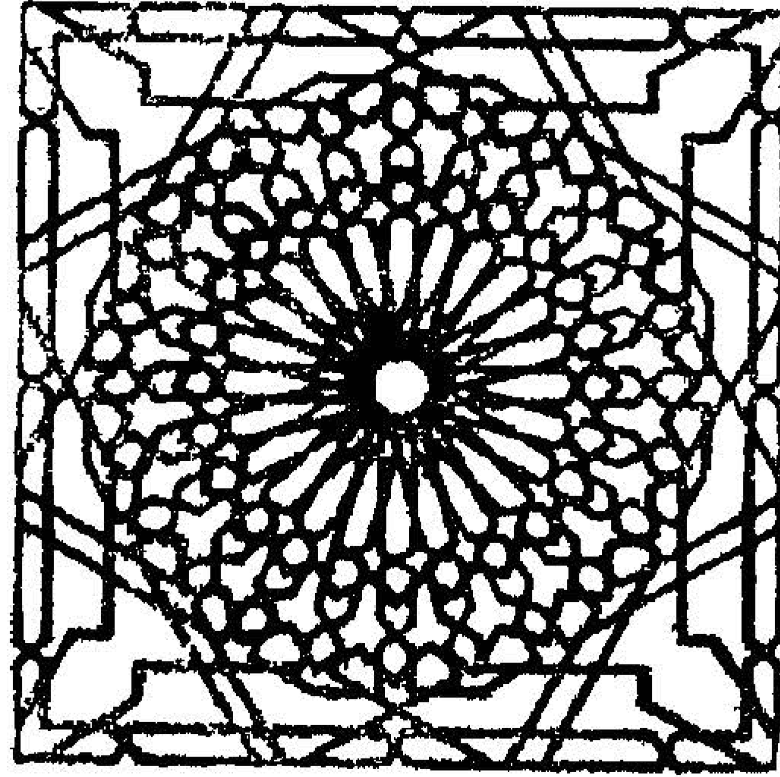
ولكم فاز إغريقيس بليلى

إن ليلى وصالها مقدور

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد الله كنون

عضو المجمع من المغرب



لقاء الأحبة

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

كلَّ عام لكم لدينا لقاءُ   يتجلَّى فيــه الهوى والوفــاءُ
سَنةٌ تنقضى ، وتُقبل أُخــرى   ورَبيــعٌ يأْتى ، ويمضى شــتاءُ
موعدٌ فى أَواخر البَرْدِ حيثُ الدِّ   فءُ يَسرى فتنشَط الأَعضــاءُ !
حيثُ (آذارُ) فيــه موكبُ الزهـ   ـر ، وفيه نضارةٌ ، وَرُواءُ . . . .
يُأْرَجُ الطيبُ منه فى كل روض   وترفُّ الظــلال ، والأَنْــداء
موســم تَنْجلى الطَّبيعةُ فيــه   ويرقُّ الهوى ، ويَصفو الهــواءُ
تُسْفِرُ الأَرض فيه عن كل حُسْنٍ   ليس فيه تنكُّرٌ ، أَو خَفــاءُ
فهىَ عُريانةٌ ، ولكنْ عليهــا   مِنْ شفيفٍ من الزهور كساءُ !
قِطعٌ فى الرياض شتَّى ؛ ولكن   للمتها غِلالــةٌ زهــراءُ . .
ياربيعَ الحياةِ ! أَنتَ حيــاةٌ   بعدَ موت ، وصحوةٌ ، ونَمــاءُ
موكبٌ يلتقى الأَحبَّــة فيــه   مثلمــا يلتقى مع الرَّاح مــاءُ !

* * *

مَزَجت بيننا المودةُ . . . حتى   لم تُفرِّقْ ما بيننــا الشَّحنــاءُ
الخلافاتُ بيننــا تَتــلاشى   ويَحــلُّ السَّمــاحُ والإغضــاءُ
ولكلٌّ منــا مســارٌ على الدَّر   ب ، ولكنْ أَهدافُنا جمعــاءُ
ما اختلفنا على «العُروبة» لما   خالفت بيننا لها الآراءُ . . . .

(*) ألقيت القصيدة فى الجلسة الافتتاحية من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٢ الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢ م .

كلٌّ قوم لهم طريقٌ . . . ولكنْ يلتقى فى النِّهاية البُعداءُ . .

* * *

أوَلسنا هنا نوطدٌ (للضـا د) ونَبنى لها ونعم البنـاءُ ؟
(مَجمعٌ) نلتقى عليـه جميعـا لتُنقَّى من بيننا الأخطـاء
حيث يغدو الأداءُ وهْـو سليمٌ ويعودُ اللسـانُ وهْـو نقـاء .
كلَّ عـام إليه يحتشـدُ الجمـ ع ، ويحلو الحـديث والإصغـاء
مِن رجالٍ لهم على البحث فضلٌ وعلى العلم أنعُمٌ غـراء
ويُذيبون فى الطُّروس عُيونًـا لم تُذِبْهنّ حُلْوةٌ حَسْـناء ! !
عَمَلٌ صـامتٌ بغـير ادِّعـاءِ لا ضجيجٌ فيـه ولا ضَوضاءُ !
أكَّـدوا العلم بالمحبَّـةِ حتىّ لم تَعبْهُـم ضغينـةٌ عميـاء .
لم تكـدرهُمُ السياسـة بالضِّغـ ن ، ولم تَطْوهم لها الأهواء . . .
فإذا دمـدمَ النقاش ففيهم حدَّة فى نقاشهم وضـراء
ويعودون للهُـدوءِ . . . كبحـرٍ هدأتْ فَوق مَتنهِ الأنواء . . .
فى المحاريب عاكفون على الدر س غِراثٌ إلى العلوم ظماء . . .
التقينا بهم هنا . . . . فتلاقى الـ عزُّ والمجدُ شامخًا ، والإباء
وعلى صفحةِ الوجـوه ائتلاق وعلى غُرة الجبين ضياء . .
وإذا ماصَفا الودادُ فإنَّ الـ كَوْنَ حُبٌّ مُذوَّبٌ وصفاء . .

* * *

شهدَ (المجلسُ الموقَّر) أنّـا فَوق أكتافِنا هنـا أعبـاءُ
شَرَفُ العبءِ أننا فيـه لسْـنا وَحْدَنا بل يُمِدُّنـا شركـاءُ
شُكرُنا للرجال فى (مجلس الشعـ ب) عميقٌ يعيا به الأبْنَـاءُ

قد أبانوا ، وأفصحوا ، فإليهم يتناهى مديحُنـا والثنـاءُ
ماشكَـونا جِملاً ، ولكن شكَوْنا أننا فى لساننا غُربـاءُ !
قد غزانا الدخيلُ من كلِّ لفظ فيه – والله – عجُمةٌ والتـواءُ !
أيها المُدْخِلُـون كلَّ غريـبٍ حَسْبنا فى بلادنا الدخلاءُ !

* * *

(انفتحنا) فى الاقتصاد . . . ولكن بَهَرتْنـا بزَيفها الأضـواءُ !
أَكذا يُصبحُ البيـانُ المصفَّى وهْو حىٌّ ، واللفظُ وهْوَ هُراءُ ؟
كيف نرجو شأْوَ القوىِّ وفينـا مَعْشرٌ فى لسانهم ضعفاءُ ؟
ماكفانا الغـزْو السياسىُّ حتى قد غزتنا (الأفعال) و (الأسماءُ) !
التوَتْ أَلسُنُ الرجال ، وشاعَـت فى النـوادى رَطَانةٌ عجماءُ !
وعلى كل متجر قـد تبدَّتْ كلمـاتٌ غريبـة ، شوهـاءُ
فمَعانٍ من البيـان خـلاءٌ وبيـانٌ من المعانى خَـواءُ . . .!

* * *

نحن لانحظُر اقتراضًـا للفْـظٍ فهْو باب فيـه لنا إثـراءُ
فليكُنْ أخذُنا (الغريبَ) اعتـدالاً مثلما كان قومُنا العقـلاءُ !
كيف ضاقت (أُمُّ اللغات) بشىء كان فيه أخذٌ لها وعطـاءُ ؟
فتِّشوا مُعجـم (المخصَّص) تلْقَوا ثَروةً فيـه مالهـا إحصـاءُ
لم يضَيقـوا بأَىِّ معنًى دقيـقٍ احتوته السمـاءُ والغـبراءُ . .!

* * *

أيها الوارثونَ مَجْـدَ (معَـدٍّ) وعُلا (يعْـربٍ) وهُم آبـاءُ
إنْ أردتم لكم قوامـا صحيحاً فلتقـوم لسـانَهـا الأبنـاءُ !

* * *

أَصحـــيحٌ بـــأَنَّ عاماً تولَّى وأُناساً راحـوا ، وقوما جاءُوا ؟
أَصحيـــحٌ بـــأَنَّ عاما تَقضَّى بالـــذى شئتُهُ ، وما لا أَشاءُ ؟
أَصحيـــحٌ بأَن دَورة دهـــرٍ انتهـــى أمرها ، وحـــانَ ابتداءُ ؟
أَصحـــيحٌ بـــأَنَّ مافـــات منـــا هـــو بدءٌ ، وليس فيـــه انتهاءُ ؟
حِقبةٌ من مسافـــة العُمر ، فيها ناوبتْنا الأَفـــرَاحُ ، والأَرزاءُ . . .
طلعَ الصُّبحُ بالمواكب زُهْـــرا وتولَّـــى بفضِّهنَّ المســـاءُ . . . !
فإِذا الضاحكونَ فى موكب الشَّمـــس ، وقد ذوَّبَ العيونَ البكـــاءُ
عِبَرٌ للحيـــاةِ . . . نعرفُ منهـــا كيف تمضى الحيـــاةُ ،والأَحيـــاءُ ؟ !

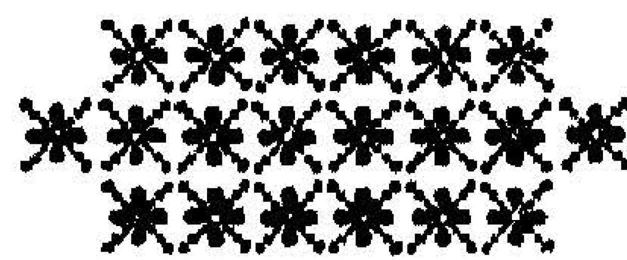
* * *

سَقَطَ الفارسُ الشجـــاعُ مهيضا ضرَّجتـــه فى غير حـــرب دمـــاءُ
وَهَـــوى النَّسْرُ من عُـــلاه وبات الـ قصْرُ من ساكنيه وهْـــو خـــلاءُ !
بقى اللهُ . . . وانتهى كلُّ حـــىٍّ مالشىءٍ ســـوى الإِله بقـــاءُ . .
فَرِدَ اللهُ بالدَّوام . . . وأمـــا كـــلُّ شَىْءٍ عـــداهُ فهْو هباءُ . .

* * *

هٰهـــنا نلتقى على شَرَف (الضا د) فمنها لنا هـــوىً وانتماءُ
صانهـــا الله (بالكتاب) فعزّتْ ولهـــا فيه موئـــلٌ واحتمـــاءُ
أَنا ـ والله ـ لستُ أَخْشى على (الضا د) وفيها منْ بينكم نصـــراءُ
كيف نَخشى هنا على الأَرض شيئاً قـــد أمدَّتـــه بالخلـــودِ السماءُ ؟

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع



تراثنا الفكرى واللغوى

للدكتور ابراهيم مدكور

١ — للحضارات الإنسانية الكبرى آثارها ومخلفاتها، من أدب وفن، وعلم وفلسفة. والحضارة الإسلامية من أعمق هذه الحضارات أثرا، وأوسعها أفقا. انتشرت ثقافتها شرقا وغربا، وامتدت إلى العالم القديم فى قاراته الثلاث. كتبت بعدة لغات: بين عربية وعبرية، وسريانية أو فارسية، وتركية وأردية، فتراث الإسلام الفكرى غنى فسيح طويل عريض عمّر قرونا متلاحقة، وأسهمت فيه شعوب مختلفة. وجّه إليه الدين أصلا، وكان الاشتغال به عبادة، وحفظه وتعهده قُرْبة تعددت ألوانه: فيه شرعيات، ولغويات وعقليات.

وتحت كل شعبة من هذه علوم وفنون، وتحت كل علم أبواب وفصول. ووضعت فيه بحوث ودراسات: مختصرة ومطولة، متون وأصول، شروح وحواش، تعليقات وتقارير.

نمت على مر الزمن وتنوعت أساليبها ومناهجها ويكفى للتدليل على هذا الثراء والنمو المطرد

أن أشير إلى مثلين اثنين: أولهما «كتاب الفهرست» لابن النديم، وثانيهما «كتاب كشف الظنون» لحاجى خليفة. وقد ظهر الكتاب الأول فى النصف الثانى من القرن الرابع للهجرة، وشاء واضعه أن يحصى ما أُلّف أو ترجم إلى العربية منذ صدر الإسلام. وهو ورّاق يتحدث حديث خبير. وأسفر إحصاؤه عن عشرات العلوم والفنون ومئات المؤلفات والمؤلفين. ثم جاء الكتاب الثانى بعد الأول بسبعة قرون فتضاعف العدد عشرات، بل مئات. وأصبحت الفنون نحو ٢٤٠، والمؤلفون نحو عشرة آلاف، والمؤلفات نحو خمسة عشر ألفا، وتتابع السير، واطرد النمو، وشهدت بذلك إحصاءات متلاحقة.

٢ — ولا سبيل لأن يعيش الفكر الإنسانى بمعزل عن السياسة يضىء معها حينا ويخبو حينا آخر.

يزدهر بازدهارها، ويُبْلَى بما يحل بها من ويلات ونكبات. وكثيرا ما قضت الحروب الداخلية

والخارجية على ما خلّف الفكر الإنسانى من نفائس وكنوز ، ويكفينا أن نشير إلى غزو التتار الذى أهلك الحرث والنسل ، وحرمنا من مؤلفات لا نعرف منها اليوم إلا الاسم ، أو بعض ما نقل عنها فى مؤلفات معاصرة . ومن حسن الحظ أن الأمراء والعلماء كانوا يتنافسون فى اقتناء الكتب والمخطوطات ، وكان ينسخ من الكتاب الواحد عشرات المخطوطات . وكثيرا ما أعيد نسخه فى عصور لاحقة .

وللوضع السياسى والخلاف المذهبى شأن فى تخير الكتب وجمعها ، فكان الفاطميون مثلا حُرّاصا على كتب الشيعة حرص السلاجقة على جمع كتب أهل السنة .

وأضحى لكل فرع من الدراسات مظان يبحث عنه فيها ، ففقه المالكية مدين فى حفظ أصوله لشمال أفريقيا ، ويرجع إلى الشام ومصر فى البحث عن كتب الشافعية .

ويعد اليمن اليوم أكبر مصدر لما بقى من مخلفات متأخرى المعتزلة . وأذكر أن المرحوم طه حسين استطاع يوم أن كان وزيراً للمعارف أن يرسل إليه بعثة كشفت عن بعض نفائسه ومن بينها كتاب المغنى للقاضى عبد الجبار الذى لم تستكمل أجزاؤه حتى اليوم . ويوم أن آل النفوذ السياسى فى الإسلام إلى الدولة العثمانية اتجهت حركة جمع المخطوطات وحفظها نحو مكتبات استامبول الخاصة والعامة التى نأمل فى صدق أن يستكمل حصرها وأن ييسر أمر تصويرها والأخذ عنها .

٣ — وللتراث العربى شأنه فى تاريخ الثقافة الإنسانية ، فهو ثمرة حضارة سادت العالم عدة قرون ، وهمزة وصل بين القديم والحديث ، أخذ عن الحضارات القديمة ما أخذ ، وأضاف إليها ما أضاف . احتفظ منها بأجزاء ضاعت أصولها ، ووجه إليها النظر فى التاريخ المتوسط والحديث . والتراث اللاتينى مدين دون نزاع للتراث العربى . بدأ يأخذ عنه منذ عهد مبكر ، فى القرن العاشر الميلادى . وامتد هذا الأخذ إلى عصر النهضة والتاريخ الحديث . وهناك قدر من مؤلفاتنا العلمية القديمة نفتقد أصلها العربى ، ولم يبق منها إلا ما احتفظت به الترجمة اللاتينية وعلى سبيل المثال نفتقد قدرا من أصول تفاسير ابن رشد على أرسطو ، فى حين نجدها مكتملة فى الترجمات العبرية واللاتينية .

واتجه الغرب مرة أخرى نحو الكنوز العربية فى التاريخ المعاصر ، وجدّ فى الكشف عنها والحصول عليها . وأعانه على ذلك الرحلة والسياحة ، ومكنه منه الاستعمار الذى فتح الباب فسيحا أمام الباحثين وهواة جمع النصوص النادرة ، وصاحب هذا أنّا لم نكن نقدّر حقا تراثنا ، ولم نحرص على حفظه ، ولايزال عُرضة للسلب والتجارة غير الشريفة . وفى المكتبات العامة الكبرى بأوربا وأمريكا أقسام عربية عامرة بمخطوطاتنا ومؤلفاتنا القديمة وقد وقفت شخصيا على مخطوط منطق « كتاب الشفاء » لابن سينا فى « اليودليان » « والمتحف البريطانى » قبل أن أحصل عليه من

مكتبات استامبول. ولم يكتف الغرب بهذا بل قام منذ القرن التاسع عشر بدراسات ببليوجرافية جادة حاولت حصر المؤلفات العربية القديمة ، والتعريف بها وبمؤلفيها ومن أهم ما ظهر منها فى أخريات هذا القرن فهرس مخطوطات القسم العربى بمكتبة برلين ، ويقع فى عشر مجلدات ، وصنف تصنيفا تاريخيا دقيقا .

ثم جاء بعده ببضع سنين « تاريخ الأدب العربى لبروكلمان » ، الذى ظهر أولا فى مجلدين اثنين ، ثم ألحق به بعد مدة ثلاثة مجلدات أخرى .

وعول عليه الباحثون تعويلا يذكر طوال النصف الأول من هذا القرن ، برغم ما أخذ عليه من نقص أو قصور . وبدأ زميلنا الدكتور فؤاد سزكين منذ أربعين سنة تقريبا يتدارك على بروكلمان بعض ما فاته ثم انتهى به الأمر إلى وضع دراسة ببليوجرافية جديدة تشمل مخطوطات العلوم الإسلامية المختلفة منذ النشأة حتى منتصف القرن الخامس الهجرى . وتقع فى عشرة مجلدات ينصب كل واحد منها على علوم معينة ، وختمها بفهرس عام . ويأمل أن يتابع الشوط حتى القرن الحادى عشر . ومما يؤسف له أن هذه الدراسات كتبت كلها بلغات أجنبية ، ونأمل أن تجد سبيلها إلى العربية وبدأت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية منذ زمن مضى ترجمة بروكلمان ، ولكنها لم تتابع السير . وترجمت أخيرا أجزاء من كتاب سزكين .

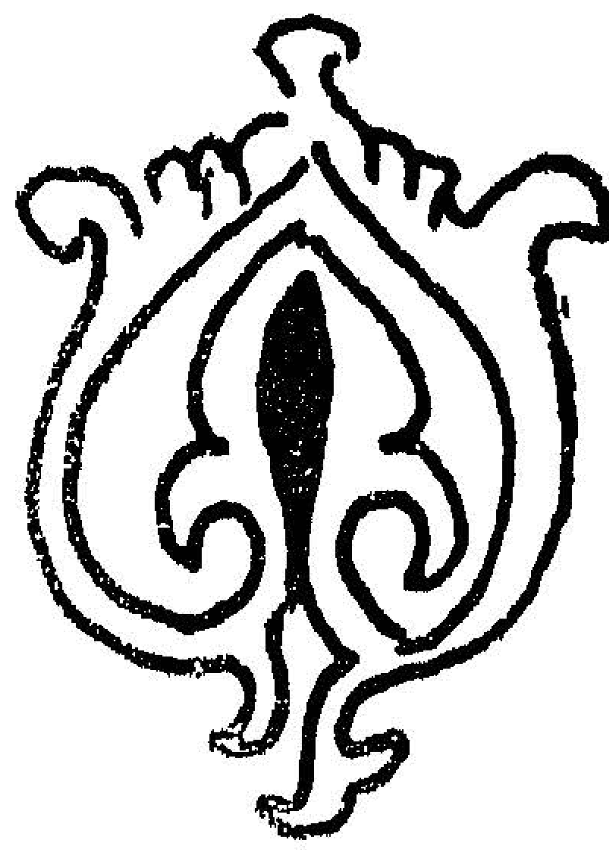
٤ — وليس تراثنا اللغوى بأقل شأنا من تراثنا الفكرى . تعهدناه منذ عهد مبكر وتوالت الوفود على البادية ، لكى تنهل من الحياض الأولى ، وتأخذ العربية من منابعها وتنافس النقلة والرواة فى السماع والحفظ والرواية ، ينقلون نثرا وشعرا ، خطبا وقصائد حكايات ونوادر ، وشجعهم على ذلك الخلفاء والأمراء ، وأجزلوا لهم العطاء . وربما كان بينهم بعض المحترفين ، ولكن كان على رأسهم رواة ثقات وأئمة أعلام ، أمثال . الأصمعى ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وعلى هؤلاء عوّل اللغويون والمحققون . ومهد ذلك كله للتأليف المعجمى ، وليس ثمة لغة من اللغات العالمية الكبرى توفر لها ما توفر للعربية من معجمات ، وقد افتتح الخليل بن أحمد عصر المعجمات فى القرن الثانى للهجرة ، ووضع « كتاب العين » المشهور. وتنافس الباحثون من بعده فى وضع معجمات فى أحجام متفاوتة ، وفى تبويب متنوع . ولا يكاد يخلو قرن بعد ذلك من ظهور معجم عربى ، وربما ظهر فى القرن الواحد عدة معاجم . وبين أيدينا من هذه المعجمات قدر لا بأس به ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوربية . ومنه ما لم ير النور بعد وتبذل جهود فى تحقيقه وإحيائه .

وقد رأى مجمعنا أن من واجباته الأولى أن يضطلع بشيء من هذا العبء ، إلى جانب معجماته الحديثة ، وبذل في سبيله جهودا متلاحقه .

وفي الاثنى عشر عاما الأخيرة استطاع أن يسهم في هذا الإحياء إسهاما ملحوظا فوضع نواة لمكتبة معجمية لم تكن رأت النور من قبل ، وتشتمل على ثمانية عشر مجلدا ينصب ست منها على «كتاب التكملة والذيل» للصاغاني ، وأربعة على «كتاب الجيم» للشيباني ، وأربعة أخرى على «كتاب الأدب» للفارابي ، واثنان على «كتاب الإبدال» لابن السكيت ، «وكتاب الأفعال» للسرقسطي واثنان أخريان على حواشي ابن برى وهو يتابع السير ، وتحت يده نصوص لغوية قيمة جديرة بالتحقيق والإحياء . ولست في حاجة أن أشير إلى أن تحقيقاته تجد سبيلها إلى العالم العربي بأسره ، ومن بينها ما نفدت طبعته الأولى .

هذا هو تراثنا الفكري واللغوي وما أحوجه إلى الجمع والتنسيق ، والحفظ والتسجيل والتحقيق والنشر. وجدير بنا أن ننظم الجهود المبذولة لنشره وننسقها تفاديا للتكرار ، وأن نأخذه في هذا النشر بالمنهج العلمي الدقيق ، وتراثنا العلمي بوجه خاص لم ينل بعد من عنايتنا ما نال من المستشرقين والباحثين الغربيين ، وهذا دون نزاع واجبنا ، وعلينا أن نؤديه . والسلام عليكم ورحمة الله .

ابراهيم مدكور
رئيس المجمع



حاشية على كناشة

للدكتور إسحق موسى الحسيني

أطرفنا الزميل المحقق الأستاذ عبد السلام هارون بطاقة من كُنَّاشة النوادر عامين متواليين . وأستأذنه فى أن أطرّز على كناشته هذه الحاشية تحيـةً له وإعجاباً به ، وهو الذى غاص فى بحور المكتبات وأخرج منها لآلىء كالدرّ الغوالى ، عرضها فى (نوادر المخطوطات) فى جزءين .

استرعت نظرى لفظة كناشة لندرة استعمالها فى هذا العصر . وقد أطلقها المؤرخ المرحوم محمود سليمان العابدى على كتاب له سماه (كُنَّاشة معلّم) صدر فى عمَّان سنة ١٩٧٢ م .

فما أصل هذه الكلمة ، وما معناها ، ومن استعملها ، وما الألفاظ المرادفة لها ؟

جذر الكلمة الثلاثى (كنش) شق (كنس) فكنش وكنس بمعنى واحد ، وهى سامية قديمة وردت بالسين فى العربية وبالسين فى الحبشية ከነሰ وبالسامخ فى العبرية כנס وبالسامخ وبالشين فى الكلدانية والآرامية ، وبالشين فى السريانية ܟܢܫ ومعناها فيها جميعا واحد هو الجمع . ولا حاجة إلى سرد الألفاظ المشتقة منها فى هذه اللغات .

وحسبنا أن نذكر كنيس وكنيسة وكِناس وكَنَّاس ومِكنسة .

والمعروف أن السين والشين تتعاوران فى اللغات السامية . فقنسرين بالعربية هو قنشرين بالسريانية ، وسلام بالعربية شالوم بالعبرية .

وردت كنش فى العربية . ونصّت المعاجم على معنيين لها هما :

١ — الكَنْش : أن يأخذ الرجلُ المسواك فيليِّن رأسَه بعد خشونة .

٢ — الكنش : فَتْلُ الأَكْسِيَةِ .

وربما كان فيهما معنى بعيد من كَنَس ، فالفتل يتضمن معنى الجمع .

وذكر التاج أن الجوهرى أهمل كَنَش . على كل حال لم تلحظ المعاجمُ القديمة العلاقة الوثيقة بين كَنَس وكَنَش . والتاج

(*) ألقى البحث فى الجلسة الثامنة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٢٩ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٣ من فبراير ١٩٨٢ م .

أول معجم — بحسب علمي — أثبت الكُنَّاشة في مادة كَنَش قائلاً : « ومنه — كنش — الكُنَّاشَة : الأوراق تُجعل كالدفتر يُقَيَّد فيها الفوائد والشوارد للضبط . هكذا يستعمله المغاربة . واستعمله شيخُنا في حاشيته على هذا الكتاب كثيرا » . ونقل عن التاج أصحاب المعاجم المصنفة بعده ،

أما علماء السريان مثل المطران توما (توماس) أودو في قاموسه (كنز اللغة الآرامية) ، والبطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث في كتابه(البراهين الحسيّة على تقارب السريانية والعربية) والبطريرك مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم في كتابه (الألفاظ السريانية في المعاجم العربية) فقد أجمعوا على أن الكلمة سريانية الأصل وزاد البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث أن الخفاجي ذكر في الشفاء أن « كُنَّاش زنة (غُراب) لفظ سرياني معناه المجموعة والتذكرة . والكَنْشُ الجماعة »

ولعل شهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٩٦هـ (١٦٥٩م) أقدم مَنْ نَصَّ على أن اللفظة سريانية في كتابه (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل) .

وعبارة الخفاجي ، علاوة على ما تقدم : « . . . والكَنْش الجماعة كما أخبرني به بعض الثقات من الأخبار . وقد وقع هذا اللفظ كثيرا في كلام الحكماء وسموا به بعض كتبهم كما يعرفه مَنْ طالع كتب الحكمة » .

وتبع الخفاجي المرتضى الزبيدي وعلماء السريان . واسترعى نظري الأستاذ المحقق قسطر M. J. Kister وأنا أخوض غمار هذا البحث الدقيق إلى أن عالمين مستشرقين طرقا هذا الموضوع قبل نحو ربع قرن . وخلاصة ما ذهب إليه أولهما للأستاذ جويتاين (Sh. D. F. Goitein) أن اللفظة آرامية دخلت العبرية من قديم الزمان بدليل ورودها في التلمود البابلي وكتب السامرة الدينية ولم تدخلها بوساطة اللغة العربية لورودها بالشين . وردّ عليه الأستاذ ن . ألوني[1] أن لفظة كِنُوش — بهذا النطق — لم تدخل العبرية إلا بوساطة العربية عندما اشتغل اليهود بالطب مع السريان في صدر الإسلام . وظني أن كلا الرأيين صائب مع توضيح يسير هو أن الاستعمال الأول كان بمعنى الجامع ومجموع الصلوات أو الأدعية فقط ، وهما من المعاني الرئيسية للفظة ، وأن الاستعمال الثاني بمعنى (المجموع في الطب) دخل العبرية بوساطة العربية فقط .

إن لفظة كُنَّاش (ج . كنانيش) وكُنَّاشة (ج . كُنَّاشات) لم تدخل العربية إلا في صدر الإسلام عندما ترجم السريان

---

(١) بحث الأستاذ « ن . ألوني » منشور في مجلة (قربات سيفر) مجلد ٣٢ ص ٤٩٥ سنة ١٩٥٧

كتب الطب إلى العربية ، ومن أقدمها كُنّاش ترجمة ما سرجيس (ماسرجون) من السريانية إلى العربية عن كتاب أهرون القَسّ زمن مروان أو عمر بن عبد العزيز (ابن القفطى ص ٨٠ — دائرة المعارف الإسلامية) .

ومن أقدمها كُنّاش فى الطب لجريس ابن جبريل بن بختيشوع المتوفى ١٥١ هـ (٧٦٨م) ويذكره ابن النديم باسم جورجس أبى بختيشوع[1] .

ذكر بروكلمان فى كتابه (تاريخ الأدب العربى) G. der Arab. Li.ratur أحد عشر كتابا باسم كُنّاش ، ستة منها فى الطب واثنان فى التصرف وواحد فى النحو والصرف ، وواحد لم أتحقق من موضوعه اسمه « كنّاش الحوارى فى الحسان الحوارى » لأبى الطيب الخزرجى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ .

وأثبت حاجى خليفة فى (كشف الظنون) عددا من الكنانيش فى الطب . وأثبت ابن النديم فى (الفهرست) عددا آخر .

ولا أدرى أأخطأ حاجى خليفة حين أثبت (كُنّاش) و(كُنّاشة) منفردين أم هو خطأ مطبعى . إذ لا شك فى أن ما أسماه (كناسه) ما هو إلا (كناشة) بدليل أن الكناستين اللتين ذكرهما هما فى الطب ، وأن كناسة بالسين لم ترد فى العربية قط فى ما بين أيدينا من مصادر .

وفرق الشيخ أحمد رضا فى (معجم متن اللغة) بين كُنّاشة وكُنّاش (زنة غراب) وشرح الكُنّاشة بأنها أوراق تجعل كالدفتر يقيد بها الفوائد والشوارد للضبط عند أهل المغرب ، وأظنه نقل العبارة عن صاحب التاج ، وشرح الكُنّاس (زنة غراب) بأنه لفظة سريانية معناها مجموع فوائد (معرّبة) الأمر الذى قد يوهم أن اللفظين مختلفتان ، والحال أنهما شىء واحد .

لقد وردت لفظة كُنّاش فى المصادر العربية بهذه الصورة على أنها مفرد جمعها كنانيش . ثم جاء صاحب التاج وأثبت كناشة — بالتاء المربوطة — جمعها كُنّاشات وجاراه فى ذلك الشيخ أحمد رضا فى معجم متن اللغة ودوزى فى قاموسه : " Sup. aux Dict. Arabes " جامعا بين كُنّاش وكُنّاشة رادّاً الأصل إلى الآرامية :

כְּנָשָׁה ويبدو لى أن لفظة كُنّاش شاعت فى المشرق العربى ، وأن كُنّاشة شاعت فى المغرب العربى لقول صاحب التاج : « وهكذا يستعمله المغاربة ، واستعمله شيخنا فى حاشيته على هذا الكتاب » .

ولكُنّاشة فى العربية الدلالات التالية :

(ا) الأصل تتشعب منه الفروع ، ولعلها متصلة بالمعنى السريانى القديم لنصّ القسّ

(١) قال ابن النديم فى الفهرس ط ليبزك ١٨٧٢ م ص ٢٩٦ : جورجس أبو بختيشوع فى صدر الدولة وكان فاضلا وله من الكتب كتاب الكناش المعروف .

جبرائيل قرداحى فى كتابه (اللباب فى الآرامية والسريانية والكلدانية)(ط ببيروت ١٨٨٩) بأنها عند علماء المنطق: المطلوب والنتيجة .

(ب) الموسوعة الطبية Pandectae وهى ما استعاض عنها العرب فيما بعد بالقانون مثل قانون ابن سينا وبالكليات مثل الكليات لابن رشد .

(ج) مجموع فوائد وشوارد .

(د) بمعنى الكشكول تدوّن فيه الملاحظات

وإذا كانت الكلمة من مواليد العصر العباسى فما الذى استعمله العرب فى صدر الإسلام ثم فى العصر الحديث بمعناها أو بما يشبهها ؟

لقد استعملوا القرطاس والدفتر والكراسة والكشكول والنوتة .

ولنلق نظرة سريعة على كلّ منها :

أما القرطاس — وهى فى الصحيفة من أى شىء كانت — فقد وردت مفردا وجمعا فى القرآن الكريم : « ولو نزّلنا عليك كتابا فى قرطاس . » الأنعام ٧ ، «وما قدَروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قُلْ مَنْ أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تُبدونها وتخفون كثيراً » — الأنعام ٩١ — وشرح المفسرون القرطاس بأنه « ما يكتب فيه من ورق ونحوه» . ووردت فى الشعر القديم مرارا . ومن ذلك قول جرير فى النقائض :

كأن ديار الحىِّ من قــدم البلى
قراطيس رهبان أحالت سطورها[١]

وذكر الجاحظ فى الحيوان أن أعرابية قالت : أتهدى لى القرطاس والخبز حاجتى[٢] ؟

ووردت فى شعر ليزيد بن معاوية وعروة بن أذينة وأبى الشِّيعى والشَّماخ بن ضرار .

وورد فى أنساب الأشراف للبلاذرى أن مروان بن الحكم صحب يوم مقتل عثمان إلى بيت فيه قراطيس[٣] .

ويبدو أن الكلمة يونانية أصلا . جاء فى معجم جاستر و « Marcus Jastrow » أن كلمة קַרְטִיס العبرية مأخوذة من اليونانية بمعنى ورقة أو وثيقة . وعلى ذلك تكون من ألفاظ الحضارة . وهى تكتب بالعبرية بالكاف والقاف . ويستعملون فى بلاد الشام (خرطوشة) بمعنى الورقة ، فهل هى من اللفظة نفسها ؟

أما دفتر — ج دفاتر — فقد ذكر معجمنا الوسيط أنها تركية . وذكر محيط المحيط للبستانى أنها فارسية معرّبة . أما التاج فذكر عن ابن دريد أنه لا يُعْرفُ لها اشتقاق . وذكر الخفاجى فى الشفاء أنها عربية صحيحة وإن لم يعرف لها اشتقاق .

---

(١) النقائض ج ١ ص ٥٣٧ ط ليدن سنة ١٩٠٥

(٢) الحيوان ص ١٩٢ ط القاهرة سنة ١٩٣٨

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ج ١ ص ٢٢ — القاهرة سنة ١٩٥٩

وأرجح أنها من اليونانية ΔΕΦΤΕRi ، دخلت العربية مع ألفاظ الحضارة فى قديم الزمان قبل أن يتصل العرب بالترك . ولكنها شاعت فى الفارسية والتركية حتى أنا لم نعرف فى المدارس التركية سوى الدفتر . ومنها الدفتر دار والدفترخانة . وفى الفارسية الدفتر خوانة بمعنى المدرّس . وشيوعها فى التركية حمل على الظن أنها من أصل تركى ولا تزال كثيرة الدوران على الألسنة فى المعاملات التجارية .

ومن أمثلتها فى الشعر القديم قول رؤبة ابن العجاج :

كيف ترانى أنتحى فى الدفتر
على قضيب الذاهبات الشُّبَّر[1]

وقول يحيى بن نوفل :

أبعد الدواة وبعد الطروس
وبعد انكبابٍ على الدفتر[2]

وذكر الجاحظ فى الحيوان لمحمد بن يسير :

إذا ما غدا الطلاب للعلم مالهم
من الخطّ إلا ما يدوّن فى الكتب
غدوت بتشميرٍ وجد عليهم
فمحبرتى أذنى ودفترها قلبى[3]

أما كراسة بمعنى الجزء من الصحيفة أو الدفتر فقديمة أيضا .

قال الجوهرى : « الكراسة واحدة الكراس والكراريس » ، وأنشد للكميت :

حتى كأن عراص الدار أوعيةٌ
من التجاويز أو كُراس أسفار

ويذهب البطريرك أفرام برصوم فى كتابه (الألفاظ السريانية فى المعاجم العربية) ، إلى أن اللفظة من أصل سريانى هو Couroço وليس على ذلك دليل قاطع لاسيما ومادة (كرس) فى العربية يشتم منها معنى الضم والجمع .

جاء فى القاموس المحيط : «الكِرْسُ أبيات من الناس مجتمعة ج أكراس .وقلادة ذات أكراس إذا ضُمَّتْ بعضها إلى بعض» . وروى التاج عن ابن الأعرابى : «كرس الرجل إذا ازدحم علمه على قلبه . وسُميت الكُراسة بذلك لتكرّسها» .

واليوم شاعت كراسة حتى حلّت محل دفتر فى مصر وبلاد الشام .

وتوجد كلمات أخرى مماثلة مثل كشكول أصلها قَدَح المكدّى يجمع فيه رزقه ثم أطلق على الكراسة . ويذهب البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث إلى أن الكلمة سريانية.

---

(١) ديوانه ص ٦١ ط برلين سنة ١٩٠٣ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٤٦٥ ط . ليدن سنة ١٩٠٤
(٣) سمط اللآلى ج ١ ص ٥١٥ ط . القاهرة سنة ١٩٣٦ .

ويذهب بطرس البستانى فى محيط المحيط إلى أنها فارسية ، وهو أرجح لورودها فى المعاجم الفارسية(١)

وفى الفارسية كشكول ساز = صانع الكشاكيل .

وقد أغفلها معجمنا الوسيط ومعجم متن اللغة لأحمد رضا . وإذا صح قول البستانى إنها أصلا قدح المكدّى يكون استعمالها بمعنى الكناشة مجازاً مستساغاً .

وكتاب الكشكول صنو المخلاة لبهاء الدين العاملى (١٠٣١ هـ) من الكتب الطريفة وهو يحتوى على طرائف مرسلة بلا أبواب ولا فصول . ومجلة الكشكول فى مصر شهيرة .

وما نزال نستعمل اليوم الكشكول للكراس الكبير أو المتفرع الموضوعات .

واستعملت لفظة (نوتة) بمعنى مايدون المرء من رأى أو خاطرة أو خلاصة المحاضرة . وهى من الإنجليزية . واسترعى نظرى قول الشيخ أحمد رضا فى مادة كناشة قوله : « وأكثر استعمالها — الكناشة — عند الأطباء وهى المفكرة عند أهل العصر . وأطلقها مجمع دار العلوم على ما يعرف بالنوتة » . وأذكر أنا كنا نستعملها فى الجامعة المصرية قديما . ورأيت استعمال جزازة بما يقرب من كراسة فى كتاب (الخواص) للحسين ابن على بن الحسين المغربى (٣٧٠ — ٤١٨ هـ) الذى حققه زميلنا الكبير حمد الجاسر ،

فقد ورد فيه قول المؤلف : « وقد سلمت لى من جزازات كشىء ما هو اليوم دال على مشاغلى بالدين القيم » وذكر فى موضع آخر أنه لم يسلم له سوى نسختين من الموطأ . فهل معنى جزازة هنا ما فضل من كتبه؟ وقال الحريرى :

إذا ماهبطتُ مصرا فبيتى
غرفة الخان والنديم جزازى

وذكر الشريشى فى شرحه للمقامات أن الجزازات قراطيس صغار كان الكداء يكتب فيها صفة حاله للاستجداء . فلما كانت تلك القطعة تسقط من الورقة سموها جزازة ثم اشتهر عندهم ماصغر من القراطيس بهذا الاسم .

(1) Dict. Persian Arabic and English by Francis Johnson, London 1852.
— The Concise Persian - English Dict. 1976 by Abbas A. Kashani, Tehran.
— Persian - English Dist. F. Steingass, London.

إن جزارة تستعمل اليوم مرادفة لبطاقة أى الرقعة الصغيرة من الورق يكتب عليها، وهى عربية أصيلة من جزّ . وبطاقة لهـا جملة دلالات مثل :

(١) بطاقة شخصية أو هوية — فى بلاد الشام .

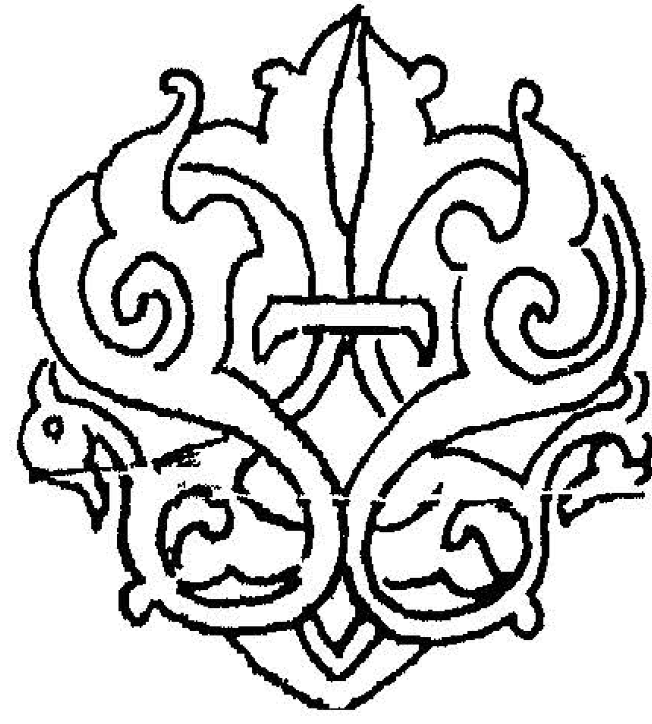
(٢) بطاقة زيارة .

(٣) بطاقة مواد غذائية أو التموين .

(٤) بطاقة معايدة .

وذهب بطرس البستانى إلى أنها تعريب (بتاكيون) اليونانية بمعنى الورقة والرسالة . ومع ذلك هى قديمة . جاء فى اللسان : (إن امرأة سألت ابن عباس عن مسألة فقال لها اكتبها فى بطاقة أى رقعة صغيرة » ثم قال : « وهى كلمة كثيرة الاستعمال بمصر حماها الله تعالى » . وهذا الدعاء مسك الختام .

اسحاق موسى الحسينى
عضو المجمع من فلسطين



الشمال والجنوب

للدكتور أحمد الحوفي

يبدر إلى الذهن أول وهلة أن الناس جميعاً يعرفون الشمال ويعرفون الجنوب ، لأنهما الجهتان الأصليتان اللتان تكملان الجهات الأصلية الأربع وهى الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وقد يتساءل بعض الناس عن السبب فى تخصيص الشمال والجنوب بدراسة ، بل قد يعجب من هذا التخصيص .

فما الداعى إذن لبحث عن الشمال وعن الجنوب ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال أضيف إلى العجب من دراسة الشمال والجنوب عجباً آخر هو أن كلمتى الشمال والجنوب لم تردا فى معاجم اللغة بمعنى الجهتين أو الناحيتين المعروفتين ، بل وردت كل منهما على على أنها اسم لنوع من الرياح هى الشمال والجنوب فلنستشر علماء اللغة . ثم علماء الجغرافية ، ثم نعقب بالرأى .

أولا : فى معاجم اللغة

المعاجم كلها تذكر أن الشرق هو الجهة التى تشرق منها الشمس . والغرب هو الجهة التى تغرب فيها الشمس .

لكنها لم تذكر — فى مادة شمل وجنب — أن الشمال والجنوب جهتان ، بل ذكرت أنهما ريحان[1] .

١ — الشمال

قال ابن دريد ٣٢١ ﻫ (٩٣٣ م) الريح الشمال معروفة ويقال لها شمال وشَمْأل وشامل بلا همز[2] .

وقال الأزهرى ٣٧٠ ﻫ (٩٨٠ م) :

الشمال : ريح تهب من قبل الشام عن

(*) ألقى البحث فى الجلسة الثالثة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٣٠ من ربيع الآخر ١٤٠٢ ﻫ ، الموافق ٢٤ من فبراير ١٩٨٢ م .

(١) ماعدا المعجم الوسيط فقد ذكر فى مادة جنب أن الجنوب الجهة المقابلة للشمال ، والريح التى تهب منها ، وفى مادة شمل أن الشمال الجهة التى تقابل الجنوب ، والريح التى تهب من تلك الجهة .

(٢) الجمهرة لابن دريد ٣ / ٧١

يسار القبلة ، والشمأل لغة فيها ، ويقال شأمل وشَوْمَل وشَمْل وشَيْمل ..

وأشمل يومنا : إذا هبت فيه الشمال .

وغدير مشمول : شملته ريح الشمال أى ضربته فيبرد ماؤه .

ونقل المادة عن أبى عُبَيْد وأبى عبيدة وأبى زيد والأصمعى والكسائى والليث وأبى حاتم وابن السكيت وابن حبيب [1].

وقال الزمخشرى ٥٣٨هـ (١١٤٣م) غدير مشمول : تضربه الشمال ، وليلة مشمولة : باردة ذات شمال ، ونَوًى مشمولة : مفرِّقة بين الأحبة ، لأن الشمال تفرق السحاب [2] .

وقال ابن منظور ٧١١ هـ (١٣١١ م) : الشمال الريح التى تهب من ناحية القطب ، ونقل عن المحكم لابن سيده وعن ثعلب وعن ابن الأعرابى ما سبق أن نقله الأزهرى ، وقال : إنها تكون اسما وصفة [3] .

ولم يخالف الفيروز ابادى ٨١٧هـ (١٤١٤)م فى شيء من هذا ، وزاد عليه أنها لاتكاد تهب ليلا [4] .

ثم جاء الزبيدى ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) فردد ما سبق به [5] .

٢ ـ الجنوب

أما الجنوب فقد ذكر ابن دريد أنها ريح معروفة [6]

وقال الأزهرى : الجنوب من الرياح حارة ، وهى تهب فى كل وقت ومهبها ما بين مهبى الصبا والدبور .

ونقل عن ابن بزرج وعن الأصمعى وعن ابن السكيت وعن عماره [7] .

وقال الزمخشرى: إنها ريح [8].

وذكر ابن منظور أنها ريح ، ونقل عن ثعلب وعن ابن الأعرابى وعن الأصمعى وعن عمارة وعن التهذيب للأزهرى وعن الصحاح للجوهرى ما يدل على أنها ريح ، وأنها عند سيبويه اسم وصفة ، وعارض الفارسى فى هذا [9] .

وذكر الفيروز ابادى أن الجنوب ريح تخالف الشمال ، مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا [10]

---

(١) التهذيب للأزهرى ١١ / ٣٧١

(٢) أساس البلاغة للزمخشرى مادة شمل .

(٣) لسان العرب لابن منظور مادة شمل .

(٤) القاموس المحيط للفيروزابادى مادة شمل .

(٥) تاج العروس للزبيدى مادة شمل .

(٦) الجمهرة ١ / ٢١٥ .

(٧) التهذيب ١١ / ١١٩ .

(٨) أساس البلاغة مادة جنب .

(٩) لسان العرب مادة جنب .

(١٠) القاموس المحيط مادة جنب

وقال الزبيدى إن الجنوب على وزن صبور ريح تخالف الشمال ، تأتى من يمين القبلة[١] .

ثم ردد المعجم الكبير ما ذكرته المعاجم السابقة ، ولم يذكر أن الجنوب جهة[٢] .

كذلك اتفق شراح القصائد الطوال الجاهلية المسماة بالمعلقات على أن الشمال والجنوب ريحان ، فى شرحهم لبيت امرىء القيس :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

أى لم يدرس رسمها لما نسجته من الجنوب والشمال ، فهو باق .

وكان الأصمعى يذهب إلى أن الريحين إذا اختلفتا على الرسم لم تعفياه ، ولو دامت عليه واحدة لعفته ، لأن الريح الواحدة تسفى على الرسم فيدرس ، وإذا اعتورته ريحان فسفت عليه إحداهما فغطته ثم هبت الأخرى كشفت عن الرسم ما سفت الأولى .

فى نسجت ذكر الريح . لأنه لما ذكرت المواضع والنسج والرسم دلت على الريح ، فكنى عنها للدلالة المعنى عليها[٣] .

ولكن فى لسان العرب وفى تاج العروس تعبيراً آخر جديراً بالانتباه إليه والحرص عليه ، هو : هذا أمر لأهل المدينة ومن كانت قبلته على ذلك السمت ممن هو فى جهتى الشمال والجنوب[٤] .

فى هذا النص اللغوى الفريد دلالة على أن الشمال جهة ، وعلى أن الجنوب جهة .

وسيتضح من أقوال الجغرافيين جميعاً الشمال والجنوب جهتان ، كما أن الشرق والغرب جهتان .

ثانيا : فى مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين

أما علماء الجغرافية — وهم ذوو الاختصاص — فقد نقلت آراء طائفة منهم ، مرتبة ترتيباً زمنياً لنتبين دلالة كل من الكلمتين منذ استعملوها .

١ — قال ابن خرداذبه ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) :

... وهو من القطب الشمالى عن يساره إلى وسط المشرق ...[٥] .

وقال : حد القسطنطينية من الجنوب بحر الشام ، ومن الشمال بحر الخزر ... وحد تراقية من المشرق السور ومن الجنوب عمل مقدونية ، ومن الشمال بحر الخزر .

---

(١) تاج العروس مادة جنب .
(٢) أصول المعجم الكبير (لم يطبع) مادة جنب . أما مادة شمل وشمال فلم يحن جمعها بعد .
(٣) شرح القصائد السبع الطوال . ابن الأنبارى ٣٢٨ هـ (٩٣٩ م)
وشرح القصائد السبع للزوزنى ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .
وشرح القصائد العشر للتبريزى ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) .
(٤) لسان العرب وتاج العروس مادة شرق .
(٥) المسالك والممالك لابن خرداذبه.

وعمل مقدونية حده من المشرق السور ومما يلي الجنوب بحر الشام[1] .

وقال : رومية لها ثلاثة جوانب ، منها الشرقى والجنوبى والغربى فى البحر والجانب الشمالى يلى البحر[2] .

وهذه نصوص قديمة فيها كلمة الشمال والشمالى والجنوب والجنوبى للدلالة على الجهة.

٢ – وقال الهمذانى – أبو عبد الله أحمد ابن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه – حوالى ٢٩٠ هـ (١٩٠٣ م)[3] :

عرض الأرض من القطب الجنوبى .... إلى القطب الشمالى[4] ...

وقال : والبحر الجنوبى[5] ..

وقال : ... اليمامة واديان يصحبان من مهب الشمال ويفرقان فى مهب الجنوب[6] .

فوصف القطبين بأنهما شمالى وجنوبى .

ووصف البحر بأنه جنوبى .

وعين واديين بأنهما ينبعان من مهب الشمال ، ويصبان فى مهب الجنوب ولا معنى للمهب إلا أنه مكان الهبوب أى الجهة .

٣ – وقال الهمدانى ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب :

فجنوبيها اليمن ، وشماليها الشام[7] .

وقال : تظهر على أهل الجنوب كواكب لا يراها أهل الشمال ، ويظهر على أهل الشمال ما لا يراه أهل الجنوب[8] .

وقال : فإذا مالت الشمس فى الشمال ..... سقطت الأظلال بها إلى الجنوب ، وإذا مالت... سقطت أظلالها إلى الشمال[9] .

٤– وقال المسعودى ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) : « وأما أهل الربع – ربع الأرض – الشمالى » وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين فى الشمال كالصقالبة والإفرنجة . . .

وأما أهل الربع الجنوبى كالزنج[10] . . .

---

(١) المصدر السابق ١٠٥

(٢) المصدر السابق ١١٣

(٣) الهمذانى بالذال المعجمة لم تعرف سنة وفاته ، ولكن المعروف أنه انتهى من تأليف كتابه (البلدان) سنة ٢٨٩ هـ عقب وفاة الخليفة المعتضد . وهو كتاب ضخم فى خمسة أجزاء فى حوالى ألفى صفحة ، وقد اختصره على الشيزرى سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) راجع بروكلمان ٤ / ٢٣٨ والأدب الجغرافى العربى تأليف : اغناطيوس كراتشكوفسكى ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ١٦٢ ومعجم الأدباء ٤ / ١٩٩ ، والأعلام للزركلى ، والفهرست لابن النديم ٢١٩ وذكر معجم المؤلفين أنه توفى سنة ٣٦٥ هـ .

(٤) البلدان للهمذانى ٥

(٥) المصدر السابق ٧

(٦) المصدر السابق ٥٨

(٧) صفة جزيرة العرب للهمدانى (الهمدانى بالدال المهملة) .

(٨) المصدر السابق ٣

(٩) المصدر السابق ١١

(١٠) التنبيه والإشراف للمسعودى ٢٢

قسمت الحكماء الأرض إلى جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب . . . فوحدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية الشمال...فبعرض ما بين الشمال والجنوب(١).

وقال : فما كان من الفلك آخذاً من الجنوب إلى الشمال يسمى العرض، وما كان آخذاً من الشرق إلى الغرب يسمى الطول (٢).

٥ - وقال الإصطخرى ٣٤٦ه (٩٥٧م):

وقسمة الأرض على الجنوب والشمال ... فما كان فى حد الشمال من هذين القسمين فأهله بيض، وكلما تباعدوا فى الشمال ازدادوا بياضاً . . . وما كان مما يلى الجنوب من هذين القسمين فإن أهله سود ، وكلما تباعدوا فى الجنوب ازدادوا سواداً (٣).

٦ - وقال المقدسى ٣٧٥ ه (٤٠٥ م) :

... القطب الجنوبى ... إلى الشمال ، ... فالخلق على الربع الشمالى من الأرض ، والربع الجنوبى خراب(٤) .

٧ - وقال أحمد بن محمد المرزوقى الأصفهانى ٤٢١ ه (١٠٣٠ م) :

أحد السماكين جنوبى وهو الأعزل ، والآخر وهو الرامح شمالى . . . منحدرة من الجنوب .

ونقل عن الفرّاء قوله : البوارج الرياح الصيفية ، وسميت بذلك لأنها هى السموم التى تأتى من الشمال . . . وجهة القطب الجنوبى وجهة القطب الشمالى . . . والتى تهب من جهة القطب الجنوبى هى الجنوب ، والنعامى وهى تهب من جهة القطب الشمالى وتسمى الشمال (٥) .

وتكرر هذا فى مثل قوله : ولكنى أعنى بالشمال والجنوب اللذين هما عن جانبى خط الاستواء(٦) .

فترددت فى كتابه كلمة الشمال والشمالى وكلمة الجنوب والجنوبى .

٨ - وقال البيرونى ٤٤٠ ه (١٠٤٨ م) :

... عند تناهى قرب الشمس من القطب الشمالى(٧) .

وقال : . . . البلاد المصاقبة لمقرهم فى مشارق الأرض وشمالها (٨) .

٩ - وقال الإدريسى ٥٦٠ ه (١١٦٤ م) :

والخلق بجملته على الربع الشمالى من الأرض وأيضاً فإن الربع الجنوبى غير مسكون(٩) .

وقال : إلى شمال التيه . . . إلى جنوب وسطها . . . فيمر فى جهة الشمال . . . فيتصل من جهة الجنوب بأرض هرقلية (١٠) .

(١) مروج الذهب للمسعودى ١ / ٨٦
(٢) المصدر السابق ١ / ٨٩
(٣) المسالك والممالك للاصطخرى ١٦ .
(٤) أحسن التقاسيم للمقدسى ٥٩
(٥) الأزمنة والأمكنة للمرزوقى ١ / ٢١٦
(٦) المصدر السابق ٢ / ٨٥
(٧) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى ٨
(٨) المصدر السابق ٣٦
(٩) نزهة المشتاق للادريسى ٨
(١٠) المصدر السابق ١١

١٠ – وقال ياقوت الحموى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) :

الخلق فى الربع الشمالى من الأرض ، والربع الجنوبى خراب . . . العمران فى الجانب الشمالى من الأرض أكثر منه فى الجانب الجنوبى ، ويقال : إن فى الشمالى أربعة آلاف مدينة ، وإن كل نصف من الأرض ربعان ، فالربعان الشماليان هما النصف المعمور . . . فهذا الربع غربى شمالى . . . فهذا الربع شرقى شمالى ، وكذلك النصف الجنوبى فهو ربعان : شرقى جنوبى... وربع غربى لم يطأه أحد[١] .

واختلف قوم فى هذه الأقاليم السبعة : فى شمال الأرض وجنوبها أم فى الشمال دون الجنوب . وذهب الأكثرون إلى أن الأقاليم السبعة فى الشمال دون الجنوب ، لكثرة العمارة فى الشمال وقلتها فى الجنوب ، ولذلك قسموها فى الشمال دون الجنوب[٢] .

١١ – وقال ابن سعيد المغربى (على ابن موسى) ٦٨٥ هـ (١٣٨٦ م) :

عرض المعمور أقصاه فى الجنوب إلى أقصاه فى الشمال ٨٠ درجة ، وما بعد ذلك فى الجنوب لا يسكن ، لقوة حرارة الشمس . . . وما بعده فى الشمال لا يسكن ، لقوة البرد والجمد .

ومجموع المعمور مقسوم على تسعة أقسام . المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب . . . إلى أقصى العمارة فى الشمال[٣]

وقال : المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب عرضه ١٦ درجة . لا يظهر فيه البحر المحيط من المغرب الأقصى ، ولا فى الجنوب .

وقال : كما تدخل إليها خمسة أنهار من الجانب الشمالى[٤] .

وقال : وتحتها بمصر نيل مقدشو الخارج فى شمال الخط ... ومجالات أكراو فى شمالها[٥] .

وقال : المعمور من الأرض فى شمالى الأقاليم السبعة[٦] .

ولقد ردد ابن سعيد الدلالة على جهة الشمال وعلى جهة الجنوب بقوله الشمال والجنوب تارة ، والشمالى والجنوبى تارة ، كما فعل كثير من سابقيه .

١٢– وأجتزئ من أبى الفداء ٧٣٢ هـ (١٣٣٠ م) بقوله :

خط الاستواء يفصل الأرض بنصفين ،

---

(١) معجم البلدان لياقوت ١ / ١٩

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٥

(٣) بسط الأرض فى الطول والعرض لابن سعيد ١١

(٤) المصدر السابق ١٢

(٥) المصدر السابق ١٣

(٦) المصدر السابق ١٣٣ .

أحدهما شمالى ، والآخر جنوبى .... أحد الشماليين هو الربع المسكون ...... وأما جنوب المغرب فإنه لم يصل أحد فيه إلى البحر ، وكذلك شمال المشرق[1].

١٣ ــ وهكذا ترددت كلمة الشمال والشمالى والجنوب والجنوبى فى نهاية الأرب للنويرى ٧٣٢ هـ (١٣٣٠ م)[2].

وفى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى[3] ٧٤٨ هـ (١٣٤٦ م).

وفى رحلة ابن بطوطة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م)[4]

وفى مقدمة ابن خلدون ٨٠٨هـ (١٤٠٦م)[5]

وفى صبح الأعشى للقلقشندى[6]، وقد ذكر أن أهل مصر يسمون جهة الجنوب القبلية ؛ لأنها فى جهة قبلتهم ، ولهذا يبدأون بها فى التحديد[7]..

لعل فيما سبق ما يعزز الصواب فى إطلاق الشمال والجنوب على الجهتين المكملتين للجهات الأربع ، ولأنه ليس فى اللغة ما يمنع هذا الإطلاق ، على الجهة وعلى الريح التى تهب منها .

وإذا كانت كل من الكلمتين قد سمى بها نوع من الريح فإن هذا لا يمنع من أن الريح سميت بالجهة التى تهب منها ، فالشمال جهة ، والشمال أيضاً الريح التى تهب من تلك الجهة ، وكذلك الجنوب .

وإنه لبزيد هذا تعزيزاً .

١ ــ أن ابن منظور والزبيدى ذكرا فى مادة شرق أن الشمال والجنوب جهتان .

٢ ــ وأن المرزوقى الأصفهانى نقل فى كتابه الأزمنة والأمكنة عن الفراء قوله :

البوارج الرياح الصيفية ، وسميت بذلك لأنها هى السموم التى تأتى من الشمال[8] . فجاءت كلمة الشمال فى هذا النص المنقول عن الفراء دالة على الجهة .

٣ ــ جاء فى لزوميات أبى العلاء المعرى قوله :

فيا دار الخسار ألا خـــلاص
فأذهب فى الجنوب أو الشمال

والجنوب والشمال هنا جهتان لا ريحان .

٤ ــ ثم إن علماء الجغرافية أجمعوا على على أن كلا من الشمال والجنوب جهة معينة .

وتردد فى مؤلفاتهم كلمات الشمال والشمالى والجنوب والجنوبى كما سبق .

وعجب أنه لم يرد فى المعاجم اللغوية إطلاق الشمال والجنوب على الجهتين ، كما جاء إطلاق الشرق والغرب ، مع أن مؤلفى هذه المعاجم منذ ابن دريد مؤلف الجمهرة ٣٢١هـ (٩٣٣ م) والأزهرى مؤلف التهذيب

---

(١) تقويم البلدان لأبى الفدا ٥
(٢) نهاية الأرب ١ / ٢٣٣ ، ٢٣٧
(٣) مسالك الأبصار ١ / ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩
(٤) رحلة ابن بطوطة فى مواضع متفرقة .
(٥) مقدمة ابن خلدون ٤٢٥ ، ٤٣٤ ، ٤٥٠ ، ٤٨٦ .
(٦) صبح الأعشى ٣ / ٢٢٤ .
(٧) يقصد تحديد الأرض الزراعية وغيرها .
(٨) الأزمنة والأمكنة للمرزوقى ١ / ٢١٦ .

٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) إلى الزبيدى مؤلف تاج العروس ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م). عاصروا الجغرافيين الذين أطلقوا كلمتى الشمال والجنوب على الجهتين[١]، أو عاشوا بعدهم وكان من البديهى أن يطلعوا على مؤلفاتهم وأن يطلقوا الشمال والجنوب على الناحيتين المعروفتين كما أطلقوا الشرق والغرب، أو ينقلوا عن علماء الجغرافية هذا الإطلاق وربما كانت المشكلة تبدو أهون وقعا وأقل تعقيدا لو أن اللغويين لم يطبقوا جميعا على أن الشمال والجنوب ريحان، على حين أن علماء الجغرافية أجمعوا على أن الشمال والجنوب ناحيتان أو جهتان.

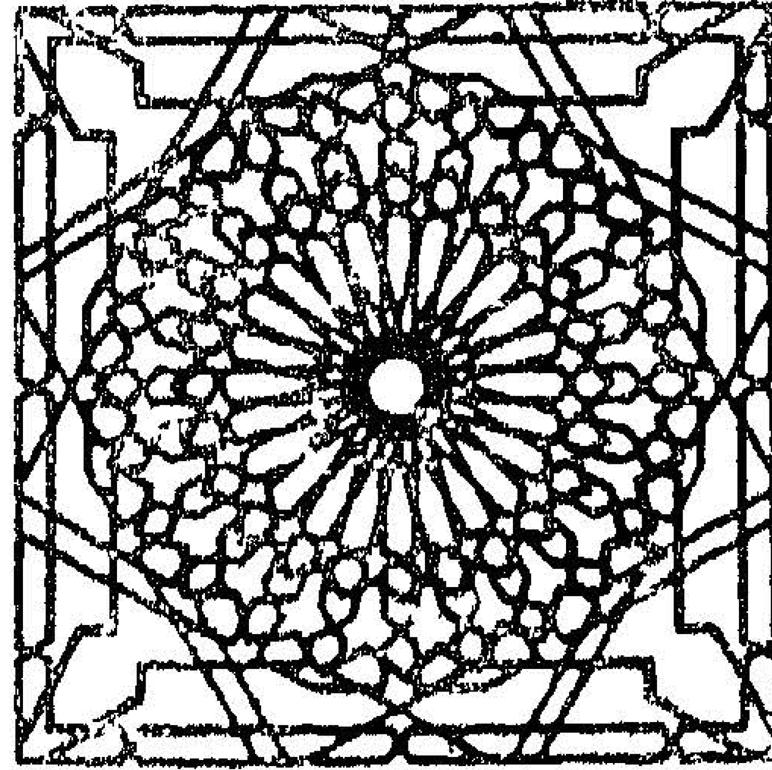
ولكن هذا التعقيد سرعان ما يزول إذا ما دللنا بكلمة الشمال على الجهة المعروفة وعلى الريح التى تهب منها، فهى الريح الشمال، أو هى الشمال، وإذا ما أطلقنا كلمة الجنوب على الناحية وعلى الريح التى تهب منها، فهى الريح الجنوب، أو هى الجنوب؛ لأنها اسم وصفة كما سبق وإن عارض فى هذا الفارسى.

ولهذا يصح تفسير بيت امرئ القيس:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

بأن رسم الطلل باق لأنه معرض لريحين متقابلتين تهبان عليه هما الريح الجنوب والريح الشمال، أوهما الجنوب والشمال، لأن إحداهما تعرى الرسم والأخرى تكسوه.

احمد الحوفى
عضو المجمع



(١) مثل ابن خرداذبه ٢٨٠ هـ والهمدانى ٣٣٤ هـ والمسعودى ٣٤٦ هـ والاصطخرى ٣٤٦ هـ والهمذانى ٣٦٥ هـ والمقدسى ٣٧٥ هـ والمرزوقى الأصفهانى ٤٢١ هـ والبيرونى ٤٤٠ هـ.

عندما ينفعل الشعراء فى الحادث الجلل :

المراثى النبوية وشعراؤها

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لاشك أن حادث انتقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كان حدثا عظيما تفزعت له قلوب العرب والمسلمين فى شبه الجزيرة العربية وفيما جاورها من البلاد التى ارتبطت بها ببعض الأسباب . ولقد أثارت وفاة الرسول الكريم كوامن الأحزان والأشجان عليه من كل من سمع بالخطب فيه . لم يخل من ذلك رجل أو امرأة ، شاب أو شيخ إلا ماروواه لنا « ابن الكلبى » ، ونقله عنه الإمام يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى فى « باب الشماتة » من كتابه الممتع : (بهجة المجالس ، وأنس المجالس) حيث قال : (لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم شمتت به نساء كندة وحضرموت ، وخضبن أيديهن ، وأظهرن السرور لموته وضربن بالدفوف . فقال شاعر فيهم :

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته
أن البغايا رمن شر مرام
أظهرن من موت النبى شماتة
وخضبن أيديهن بالعنام
فاقطع — هديت — أكفهن بصارم
كالبرق أومض فى متون غمام

وموضوع مراثى الشعراء للرسول عليه الصلاة والسلام لم أجده مجموعا فى كتاب ، ولم أقع عليه بحثا مستقلا ، أو فصلا قائما بذاته فى كتب السيرة النبوية ، أو مطولات التاريخ ، أو الأخبار والطرائف والمحاضرات الأدبية ، كسيرة «ابن هشام» «والسيرة الحلبية» ، «وتاريخ الأمم والملوك» للطبرى ، و«الكامل» لابن الأثير « والبداية والنهاية » لابن كثير ، « والبيان والتبيين » للجاحظ ، « والعقد الفريد » لابن عبد ربه . ولم أجده حتى فى الباب المطول الذى عقده « النويرى » فى الجزء الخامس من كتابه (نهاية الإرب) تحت عنوان : «المراثى والنوادب» ، ولكننى لممت أطرافه ، وجمعت متفرقه من بضعة عشر كتابا سأذكرها فى سياق الحديث ، وفى خلال البحث ، تسهيلا للدارس ، وعونا للباحث .

وعجيب جدا أن تمر على الأمة العربية الإسلامية هذه القرون الأربعة عشر الطويلة

(*) ألقى البحث فى الجلسة الرابعة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٣٠ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٤ من فبراير ١٩٨٢ م .

وأن يمر على وفاة هاديها وزعيمها محمد ابن عبد الله هذا الزمان الممتد المبسوط . فلا تجد موضوع « وفاته » وما يتصل بها مضموماً ملموما . كما تجد موضوع مولده الذى أكثر النظم والنثر فيه عشرات وعشرات من الشعراء والكتاب منذ القرن السابع الهجرى حتى يومنا هذا . من أمثال (مولد النبي الشهير بالعروس) للبرعى الشاعر اليمنى ، ومولد النبى لأحمد ابن قاسم الحريرى الأندلسى ، والمولد النبوى لعائشة الباعونية ت ٩٢٢ هـ ، ومولد البرزنجى المشهور ت ١١٧٧هـ ، ومولد البشير النذير للحسينى ت ١٣٠٣ هـ ، ومولد النبى لمحمد العبادى المصرى ت ١٣٠٠هـ . ومولد الشيبانى ، ومولد النبى لسيدى أحمد الدردير المصرى ت ١٢٠١هـ وقبره يزار بالكحكيين ، والمولد النبوى المختار للمرحوم الشيخ عبد الله عفيفى الدرعمى الإمام بقصر عابدين قبل الثورة ، ويجمع بين النظم والنثر . وقد أقرته مشيخة الأزهر ليتلى وينشد فى أيام مولد النبى ، بدلا من الموالد القديمة التى عطلت.

ونجد المولد النبوى حتى فى اللغة الفارسية والتركية ، كمولد سليمان چلبى الذى ترجمه إلى العربية أخيرا الدكتور حسين مجيب المصرى ، الخبير بلجنة المعجم الكبير إحدى لجان مجمعنا ... ولا أدرى لماذا لم تجمع مراثى الشعراء للنبى فى كتاب واحد منذ القدم ، كما جمعت – مثلا – مراثى الشعراء للبارودى الشاعر ، ومراثى الكتاب والشعراء لعبد الله فكرى . ومراثى الشيخ محمد عبده . والمراثى التى قيلت فى رثاء بشارة تقلا باشا أحد مؤسسى الأهرام . والمراثى التى قيلت فى رثاء سعدزغلول . والمراثى التى نظمت فى رثاء أستاذنا محمد اللواتى بك أستاذ الرياضيات بدار العلوم . وزملينا وأستاذنا د . مهدى علام يعرف خبر هذه الأخيرة . وأظنه لم ينس مطلع قصيدة أستاذنا الشاعر البدوى : الشيخ محمد عبد المطلب . حيث يقول مجنسا :

أعينى أين أدمعك اللواتى
ذرفن دما غداة قضى (اللواتى)

ويبدو أن شعراءنا منذ القدم ومدونى أدبنا اهتموا بشعر « المولد » لأن الولادة استقبال للحياة .. أما شعر المراثى فهو توديع للحياة .. أو لأن ميلاد النبى ووفاته وقعا فى تاريخ واحد – على الراجح – وهو الثانى عشر من ربيع الأول ، فآثروا الاحتفاء بأقواهما وهويوم استقبال الحياة ..

وإنما يصادف القارئ عن وفاة النبى وملابساتها نبأ هنا ، أو مرثية هناك ، حتى إنك لا تجد فى كتاب المؤرخ الطبرى فى التاريخ – على طوله وضخامته وتوسعه فى أخبار الرسول ، وولوع صاحبه برواية الشعر المناسب لأحداث التاريخ – لاتجد فيه بيتا واحدا من قصيدة رثى بها

النبي عليه الصلاة والسلام. ولو لم يرد في تاريخ الطبري شعر البتة لقلنا إن مؤرخنا الإسلامي العظيم قد جرى على طبعه من عدم الاهتمام بذكر الشعر في كتابه الكبير. أو لكن تاريخ الطبري مملوء بأشعار غزار، جاهلية وإسلامية، فما باله يغفل المراثي التي قيلت في رثاء النبي ويسقطها من حسابه؟

ولقد جرى المؤرخ ابن الأثير صاحب « الكامل » على نهج مؤرخنا الطبري في كتابه من حيث عدم التعرض لرثاء الرسول، فلم يذكر لنا مرثية شعرية واحدة، أو مقطوعة قصيرة من الشعر قيلت في رثاء نبي هذه الأمة.

ولعل المؤرخ الوحيد الذي لم يغفل ذكر مراثي الشعراء للرسول من كتابه، ولم يسقطها من حسابه، هو أبو محمد عبدالملك ابن هشام صاحب «سيرة النبي» والذي يعد أوثق مصادرنا عن حياة النبي وعن وفاته. إلا أن ابن هشام — لأمر لا نعلمه — لم يذكر من الشعراء الذين رثوا النبي صلى الله عليه وسلم إلا « حسان بن ثابت ».

والغريب أن الأبشيهي صاحب كتاب (المستطرف، في كل فن مستظرف) يروي في كتابه هذا: (أن حسان بن ثابت سئل: مالك لم ترثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لم أر شيئا إلا رأيته يقصر عنه). وهذا الخبر يتعارض مع ما رواه ابن هشام صاحب السيرة من مراثي الشاعر حسان بن ثابت للرسول:

فكيف غفل الأبشيهي — وهو واسع المعرفة بالأخبار والنوادر والأسمار — عن تلك المراثي الشعرية التي رواها ابن هشام في السيرة؟ ومن أين جاءه الخبر عن سؤال حسان: كيف لم يَرْثِ الرسول؟ مع أن مراثي «حسان» للنبي مدونة وثابتة في السيرة النبوية، وفي ديوانه؟

ولعل القصائد الأربعة التي رواها المؤرخ ابن هشام في الجزء الأخير من السيرة النبوية تؤكد لنا أن «حسان بن ثابت» شارك في رثاء النبي عليه السلام بأربع قصائد: ثلاث منها دالية القافية، والرابعة منهن رائية القافية. والغريب كذلك أنها جاءت في ديوان حسان كلها، فكيف خفيت كلها أو واحدة منها على صاحب «المستطرف» حين روى في كتابه الخبر الذي ذكرناه عنه. والغريب أيضا أن واحدة من مراثي «حسان بن ثابت» التي ذكرها ابن هشام والتي جاءت في ديوانه، قد بلغت من الطول ستة وأربعين بيتا، فهي ليست قصيرة ولا مقطوعة صغيرة حتى تُغْفَل الإشارة إليها، أو تسقط من حساب «الأبشيهي». أما الثانية فتبلغ عدة أبياتها سبعة عشر بيتا، وهو قدر ليس باليسير. أما القصيدتان الأخريان فواحدة تبلغ عدة أبياتها ثمانية، والثانية ستة أبيات.

وأطول قصائد حسان بن ثابت فى رثاء النبي عليه الصلاة والسلام—وفق رواية المؤرخ ابن هشام — هى القصيدة الدالية التى أولها :

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهد
منير ؛ وقد تعفو الرسوم وتهمد

وقد جاءت هذه المرثية فى سيرة ابن هشام كاملة كما جاءت فى ديوان حسان، وعدتها ستة وأربعون بيتا كما سلف القول .

ونبحث فى « سيرة ابن هشام » عن مرثية نبوية لغير حسان بن ثابت ، فلا تجد إلا تلك المراثى الأربع (الحسانية) . ولا أدرى لماذا لم يكن ابن هشام المؤرخ راصدا إلا لمراثى حسان بن ثابت ، فلم يلتفت فى كتابه الجليل لمراثى غيره من الشعراء المعاصرين لذلك الخطب الجليل ؟

ولا شك أن اتصال «حسان بن ثابت» بالنبي وقربه منه ، وتنصيبه نفسه للدفاع عنه وعن دعوته حيا ، قد أثار فى نفسه كوامن الأسى العميق حين قبض رسول الله إلى ربه ، فإذا شاعرنا العظيم ينفعل أشد الانفعال لهذا الحادث المروع له وللمسلمين والعرب جميعا ، وإذا شاعرية «حسان» المتدفقة تنهمر عن عدد من المراثى ، نحس ونحن نقرؤها أثر الفجيعة البالغة فى نفس شاعر الرسول .

ولم يكن حسان بن ثابت وهو يرثى رسول الإسلام معبراً عن نفسه وحده أو عن المسلمين بصفة عامة ، ولكنه صور مصيبة « الأنصار » فى النبي أدق تصوير ، حتى لقد خشى على مصير الأنصار بعد وفاته عليه السلام ؛ ولم يكن شاعرنا (حسان) فى هذا إلا معبراً عن شعور قومه ، فهو أنصارى بل هو من السابقين منهم إلى الإسلام . وما أصدقه وهو يقول فى هذا المعرض :

واللهِ أسمعُ ما بقيت بهالك
إلا بكيتُ على النبي محمد

ياويح أنصار النبي ورهطه
بعد المغيَّب فى سواد الملحد

ضاقت بالانصار البلاد فأصبحوا
سوداً وجوههم كلون الإثمد

وما أكثر تفجعه وهو يبكيه بهذه الأبيات الرائية من قصيدة أخرى :

نَبَّ المساكين أن الخير فارقهم
مع الرسول تولى عنهم سَحَرا

من ذا الذى عنده رحلى وراحلتى
ورزق أهلى إذا لم يؤنسوا المطرا ؟

ذاك الذى ليس تخشاه مجالسه
إذا الحليس سطا فى القول أو عثرا

كان الضياء ، وكان النور نتبعه
وكان بعد الإله السمع والبصرا

فليتنا يوم ارَوْه بِمُلْحَدِه
وغيَّبوه ، وألقوا فوقه المدرا

لم يترك الله منا بعده أحدا
ولم يعش بعده أنثى ولا ذكرا ..

ورثاء « حسان بن ثابت » للرسول يجمع بين شعر العاطفة الخاصة التي تعبر عن شعور شخصي وانفعال ذاتي ، وبين شعر الرثاء العام الذي يعبر فيه الشاعر عن عظم المصيبة في المرثى أو خسارة الناس بفقده ، وحيرة أمورهم من بعده . ونرى « حسان بن ثابت » يجمع في المرثية الواحدة للنبي عليه الصلاة والسلام بين هذين الاتجاهين ، فبينا يقول من قصيدة :

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت
مثل الرسول نبي الأمة الهادى

ولا بَرَى الله خلقاً من بريته
أوْفَى بذمة جارٍ أو بميعاد

من الذى كان فينا يستضاء به
مبارك الأمر ، ذا عدل وإرشاد

إذا به يقول في القصيدة نفسها عن نفسه واصفاً وحدته وتفرده بعد موت النبي :

يا أفضل الناس ! إنى كنت في نهر
جار ، فأصبحت مثل المفرد الصادى ؟

وبينا يقول في رثائه عليه السلام من قصيدة :

يا بِكْر « آمنة » المبارك بكرَها
ولدته محصنةٌ بسعد الأسعد

نورا أضاء على البرية كلها
من يَهْدِ للنور المبارك يهتدى

إذا به يقول في القصيدة نفسها واصفاً حالته بعد أن غيب النبي في بقيع « الغرقد » :

ما بال عينك لا تنام كأنما
كحلت مآقيها بكحل الأرمد

جزعاً على المهدى أصبح ثاوياً
ياخير من وطىء الحصا لاتبْعَد !

وجهى يقيك الترب ! لهفى ! ليتنى
غيِّبت قبلك في « بقيع الغرقد »

بأبي وأمي من شهدت وفاته
في يوم الاثنين النبيُّ المهتدى !

فظللت بعد وفاته متلددا
ياليتنى صُبِّحت سم الأسود !

أأقيم بعدك في (المدينة) بينهم
يالهف نفسى ليتنى لم أولد !

على أن شاعرنا حسان بن ثابت لم يستسلم في مراثيه النبوية إلى البكاء والنحيب والتفجع وتمني الموت — كما فعل في البيت الذى قبل الأخير حيث تمنى فيه أن يسقى على الصباح سم الحيات ، حتى يرتاح ويتخلص من آلامه وأحزانه — ولكنه اتخذ من مراثيه للرسول معرضاً يعرض فيه أخلاقه النبوية ، وصفاته الكريمة ، على أنصع ما تعرض عليه الأخلاق حين يطويها الفناء — أو يطوى صاحبها — فلا يبقى إلا ذكرها ، ولا يأرج إلا عطرها ..

اسمعه يقول من قصيدة أخرى في وصف الرسول باكياً عليه ، مفجوعاً فيه :

إمام لهم . يهديهم الحق جاهداً
معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا

عفو عن الزلات ، يقبل عذرهم
وإن يحسنوا فالله بالخير أجود

وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله
فمن عنده تيسير ما يتشدد ..

فبينا هم فى نعمة الله بينهم
دليل به نهج الطريقة يقصد

عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيمو ويهتدوا

عطوف عليهم لا يثنى جناحه
إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

فبيناهم فى ذلك النور إذ غدا
إلى نورهم سهم من الموت مُقْصِدُ

فإذا بلغ حسان هذا المبلغ من وصف النبي مضى إلى وصف وحشة البلاد من فقده ، وانقطاع الوحى الذى كان ينزل عليه فيؤنس الأرض ، ويصف حسان هذه البقاع الموحشة الكثيبة لفقد الرسول ؛ إلا بقعة معمورة اللحد ضافها فقيد الإسلام الكريم ، وهى البقعة التى ضمت جسده الطاهر فهى روضة آنسة بضيافة الرسول . ويقوده هذا الوصف لموحش البقاع إلى استئناف البكاء ثانية ، فيستنزف دموع عينيه قطرة قطرة ، قائلا فى نغم باك حزين :

فبكّى رسول الله ياعين عبرة
ولا أعرفنك الدهر دمْعُك يجمد

وما لك لا تبكين ذا النعمة التى
على الناس منها سابغ يتغمد ؟

فجودى عليـــه بالدموع وأعولى
لفقد الذى لامثله الدهر يوجد

ويظل « حسان » يبكى ويستنزف الدمع عينيه ، فإذا ما أعقبه انحدار الدمع راحة ، أو شفى شجى بلابله عاد إلى وصف الرسول قائلا :

وما فقد الماضون مثل « محمـــد »
ولا مثله حتى القيامة يفقــد

أعف وأوفى ذمة بعد ذمة
وأقرب منه نائلا لاينــكد

وأبذل منه للطريف وتالد
إذا ضَنّ معطاء بما كان يتلد

وأكرم صيتاً فى البيوت إذا انتمى
وأكرم جدا أبطحياً يسود

وأمنع ذروات ، وأثبت فى العلا
دعائم عز شاهقات تشيد

وأثبت فرعاً فى الفروع ومنبتاً
وعوداً غذاه المزن فالعود أغيد

رباه وليدا فاستتم تمامه
على أكرم الخيرات ربٌّ ممجد ..

على أن رواية مؤرخ السيرة « ابن هشام » لمراثى « حسان » وحده فى الرسول عليه السلام لاتدل على أن شاعرنا قد انفرد وحده من بين شعراء عصر الرسالة برثاء الرسول . فهناك شعراء آخرون من الصحابة وغيرهم ، وشواعر كذلك رثوا النبى ، ولكن مراثيهم جاءت مشتتة ومتفرقة فى غير مظان ومن

هنا لم ينبه عليها ولم يلتفت إليها . فقد عقد المؤرخ الموسوعى المصرى (النويرى) صاحب « نهاية الأرب » فى الجزء الثامن عشر من موسوعته الحافلة فصلاعن مراثى الصحابة والشعراء للنبي عليه السلام . وأثبت لأبى بكر الصديق الخليفة الأول قطعتين فى رثاء النبي يقول فى أولاهما :

أيا عين فابكى . ولا تسأمى
وحقّ البكاء على السيد

على خير خِنْدف عند البلا
ء أمسى يغيب فى الملحد

فصلى المليك ولى العباد
ورب البلاد على (أحمد)

فكيف الحياة لفقد الحبيب
وزين المعاشر فى المشهد

فليت الممات لنا كلنا
وكنا جميعاً مع المهتدى !

ويقول فى الثانية :

لما رأيت نبينا متجدلا
ضاقت على بعرضهن الدور

وارتعت روعة مُسْتَهامٍ واله
والعظم منى واهن مكسور

ياليتنى من قبل مهلك صاحبى
غيبت فى جدثٍ علىّ صخور

فلَتحدُثَنّ بدائعٌ من بعده
تعيا بهن جوانح وصدور

وروى الحافظ المفسر المؤرخ « عماد الدين ابن كثير » صاحب كتاب (البداية والنهاية) فى كتابه هذا مرثيتين فى الرسول ؛ أولاهما دالية حسان بن ثابت التى سبقت الإشارة إليها ، والتى مطلعها :

(بطيبة) رسم للرسول ومعهد
منير وقد تعفو الرسوم وتمهد

وثانيتهما قصيدة « لأبى سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب » ، وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم . وكان أبو سفيان هذا شاعراً ، وقد أسلم يوم فتح مكة بعد أن عادى الرسول زماناً وعرض نفسه على النبي فأذن له النبي بعد تمنع لما كان يلقاه من عداوته قبل إسلامه . فلما أدخل على رسول الله أنشد بين يديه قصيدة يعتذر فيها مما مضى منه ، ويقول فى أوائلها :

لعمرك إنى يوم أحمل راية
لتحمل خيلُ «اللات» خيلَ محمد

لكا لمدلج الحيران أظلم ليله
فهذا أوانى حين أُهدَى وأهتدى

فلما مات عليه الصلاة والسلام رثاه بالأبيات التى أوردها ابن كثير فى « البداية والنهاية » ، ولم يذكرها أو يشر إليها ابن الأثير ، ولا الطبرى ، ولا ابن هشام صاحب السيرة كما سلف القول . ولكن جاء ذكرها فى كتاب متأخر عنوانه : (الذخائر والأعلاق، فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق) للإمام أبى الحسن بن سلام الباهلى ، إلا أن روايتها

فى « البداية والنهاية » تختلف عن روايتها فى « الذخائر » ونحن مثبتون هنا نصها كما جاءت فى « تاريخ ابن كثير » :

أرقت فبات ليلى لا يزول
وليل أخى المصيبة فيه طول

وأسعدنى البكاء ، وذاك فيما
أصيب المسلمون به قليل

لقد عظمت مصيبتنا ، وجلّت
عشية قيل : قد قبض الرسول

وأضحت أرضنا مما عراها
تكاد بنا جوانبها تميل ..!

فقدنا الوحى والتنزيل فينا
يروح به ويغدو « جبرئيل »

وذاك أحق ما سالت عليه
نفوس الناس أو كَرَبُت تسيل

نبى كان يجلو الشك عنا
بما يوحى إليه وما يقول

ويهدينا فلا نخشى ضلالا
علينا ، والرسول لنا دليل

« أفاطم » إن جزعت فذاك عذر
وإن لم تجزعى ذاك السبيل

فقبر أبيك سيد كل قبر
وفيه سيد الناس الرسول

وأما رواية « الذخائر والأعلاق » ففيها هذه الأبيات الزائدة التى لم ترد فى (البداية والنهاية) :

كأن الناس إذ فقدوه عمىٌ
أضر بلب حازمهم غليل

وفيها فى وصف النبى :

يخبرنا بظهر الغيب عما
يكون ، ولا يحور ، ولا يحول

وفيها خطابٌ لفاطمة الزهراء بنت النبى عليهما السلام :

فعودى بالعزاء ، فإن فيه
ثواب الله والفضل الجزيل

ولاشك أن وفاة النبى عليه الصلاة والسلام كانت حدثاً جليلا نزل بالإسلام وتلقاه المسلمون بالدهشة . فهذا عمر بن الخطاب قام فى الناس قائلا يوم التحق الرسول بالرفيق الأعلى : (إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى ؛ وإن رسول الله مامات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات . والله ليرجعن رسول الله كما يرجع موسى ! فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات !) . ولم يُفِقْ عمر بن الخطاب من دهشته إلا حين نبهه أبو بكر فى خطبته التى خطبها يوم الوفاة إلى قوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) . وإلى قوله عز شأنه فى موضع

آخر من القرآن الكريم : (إنك ميت وإنهم ميتون) .

فما مبلغ أثر وفاة النبى فى نفوس بقية الشعراء غير حسان بن ثابت وغير أبى سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبى عليه السلام ؟ وأين كان فى ذلك اليوم المغبرة آفاق سمائه عبد الله بن الزبعرى ، وعبد الله ابن أنيس ، وضرار بن الخطاب ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وعلى بن أبى طالب ؟ وأين كان من الشواعر السيدة فاطمة بنت محمد عليها السلام ، وصفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ، والخنساء الشاعرة التى رثت قبل ذلك أخويها : صخراً ومعاوية ، كما بكت — بدموعها فقط لا بشعرها — أبناءها الأربعة الذين استشهدوا فى حرب القادسية فى السنة السادسة عشرة من الهجرة ؟

لقد كان نصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قبض إلى ربه أبياتاً رثاه بها كعب ابن مالك الأنصارى ، وهو فى هذا يشترك مع أخيه فى الإسلام و شريكه فى النسب إلى الأنصار : حسان بن ثابت .

ومقام « كعب بن مالك » فى الشعر معروف مشهور ، وقصائده فى رفع الأذى عن صاحب الدعوة الإسلامية مذكور كثير منها فى كتب السيرة ، وخاصة سيرة ابن هشام . وقد شهد له صاحب كتاب (نكت الهميان ، فى نكت العميان) بقوله : (كان مجوِّداً مطبوعاً . قد غلب عليه فى الجاهلية أمر الشعر وعرف به ، وأسلم وشهد أُحُداً والمشاهد كلها ، حاشى تبوك ، فإنه تخلَّف عنها) وقد ترجم له « الصفدى » فى كتابه « نكت الهميان » هذا الذى صنعه فى أخبار من فقدوا بصرهم لأنه أصيب بالعمى فى آخر عمره .

ولم ترد مرثية « كعب بن مالك » للرسول فى الطبرى ، وابن الاثير وابن كثير ولا فى سيرة ابن هشام ، ولا فى « إمتاع الأسماع » للمقريزى ، ولا فى « نهاية الأرب » للنويرى ، ولا فى « المنتظم » لابن الجوزى ، ولا فى ابن قتيبة ، ولا فى تاريخ اليعقوبى ، فلم يذكرها واحد من هذه الكتب التى كانت مظنة ورودها ، بل لم يشر إليها ، ولكنها وردت فى كتاب (الذخائر والأعلاق) للباهلى وهو من رجال القرن التاسع بالأندلس ، ولا أدرى عن أى مصدر نقلها . ولا نعرف من حياة صاحب الذخائر والأعلاق إلا سطراً أو سطرين عند صاحب (كشف الظنون) ، وعند يوسف أليان سركيس صاحب (معجم المطبوعات العربية) . والأبيات التى أوردها الباهلى خمسة فقط . ولعلها منتقاة من قصيدة طويلة وقعت له . وهذه هى :

وباكية حرّاء تحزن بالبكا
وتلطم منها خدها والمقلدا

على هالك بعد النبى محمد
ولو علمت لم تبك إلا « محمدا »

فجعنا بخير الناس حيـا وميتا
وأدناه من رب البرية مقعداً

وأفظعهم فقدا على كل مسلم
وأعظمهم فى الناس كلهم يداً

لقد ورثت أخلاقه المجد والتقى
فلم تلقه إلا رشيداً ومرشدا

ومن عجائب الروايات فى الشعر العربى أن « أبا الفرج الأصبهانى » صاحب كتاب (الأغانى) حين ترجم لكعب بن مالك وأورد طرفاً من أخباره وشعره ، لم يشر مطلقاً إلى رثائه للنبى عليه السلام على حين أنه أشار لمرثيته للشهيد « عثمان بن عفان » الخليفة الثالث ، وذكر منها أربعة عشر بيتا. فما معنى ذلك ؟ هل معناه أنه لم تصل إلى سمعه مرثية « كعب بن مالك » للرسول ؟ أم أن الأبيات التى أوردها « الباهلى » صاحب الذخائر ليست له ؟ الحق أننا لا نستطيع الجزم بكلمة فى جواب هذا السؤال .

ولكنا نحمد الله على هذا القدر الذى وصل إلينا من مرثية « كعب بن مالك » للرسول فإن كثيراً من شعره قد ضاع ، لولا ما حققه وحفظه لنا « ابن هشام » صاحب السيرة النبوية . من شعر كعب الذى قل أن نجده فى كتاب سواها .

أما عبد الله بن أنيس — بصيغة التصغير — فقد روى له صاحب (الذخائر والأعلاق) خمسة أبيات لا غير فى رثاء الرسول ؛ فكانت أبياته — من حيث العدد — كأبيات كعب بن مالك . ولم أعثر على مصدر آخر لهذه المرثية غير « ذخائر الباهلى » . وابن أنيس هذا من الصحابة الذين شهدوا بيعة العقبة ، وكان من شجعان المسلمين . ويذكر « ابن هشام » صاحب السيرة النبوية ، أنه كان من الأوائل الذين تسابقوا إلى قتل « ابن أبى الحقيق » ، لأنه كان أحد الذين حزّبوا الأحزاب على النبى وأصحابه . وقد تحامل ابن أنيس على ابن أبى الحقيق بسيفه فى بطنه حتى أنفذه ، وهو يقول : قطنى : قطنى . أى : حسبى ؟ حسبى ؟ وكان ابن (أنيس) هذا يجمع بين الشجاعة والشعر ؛وقد روى له ابن هشام قصيدة يصف بها قتاله « لابن سفيان بن نبيح الهذلى » ، الذى كان يؤلب الناس على قتال الرسول ، وقد ظفر « ابن أنيس » بالهذلى فقتله ، وقدم على رسول الله يبشره بمقتله . فلما رآه النبى قال : أفلح الوجه .

وليس من موضوعنا هنا أن نذكر قصيدة « عبد الله بن أنيس » فى قتله لابن نبيح الهذلى ، فهى ليست من باب هذا البحث فى المراثى النبوية ، ولكن مرثيته للرسول عليه السلام هى كما ذكرها الباهلى الأشبيلى فى ذخائره :

تطاول ليلى ، واعترانى القوارع
وخطب جليل للخلائق جامع

غداة نعى الناعى إلينا « محمدا »
وتلك التى تستك منها المسامع

وقد قبض الله النبيين قبــله
وعاد أصيب قبله والتوابع[1]

فآليت لا آسى على هلك هالك
مدى الدهر مارسا (ثبير) و(فارع)

فيا لقريش قلّدوا الأمر بعضكم
فإن نصير القوم للقوم نافع

أما « عبد الله بن الزبَعْرى » فلم نقع فى مصادر تاريخى أو أدبى على مرثية له فى الرسول عليه الصلاة والسلام . ولقد كان شاعراً فحلا ، بل كان شاعر « قريش » فى الجاهلية . ومهما كان من أمر شدته على النبي والمسلمين بالأذى بلسانه فقد أسلم واعتذر للنبي ومدحه ، فأمر له النبي بحلة . ولقد عاش حتى سنة ١٥ من الهجرة ، أعنى أنه أدرك وفاة الرسول ، فما الذى أسكته عن رثائه ، وصرفه عن بكائه ؟ أو ما الذى أسكت المصادر عن أن توصل إلينا رثاءه للنبي لو كان وقع منه رثاء، وشارك مع الباكين من الشعراء على محمد ؟ سؤالان لا نستطيع القطع فيهما بجواب إلا إذا ادّعينا أننا أحطنا بأخبار « ابن الزبعرى » كلها ، وبشعره كله وبحوادث السيرة النبوية كلها تفصيلا . وهيهات ! هيهات !

أما زميله فى الشاعرية : « عبد الله بن رواحة » ، الذى كان أحد شعراء الدعوة الإسلامية وأحد أمرائها البارزين ، فقد استشهد فى السنة الثامنة من الهجرة فى غزوة مؤتة ، فلم يكن له أن يدرك وفاة الرسول ، وبالطبع لم يكن له أن يكون فى أصحاب المراثى النبوية .

أما « ضرار بن الخطاب » ، الصحابى الفارس الشاعر فلم نجد له فى أصحاب المراثى النبوية ذكراً ، ولم نقرأ له شعرا ، على حين تمتلىء صفحته بالبطولة والفروسية والجهاد فى سبيل الله . وقد عاش إلى السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، فشهد موقعة أجنادين واستشهد فيها . وله فى فتح الشام فى عهد عمر بن الخطاب أخبار طوال . فأين شعره الذى رثى به الرسول يوم وفاته ؟ ألم تتحرك شاعريته فى ذلك اليوم الرعيب الذى هز عواطف المسلمين ، بل هز كيانهم هزاً عنيفاً ؟

على أننا بينما لانجد مراثى شعرية للنبي عليه السلام عند « عبد الله بن الزبعرى » « وضرار بن الخطاب » وهما من شعراء الرسول وألسنة الدعوة المحمدية ، نجد عند الباهلى الأشبيلى صاحب (الذخائر والأعلاق) قصيدتين ؛ إحداهما لعمر بن الخطاب والثانية للإمام على بن أبى طالب . وقد انفرد

(١) هكذا وردت بمطبوعة (الذخائر والأعلاق) وفيها تصحيف غير قليل ، ولعلها : التبابع جمع تبع .

كتاب الذخائر بذكر المرثيتين . أما الأولى فهذا نصها كما جاءت فى كتاب الباهلى :

مازلت مذ وضع الفراش لجنبه
وثوى مريضاً ، خائفاً أتوجع

شفقاً عليه أن يزول مكانه
عنا ، فنبقى بعده نتفجع

نفسى فداؤك ؟ من لنا فى أمرنا
أم من نشاوره إذا نتوجع ؟

وإذا تحل بنا الحوادث من لنا
بالوحى من رب رحيم يسمع ؟

ليت السماء تفطرت أكنافها
وتناثرت منها النجوم الطلع !

لما رأيت الناس هدّ جميعهم
صوت ينادى بالنعى فيسمع

وسمعت صوتاً قبل ذلك هدنى
(عباس) ينعاه بصوت يقطع

فليبكه أهل المدائن كلها
والمسلمون بكل أرض تجزع[1]

وأما أبيات الإمام « على » فى رثاء الرسول فهى كما يلى نقلا عن المصدر السابق :

ألا طرق الناعى بليل فراعنى
وأرّقنى لما استقل مُنادياً

فقلت له لما رأيت الذى أتى
أغير رسول الله إن كنت ناعياً ؟

فحقق ما أشفقت منه ، ولم يبل
وكان خليلى عزة وجماليا

فوالله ما أنساك «أحمد» ، مامشت
بى العيس فى أرض وجاورت واديا

وكنت متى أهبطُ من الأرض تَلْعة
أرى أثراً منه جديداً وعافياً .

وبعد ؟ فهذا شعر الرجال من الشعراء الذى أثر حتى القرن التاسع فى رثاء النبى عليه السلام ، أو على الأقل هذا هو الشعر الذى وصل إلينا عن مصادر تاريخية وأدبية قديمة ومتأخرة ، وأحطنا به خبراً فيما بين أيدينا من مراجع . ولم ينفرد الرجال وحدهم برثاء النبى العربى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد روت بعض المصادر شعراً للسيدتين الطاهرتين : فاطمة بنت محمد عليها السلام ، وصفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبى .

أما فاطمة الزهراء ، فقد روى لها ابن رشيق القيروانى فى كتابه (العمدة) أبياتاً مؤثرة حزينة فى رثاء أبيها محمد عليه السلام ، كما روى هذه الأبيات أيضاً أبو إسحاق الحصرى صاحب كتاب (زهر الآداب) ، ونقلها أيضاً الأستاذ عمـــر رضا كحالة فى موسوعة (أعلام النساء) ج ٣ ص ١٢٠٤ والأبيات كما رواها صاحب زهر الآداب هى :

اغبرّ آفاق السماء وكوّرت
شمس النهار ، وأظلم العصران

(١) روى السهيلى فى كتابه (الروض الأنف) أبياتا عينيه أخرى ومن وزن آخر لعمر بن الخطاب ج ٢ ص ٢٧٧

فالأرض من بعد النبى كئيبة
أسفاً عليه كثيرة الرجفان

فليبكه شرق البلاد وغربها
وليبكه مضر وكل يمانى

وليبكه (الطور) المعظم جوه
والبيت ذو الأستار والأركان

يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه
صلى عليك منزل الفرقان

وقد عد ابن رشيق القيروانى هذه المرتبة مثلا يحتذى فى الرثاء ، وتمنى على شاعر كالكميت أن يقول مثله فى رثاء الرسول ، بدلا من قوله فى إحدى هاشمياته :

وبورك قبر أنت فيه ، وبوركت
به وله أهل بذلك يثرب

لقد غيبوا برا ، وحزماً ، ونائلا
عشية واراه الضريح المنصب

ويذكر صاحب (أعلام النساء) أن فاطمة عليها السلام وقفت على قبر أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأخذت قبضة من تراب القبر ، فوضعتها على عينها ، وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شم تربة أحمد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا ؟

صُبَّتْ على مصائب ، لو أنها
صُبَّت على الأيام صرن لياليا !

وقالت على قبره :

إنا فقدناك فَقْدَ الأرض وابلَها
وغاب ـ مُذْ غِبْتَ عنا ـ الوحى والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نعيت ، وحالت دونك الكثب !

وأما صفية عمة النبى عليها السلام ، فقد روت لها الأديبة المرحومة زينب عبد الله فوّاز صاحبة كتاب (الدُّر المنثور ، فى طبقات ربّات الخدُور) خمسة أبيات فى رثاء محمد عليه الصلاة والسلام ، إلا أن الباهلى الأشبيلى صاحب (الذخائر والأعلاق) روى لها مرثية أخرى تبلغ عدتها عشرة أبيات ، نذكرها فيما يلى :

ألا يا رسول الله ! كنت رجاءنا
وكنت بنا بَرًّا ولم تك جافيا

لعمرك ما أبكى النبى لموته
ولكن أمرا بعده كان آتياً

أفاطم ! صلى الله رب محمد
على جدث أمسى بيثرب ثاوياً

فدا لرسول الله أمى وأسرتى
وعمى ، ونفسى ، والجدود ، وخاليا

وكنت لنا حرزا حصينا نبينا
ليبك عليك اليوم من كان باكيا

كأن على قلبى لذكر محمد
وما خفت من بعد النبى المكاويا !

أبا حسن : أيتمته وتركته
يبكى ، ويدعو جده اليوم نائيا

صبرت، وبلغت الرسالة صادقاً
وقمت صليب الدين، أبلج صافيا
فلو أن رب الخلق أبقاك سالما
سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية
وأدخلت جنات من العدن راضياً

على أن لها قصيدة يائية أخرى في رثاء النبي عليه السلام، أورد صاحب معجم (أعلام النساء) بيتا واحداً منها، أما الأبيات كلها فقد ذكرت كاملة في (الذخائر والأعلاق) الذي نعده أخصب وأحفل مصادرنا في مراثي الشعراء للنبي. وهذه القصيدة اليائية التي أوردها الباهلي للسيدة صفية هي من أرق ما رثي به النبي عليه الصلاة و السلام، ونحن موردوها هنا كما جاءت في كتاب (الذخائر والأعلاق):

مالعينى لا تجـودان ريـا
إذ فقدنا خير البرية حيـا
يوم نادى إلى الصلاة بلال
فبكينا عند النداء مليـا..
لم أجد قبلها ولست بلاق[1]
بعدها غصة أمرّ عليّـا
جل يوم أصبحت فيه عليلا
لايرد الجواب منك إليّـا
ليت يومى يكون قبلك يومـا
أنضج القلب للحرارة كيا
خلقا عاليا، ودينا كريمـا
وصراطا يهـدى إليه سويا
وسراجا يجلو الظلام منيرا
ونبيّـا مسـدداً عربيـا
حازما، عازما، حليما، كريما
عائدا بالنوال، برا، تقيا
إن يوما أتى عليك ليـوم
كورت شمسه وكان جليـا
فعليك السلام منا ومن ربك (م)
بالروح بكرة، وعشيـا

وقد أخرج الطبراني عن جماعة أنه لما قبض النبي عليه الصلاة والسلام خرجت عمته (صفية) تلمع بردائها وهي تقول:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم فقد سغبوا

وقد روى الجاحظ هذا الخبر في كتابه (البيان والتبيين) ج ٣ ص ٢٠٤ بتحقيق المرحوم حسن السندوبي ذاكرا لفظه: (هنتشة) بنون وتاء وشين معجمة، بدلا من (هنبثة) بنون وباء وثاء فوقية مثلثة

(١) كان المقتضى أن تكون العبارة هكذا: (ولست بلاقية) لأن صاحبة الشعر مؤنثة... وهذا مما يلقى ظلالا من الشك حول نسبة الأبيات إلى صفية بنت عبد المطلب..

وهى الأمر الشديد. أما المنتشة كما ذكرها السندوبى رحمه الله فلا معنى لها . .

ومن أغرب الروايات أن صاحب (أعلام النساء) قد روى البيتين السابقين منسوبين إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت النبى عليهما السلام ج ٣ ص ١٢١٣ وأضاف إليهما بيتا ثالثا ، وهو :

فليت بعدك كان الموت صادفنا
لما قضيت وحالت دونك الكتب

ويلاحظ القارىء الكريم أن بعض هذه الأبيات البائية — بالباء التحتية الموحدة — كما رواها صاحب (أعلام النساء) مشترك بين السيدة فاطمة بنت محمد ، والسيدة صفية بنت عبد المطلب ...

على أن أغرب ما فى مراثى النبى عليه السلام هو ما ذكره الباهلى الأشبيلى منسوباً إلى (هند بنت عبد المطلب) تخاطب فاطمة الزهراء قائلة :

أفاطم فاصبرى : فلقد أصابت
مصيبتك التهائم والنجودا
وأهـل البر والأبحار طرا
فـلم تخطىء مصيبته وحيداً ..
ألم يك خير من ركب المطـايا
وأكرمهم — إذا نسبوا — جدودا؟
وكان المجـد يصبح فى ذراه
سعيد الجـد قد ولد السعودا

فموتى ! إن قدرت بأن تموتى
فقدت الطيب ، الرجل ، المجيدا
رسول الله ، خير النـاس حقا
فلست أرى له أبداً نديدا . .

ومهما يكن فى هذه الأبيات من رقة وسلاسة وحسن سبك فإنك لو بحثت فى تاريخ عصر النبوة عن شخصية نسوية تحمل اسم (هند بنت عبد المطلب) لأعياك البحث ، ولن تجد لها وجودا . . . وإذا كان ظاهر هذا الاسم يوهم أنه لعمة من عمات النبى عليه الصلاة والسلام ، ولأخت من أخوات صفية بنت عبد المطلب فإن المؤرخ الإخبارى (ابن قتيبة) يذكر لنا فى كتابه (المعارف) أن بنات عبد المطلب وعمات النبى فى الوقت نفسه هن : عاتكة ، وأميمة ، والبيضاء ، وبرة ، وصفية ، وأروى . وكذلك يذكر المؤرخ ابن الجوزى فى كتابه (صفة الصفوة) المطبوع بحيدر أباد الدكن حـ ١ ص ٥٦ .

فمن أين هذه « الهند المطلبية » التى جاء بها الباهلى الأشبيلى ؟ ومن أين جاءت تلك الأبيات فى رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم التى رواها صاحب الأعلاق ، أو صاحب (الذخائر والأعلاق) ونسبها إلى المزعومة : هند بنت عبد المطلب ؟

على أننا قرأنا هذه الأبيات الدالية وأخرى غيرها فى (نهاية الأرب) للنويرى ، جـ ١٧ ص ٤٠٠ ، وهى فيه « لهند بنت أثاثة»

ابن عباد بن عبد المطلب ، بن عبد مناف .
ولعلها (هند بنت عبد المطلب) التى ذكرها الباهلى الأشبيلى اختصاراً ، فأوقعنا فى حيرة من الأمر ، وحسبنا أنها عمة النبى مباشرة ولكنها ليست ابنة عبد المطلب ، وإنما هى واحدة من حفدته ونورد هنا بعض مارواه النويرى ـ صاحب نهاية الأرب ـ من هذه المرثية لنرى الفرق الواضح بين الروايتين ولنعجب من حيرتنا البالغة مع رواة الشعر :

أشاب ذوائبى ، و أذاب ركنى
بكاؤك فاطم الميت الفقيدا

فأعطيت العطاء ، فـلم تكدر
وأخدمت الولائد والعبيدا

وكنت ملاذنا فى كل لزب
إذا هبت شآمية برودا

وإنك خير من ركب المطايا
وأكرمهم ـ إذا نسبوا ـ جديداً

رسول الله فارقنـا ، وكنا
نرجّى أن يكون لنا خلودا ...

أحسن الله إلى من يدلنا على وجه الصواب فى هذه الأبيات ، وفيما نقلناه قبل ذلك من شعر فى رثاء نبى هذه الأمة الكريمة : محمد ابن عبد الله ص.

ويدعونا ذكر السيدة صفية عمة الرسول فى هذه المناسبة إلى استحضار عمة أخرى للنبى عليه السلام هى (عاتكة بنت عبد المطلب) فقد روى لها النويرى صاحب (نهاية الأرب) ـ فى الجزء الثامن عشر ص ٤٠٠ مرثية فى النبى عليه الصلاة والسلام تقول فيها :

ياعين جودى ـ ما بقيت ـ بعبرة
سحاً على خير البرية (أحمدِ)

ياعين ! فاحتفلى، وسحّى واسجمى
فابكى على نور النبى (محمد)

أنى ـ لك الويلات ـ مثل محمد
فى كل نائبة تنوب ومشهد ؟

من ذا يفك عن المغلل غله
بعد المغيب فى الضريح الملحد ؟

وقد نسب صاحب (نهاية الأرب) أيضا مرثية فى النبى قالتها عمته (أروى) بنت عبد المطلب ، ومطاعها :

ألا ياعين ويحك ؟ أسعدينى
بدمعك ـ مابقيت ـ وطاوعينى

وأغلب ظنى أن التكلف والانتحال يبدوان على هذا الشعر ... ؟

وقبل أن نختم هذه الدراسة الأولى فى الأدب العربى عن مراثى الشعراء للنبى عليه السلام ، لابد من الإشارة إلى أبيات حائية ـ بالحاء المهملة ـ ذكر السهيلى صاحب (الروض الأنف) أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلى بكى بها النبى ساعة دفنه . وأبو ذؤيب ـ كما يقول السهيلى ـ هو خويلد بن خالد ، وقيل ابن محرث .

وندع الشاعر أبا ذؤيب نفسه يحدثنا بعبارته، واصفا موت النبي عليه السلام ، ودفنه قائلا : (بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل، فاستشعرت حزنا ، وبت بأطول ليلة لاينجاب دَيْجُورُها ولا يطلع نورها ؛ فظللت أقاسى طولها . حتى إذا كان قرب السحر أغفيت ، فهتف بي هاتف وهو يقول :

خطب أجل أناخ بالإسلام
بين النخيل ، ومعقد الآطام
قبض النبي محمد . . . فعيوننا
تذرى الدموع عليه بالتسجام

قال أبو ذؤيب : فوثبت من نومى فزعا ، فنظرت إلى السماء ، فلم أر إلا سعد الذابح(١) ، فتفاءلت به ذبحا يقع فى العرب . وعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبض وهو ميت من علته ، فركبت ناقتى ، وسرت . فلما أصبحت طلبت شيئا أزجر به ، فعن لى شَيْهَم —يعنى القنفذ قد قبض على صل— يعنى الحية — فهى تلتوى عليه ، والشَيْهَم يقضمها حتى أكلها . . . فزجرت ذلك ، وقلت : شيهم، شيء مهم ، والتواء الصل التواء الناس عن الحق على القائم بعد النبي . . ثم أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعده على الأمر . فحثثت ناقتى ؛ حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر ، فأخبرنى بوفاته ، ونعب غراب سانح ، فنطر مثل ذلك ! فتعوذت بالله من شر ما عن لى فى طريقى . وقدمت المدينة ، ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا بالإحرام . فقلت : مه ؟ فقالوا : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت المسجد فوجدته خالياً ، فأتيت رسول الله ، فأصبت بابه مرتجا ، وقيل : هو مسجى قد خلا به أهله . فقلت : أين الناس ؟ فقيل : فى سقيفة بنى ساعدة صاروا إلى الأنصار . فجئت إلى السقيفة فأصبت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وسالما . وجماعة من قريش . ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة ، وفيهم شعراؤهم : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وملأ منهم ، فأويت إلى قريش ، وتكلمت الأنصار ، فأطالوا الخطاب ، وأكثروا الصواب . وتكلم أبو بكر رضى الله عنه ، فلله دره من رجل لايطيل الكلام ، ويعلم مواضع فصل الخطاب ! ! والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع إلا انقاد له ، ومال إليه . ثم تكلم عمر رضى الله عنه بعده دون كلامه ! ومد يده فبايعه وبايعوه . ورجع أبو بكر ورجعت معه .. فشهدت الصلاة على محمد و شهدت دفنه) . ثم أنشد أبو ذؤيب يبكى النبى صلى الله عليه وسلم قائلا :

لما رأيت الناس فى عسلانهم
من بين ملحود له ومضرح

(١) سعد الذابح هو الثانى والعشرون من منازل القمر ، وهما نجمان فى الجدى . ومنازل القمر يسميها العرب نجوم الأخذ، وعددها ثمانية وعشرون منزلا . ومنها : سعد السعود ، ومنزله الخامس والعشرون فى الدلو والجدى . . .

متبادرين لشَرَّحِجٍ بأكفهم
نص الرقاب لفقد أبيض أروح

فهناك صرت إلى الهموم. ومن يبت
جار الهموم يبيت غير مروح

كسفت لمصرعه النجوم وبدرها
وتزعزعت آطام بطن الأبطح

وتزعزعت أجبال يثرب كلها
ونخيلها لحلول خطب مفدح !

ولقد زجرت الطير قبل وفاته
بمصابه ، وزجرت سعد الأذبح

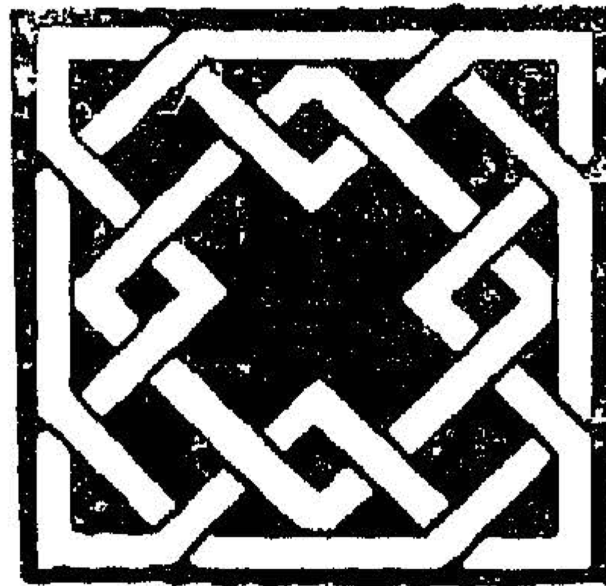
وأبو ذؤيب هذا هو صاحب العينية المشهورة التى رثى بها أولاده الخمسة ، وكانوا قد ماتوا جميعا فى عام واحد نتيجة إصابتهم بالطاعون . ومطلعها :

أمن المنون وريبه نتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع

والهذلى هذا شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، وأسلم فحسن إسلامه ، وشارك فى عدد من الغزوات ، وامتد به العمر حتى شارك فى فتح إفريقية سنة ست وعشرين من الهجرة .

والذى يلفت النظر أن أبا الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى ترجم له فى الجزء السادس فى بضع عشرة صفحة ، وذكر طرفا غير قليل من أخباره وأشعاره ، ولكنه لم يشر إلى شهوده وفاة النبى عليه السلام وحضور دفنه ، كما لم يشر إلى مرثيته له التى أوردها السهيلى صاحب (الروض الأنف) فى شرح السيرة النبوية لابن هشام كما ذكرنا قبل ذلك بسطور ، والسهيلى — كما أراه — حجة موثوق به ، فمن أين أتى بهذه الرواية ؟ لعله اطلع عليها فى مصدر مفقود . والعلم عند علام الغيوب .

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع



من كناشة النوادر

(٣)

للأستاذ عبد السلام هارون

سارة :

نسمى بناتنا، أو نناديهن أحياناً باسم «سارّة» بتشديد الراء فهل نعد هذه التسمية خطأ ؟

الأمر ذو وجهين . فإن قصدنا تسمية حديثة لا علاقة لها بالاسم التاريخى القديم الذى كان علماً على الزوجة الأولى لأبينا إبراهيم عليه السلام، والدة إسحاق ويعقوب ، عددنا ذلك صواباً ؛ إذ هى اشتقاق عربى أصيل من قولهم ؛ سرته تسره فهى سارّة .

ولكن حينما نقرأ ذلك الاسم التاريخى فى مرجع من المراجع أو نحاول ضبطه، أو نسمى بناتنا بهذا الاسم قدوة أو تيمنا به فإنه يكون من الخطأ بمكان أن نشدد الراء ، بل ننطقها خفيفة كما هو ضبطها المنصوص عليه .

وقد وقع فى بعض كتب التراث تحريف فى كتابة هذا الاسم، فى معجم لسان العرب فى مادتى (سقم ، وهجر) إذ ضبط ضبط قلم بتشديد الراء، والصواب تخفيفها كما ورد فى صحيح البخارى فى كتاب الأنبياء فى باب قول الله : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » : وهو الحديث رقم ٤٥٣ من الألف المختارة . وهى سارة بنت هاران ملك حران ، كما فى شروح البخارى ؛ وكان اسمها فى بادىء الأمر « ساراى » .

جاء فى سفر التكوين الأصحاح ١٧ : « وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك ، لاتدعو اسمها ساراى، بل اسمها سارة » . وفى حواشى سفر التكوين أن معنى هذا الاسم الجديد — أعنى سارة — هو الرئيسة .

وقد وجدت من الشواهد على ضبط اسمها ما سجله جرير فى ديوانه ٢٤٣ والنقائص ٩٩٤ وابن سلام ٣٤٨ والطبرى ١ : ٣٧٩ ومعجم البلدان فى رسم (الروم) :

ويجمعنا والغرّ أولاد سارة
أب لانبالى بعده من تعذرا [١] .

أبونا خليل الله والرب ربنا
رضينا بما أعطى الإله وقدّرا

ويعنى بأولاد سارة أبناء ولدها إسحاق ، ويزعم بعض الأخباريين أن الفرس من أبناء

(*) ألقى البحث فى الجلسة الخامسة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٣ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٧ من فبراير ١٩٨٢ م .

(١) أى تأخر وجاء من بعده .

إسحاق . وقال ياقوت عند إنشاد الشعر : إن جريرا كان يفتخر على اليمن بالفرس والروم ويقول : إنهم من ولد إسحاق . وأما اليمن القحطانيون فلا يرجعون فى نسبهم إلى إبراهيم .

المـد والجزر :

من المعروف أن المد والجزر ظاهرة جغرافية طبيعية تنشأ من عدم تساوى جاذبية كل من القمر والشمس للأرض فى أجزائها المختلفة ، وأن النصف المواجه للقمر ينجذب ماؤه أكثر من النصف الآخر ، وذلك لأن القمر أقرب إلى الأرض من الشمس الشديدة البعد ، ويتأرجح المد والجزر طبقاً لتغير مواقع الشمس والقمر من الأرض بالتباعد أو التلاقى أو الانحراف على مدار الشهر . وبتلاقى القمر والشمس على مستوى واحد من الأرض – كما يحدث فى أول الشهر ومنتصفه – يحدث المد الأعظم .

ولكن فى نظرة بعض قدماء العرب أن هذا ناجم من تأثير بعض الملائكة ... يذكر ابن فارس (– ٣٩٥) فى مادة (قمس) هذا النص : « وقالوا فى ذكر المد والجزر : إن ملكا قد وكل بقاموس البحر كلما وضع رجله فاض ، فإذا رفعها غاض » .

فإذا ارتقينا إلى المؤرخ الجغرافى زكريا ابن محمد القزوينى صاحب عجائب المخلوقات (٦٠٥ – ٦٨٢) فإننا نجد محاولة علمية مقاربة إذ يقول فى ص ١٠١ :

« وأما مد بعض البحار فى وقت طلوع القمر فزعموا أن فى قعر البحر صخوراً صلدة وأحجاراً صلبة ، وإذا أشرق القمر على سطح ذلك البحر وصلت مطارح أشعته إلى تلك الصخور والأحجار التى فى قرارها ، ثم انعكست من هناك متراخية ، فسخنت تلك المياه وحمت ولطفت فطلبت مكاناً أوسع وتموجت إلى ساحلها ودفع بعضها بعضاً وفاضت على شطوطها ، وتراجعت المياه التى كانت تنصب إليها إلى خلف ، فلا نزال كذلك مادام القمر مرتفعاً إلى وسط سمائه ، فإذا أخذ ينحط سكن غليان تلك المياه ، وبردت تلك الأجزاء وغلظت ، ورجعت إلى قرارها ، وجرت الأنهار على عادتها » .

فقد أرجع القزوينى التأثير إلى تسخين القمر لصخور البحار . وفاته أن تسخين الشمس فى رائعة النهار أشد وأقوى . فهذا غلط ظاهر وليس الأمر مبنياً على التسخين والتبريد ، وإنما هو نظام الجاذبية الفلكية .

الأنهـار المقلوبة :

جاء فى تنبيه المسعودى (١٥١) عند الكلام على نهر آلُس : وتفسير آلس بالعربية : نهر الملح . وهو نهر مقلوب يجرى مما يلى الجنوب مستقبلا للشمال ، كنيل مصر ومهران السند ، ونهر أنطاكية المعروف بالأُرُنْد . وماعدا ذلك من الأنهار الكبار فمصبها كلها من الشمال

إلى ناحية الجنوب ، لارتفاع الشمال على الجنوب وكثرة مياهه .

وهذا الحكم الخاص بالدنيا القديمة قد يصدق تمام الصدق على الدنيا الجديدة وأنهارها العظام ، فالمسيسبى فى أمريكا الشمالية وباراجواى وأورجواى فى أمريكا الجنوبية يصبان فى الجنوب ، على حين يصب نهر الأمازون فى الشمال ويعد بذلك فى وجهة نظره نهراً مقلوباً .

وأما تعليله بارتفاع الشمال على الجنوب فهو موضع نظر بلا ريب .

الفحم الحجرى أو الصخرى :

إنما عرفناه حديثاً ، عند اختلاطنا بالإنجليز والأوربيين ، ولعل أعظم مناجمه فى بلدة نيوكاسل بانجلترا . وقد عرفته العرب

جاء فى معجم البلدان عند ذكر إقليم أسبرة بأقصى بلاد الشاش مما وراء النهر ،مانصه : وهى بلاد يخرج منها النفط والفيروزج والحديد والصفر والذهب والآنك ، أى الرصاص . وفيها جبل أسود حجارته تحترق كما يحترق الفحم يباع منه حمل بدرهم وحملان فإذا احترق اشتد بياض رماده فيستعمل فى تبييض الثياب . ولا يعرف فى بلدان الأرض مثل هذا . قاله الإصطخرى .

ومثل هذا النص فى عجائب المخلوقات (١٢٤) .

التبـان :

التبان ، كرمان : سروال صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة يكون للملاحين . وهو مايعادل ما يسمى فى اللغة الدخيلة « المايوه » ولفظنا العربى أجدر بالحياة منه وأولى أن تحمل العامة عليه :

جاء فى النجوم الزاهرة ١٠ : ١٦٩ أن السلطان المظفر بن الناصر قلاوون كان إذا لعب مع الأوباش يتعرى ويلبس تبان جلد ويصارع معهم ويلعب بالرمح والكرة .

وكلمة الأوباش قال الأصمعى فيها : يقال بها أوباش من الناس وأوشاب من الناس وهم الضروب المتفرقون .

المراكبى :

استعمال هذا اللفظ بمعنى الملاح فقط تأباه اللغة الأصيلة لأن له مدلولا حضاريا قديماً ، ولأن المركب لفظ يشمل كل ما يركب من فرس أو بغل أو فيـل أو سفينة .

ورد فى الأغانى ١٨ : ١٧٧ فى ترجمة عريب المغنية : كانت عريب لعبد الله بن إسماعيل صاحب مراكب الرشيد ، وهو الذى رباها وأدبها وعلمها الغناء . ثم يقول :

حدثنى من أثق به عن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المراكبى أن أم عريب تسمى فاطمة.

وكان هذا المراكبي متعهداً كذلك لمراكب المهدى والد هارون الرشيد من قبل. جاء فى تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٠ : وذكر عبد الله بن إسماعيل صاحب المراكب قال : لما صرنا إلى ما سبذان دنوت إلى عنانه - يعنى عنان فرس المهدى - فأمسكت به ومابه علة، فوالله ما أصبح إلا ميتاً.

البلهارسيا :

المرض الذى كشفه « الطبيب الألمانى « بلهارس » سنة ١٨٥١.

قد عرفه العرب قديماً وعبروا عنه بالحيض. جاء فى الخزانة ٤ : ٢٩٧ : « وأبو مكعت هو الذى كان يحيض فى الجاهلية » . . وهل يحيض الرجال ؟!

لاريب أن هذه عبارة عن بول الدم، وهو الظاهرة التى يتميز بها مرض البلهارسيا. وقد عرف العرب أيضاً علة هذا المرض الذى تنتقل عدواه بالماء. وجدت فى معجم ما استعجم ١٣٢٨ هذا النص الذى يدل على علاقة هذا المرض بالماء، وذلك عند الكلام على غدير يقال له رواوة : «ثم يفضى إلى غدير الطفيتين، وهو من أعذب ماء يشرب، إلا أنه يبيل الدم ».

ومن البديهى أن يقال علمياً إن هذا الماء كان موبوءاً بجرثومة هذا المرض.

المرأة :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصى بالنساء خيراً، وليس فينا من لا يحفظ قوله البارع : « يا أنجشه رفقا بالقوارير ».

فمن أروع ماجاء فى الحث على حسن صحبة المرأة مارواه المقدام بن معد يكرب، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل من أهل الكتاب يتزوج المرأة وما يعلق على يدها الخير، وما يرغب واحد عن صاحبه حتى يموتا هرما ».

قال الحربى فى تفسير « مايعلق على يدها الخير » يقول : من صغرها وقلة رفقها. والمراد حث أصحابه على الوصية بالنساء والصبر عليهن، فقد كان أهل الكتاب يفعلون ذلك.

وفى هذا الحديث إباحة للقدوة الصالحة مهما يكن مصدرها.

سجن الطرارات :

الطرار : فعال من الطر وهو الاختلاس. وقد كان للنساء الطرارات سجن خاص جاء فى أخبار العلماء بأخبار العلماء للقفطى ص ٢٦٨ فى ترجمة أبى على بن أبى الخير الطبيب أنه كُبس وعنده امرأة من الخواطىء المسلمات، فأقر على جماعة من الخواطىء المسلمات أنهن كن يأتينه لأجل دنياه، فخرجت الأوامر بالقبض على النساء اللواتى ذكرهن، فقبض عليهن وأودعن سجن الطرارات. قد كان لهن سجن خاص.

التبكير بالتعليم :

كان أسلافنا يولون التعليم اهتماماً كبيراً ، ويحملون أبناءهم عليه وهم فى سن مبكرة جداً . فمن ذلك ما روى أبو الفرج فى الأغانى ١٦ : ٣٧ عن أشجع السلمى الشاعر قال : دخلت على محمد الأمين ، حين أجلس مجلس الأدب للتعليم ، وهو ابن أربع سنين وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم ، فأنشدته :

ملك أبوه وأمه من نبعة
منها سراج الأمة الوهاج

شربت بمكة من ربى بطحائها
ماء النبوة ليس فيه مزاج[1]

فأمرت له زبيدة بمائة ألف درهم .

وجاء فى اختصار علوم الحديث لابن كثير ص (١٢٠) : « وينبغى المبادرة إلى إسماع الولدان الحديث النبوى . والعادة المطردة فى أهل هذه الأعصار وما قبلها بمدد متطاولة أن الصغير يكتب له حضور إلى تمام خمس سنين من عمره ، ثم بعد ذلك يسمى سماعاً » .

وفى الكتاب أيضاً عن أبى عمرو بن الصلاح : « وبلغنا عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى أنه قال : « رأيت صبياً ابن أربع سنين قد حمل إلى المأمون قد قرأ القرآن ونظر فى الرأى ، غير أنه إذا جاع بكى » .

(١) يعنى النبعة .

الاعفاء من الجندية :

تختلف نظمه وقوانينه باختلاف البلاد وأنظمتها فى الوقت الحاضر .

ومن غرائب ما سجلته كتب التراث ما أورده ياقوت فى معجم البلدان عند ذكر صقلية وقصبتها مدينة بلَرْم : عن ابن حوقل قال : « والغالب على أهل المدينة المعلمون ، فكان فى بلرم ثلاثمائة معلم فسألت عن ذلك فقالوا : إن المعلم لا يكلف الخروج إلى الجهاد عند صدمة العدو » .

والتاريخ هو التاريخ .

قسوة العشارين :

جاء فى كتاب الموفقيات للزبير بن بكار ص (٦٢٥) والإصابة ص (٣ : ١٢) عن هشام بن الكلبى عن أبيه أن عمر خرج تاجراً فى الجاهلية مع نفر من قريش ، فلما وصلوا إلى فلسطين قيل لهم : إن زنباع ابن روح بن سلامة الجذامى يعشر من يمر به ، للحارث بن أبى شمر . قال : فعمدنا إلى ما معنا من الذهب فألقمناه ناقة لنا حتى إذا مضينا نحرناها وسلم لنا ذهبنا ، فلما مررنا على زنباع قال : فتشوهم . ففتشونا فلم يجدوا معنا إلا شيئاً يسيراً ، فقال : اعرضوا على إبلهم . فمرت به الناقة بعينها فقال : انحروها . فقلت : لأى شىء ؟ قال : إن كان فى بطنها ذهب ، وإلا فلك ناقة غيرها ، وكُلْها قال : فشقوا بطنها فسال الذهب ،

فأغلظ علينا فى العشر ونال من عمر ، فقال عمر فى ذلك :

متى ألق زنبـاع بن روح ببلدة
لى النصف منه يقرع السن من ندم

ويعلم بأن الحى —حىّ ابن غالب—
مطاعينُ فى الهيجا مضاريب فى القيم

فهذا عمر — وهو من هو— ينعى على هؤلاء العشارين جورهم فى ذلك الزمان السحيق ، ويستعلن غضبه وتوعده لهم .

الحيل الحربية :

من الحيل الحربية المعاصرة كسوة الدبابات والسيارات والمدافع ، بله الجنود والمعدات بأغصان الأشجار للتخفى من عيون الأعداء .

ولهذا جذر فى القديم يتمثل فيما رواه صاحب خزانة الأدب ص (٢ : ٢٩٩) فى خبر زرقاء اليمامة : أن حسان بن تبع ساق إليها جيشاً من قبيلة طسم ، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال منها صعدت الحصن الذى يقال له : « حصن الكلب » فنظرت إلى ذلك الجيش وقد استتر كل رجل بشجرة تلبيساً عليها ، فقالت :

أقسم بالله لقــد دب الشجر
أو حمير قد أخذت شيئاً تجر

فهذا سبق عربى قديم فى الحيل الحربية عند أسلافنا العرب .

الدبابات :

التسمية قديمة جداً ، والمضمون مختلف . ولعل أقدم نص وردت فيه ، هو ما كان فى حصار الطائف إذ يقول المؤرخون وكتاب السير : « دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابة ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه » .

والدبابة : آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم ما يُرْمون به من فوقهم .

والتسمية الحديثة موفقة ، تعبر عن المعنى المعاصر تعبيراً دقيقاً . وما أجدرنا أن نتريث فى التعبير عن مستحدثاتنا فإن من المقطوع به أن نوفق أو نقارب ، إذا نقبنا فى قديم تراثنـا .

البريـد الصوتى :

كان ذلك فى غزوة الحديبية سنة ست من الهجرة .

جاء فى امتاع الإسماع ص (٢٧٨) : « وبلغ أهل مكة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فراعهم ذلك وتشاوروا ، ثم قدّموا عكرمة ابن أبى جهل ، أو خالد بن الوليد على مائتى فارس إلى كراع الغميم (بين مكة والمدينة) واستنفروا من أطاعهم من خلفاء قريش من بنى كنانة (كانوا قد تحالفوا تحت جبل يقال له : حُبشىّ) وأجلبت ثقيف معهم

(أى انضمت) ووضعوا العيون على الجبال ، وهم عشرة رجال يوحي بعضهم إلى بعض بالصوت : «فعل محمد كذا وكذا» فيردد من بعده قوله وهكذا ، حتى ينتهى ذلك إلى قريش .

وهذا سبق حضارى قديم ، له نظير معاصر فى الحروب عندنا بالتخاطب بالإشارة بالأعلام التى تطورت إلى النظام اللاسلكى والرادارى .

مقاومة الجراد :

ظاهرة حضارية أصبحت ذات شأن كبير فى عصرنا ، وهى الآن داخلة فى نطاق التعاون والتنظيم الدولى . والجراد آفة خطيرة تقضى على الزروع والثمار إن لم تقاوم مقاومة جادة أهلكت الحرث والزرع والغلات .

جاء فى تاريخ ابن الوردى فى حوادث سنة ٧٤٨ ج ٢ : ٣٤٥ : «وفى المحرم ظهر بين منبج والباب جراد عظيم من بزر السنة الماضية فخرج عسكر من حلب ، وخلق من فلاحى النواحى الحلبية نحو أربعة آلاف نفس لقتله ودفنه ، وقامت عندهم أسواق ، وصرفت عليهم من الرعية أموال» .

وهذا النص يظهرنا على ما كان من التعاون المتكامل يشترك فيه الجيش مع الفلاحين ، وتساق فيه التبرعات الشعبية ، وتنظم له حملة شاملة تقام فيها الأسواق المنظمة ، ولا ينتهى فيه الأمر إلى إبادة الجراد ، بل يشفع بذلك بدفنه مبالغة فى الإبادة ، واحتراساً من فقس البيض . وفى ذلك يقول ابن الوردى :

قصد الشام جراد
سن للغلات سنا
فتصالحنا عليه
وحفرنا ودفنا

وضع المجمرة تحت الثياب :

شهدنا جداتنا وأمهاتنا فيما مضى ، وهن يحرصن على (البخور) فى أمور شتى أعلاها شأناً هو دفع العين وشر الحاسد فيما يزعمن ومنها وضع المجمرة تحت ثياب الصبيان وحثهم على معاودة الخطو فوقها إنْ سبعاً وإنْ عشراً ؛ للتطييب أحياناً ، ولدفع العين واتقاء شر الحسود حيناً آخر .

ومن طريف ما روى فى كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ٢٠٧ لابن الطقطقى فى خبر مصرع أحمد بن يوسف كاتب المأمون قال :

وكان سبب موته أنه دخل يوماً إلى المأمون والمأمون يتبخر ، فأخرج المأمون المجمرة من تحته وقال : اجعلوها تحت أحمد ، تكرمة له . فنقل أعداؤه إلى المأمون أنه قال : ما هذا البخل بالبخور هلا أمر لى ببخور مستأنف ؟ فاغتاظ المأمون لذلك وقال : ينسبنى إلى البخل وقد علم أن نفقتى فى كل يوم ستة آلاف دينار ؟ وإنما أردت إكرامه بما كان تحت ثيابى ... ثم دخل عليه

أحمد بن يوسف وهو يتبخر مرة أخرى فقال المأمون : اجعلوا تحته فى مجمرة قطع عنبر ، وضعوا عليه شيئاً يمنع البخار أن يخرج ، ففعلوا ذلك ؛ فصبر عليه حتى غلبه الأمر فصاح : الموت الموت . فكشفوا عنه وقد غشى عليه ، فانصرف إلى منزله فمكث فيه شهوراً عليلا من ضيق النفس حتى مات بهذه العلة .

الوزير والكاتب :

نلحظ فى ثنايا كتب التاريخ اضطراباً فى التفرقة بين هذين اللقبين ، والملحوظ أيضاً أنه لم يكن فى صدر الإسلام ولا فى عهد الدولة الأموية من يحمل لقب الوزير ، وكانوا كلهم كتابا حتى إذا كانت أيام الدولة العباسية وجدنا أول وزير فيها هو أبو سلمة حفص ابن سليمان الخلال الذى كان يقال لـــه « وزير آل محمد » . كما كان يقال لأبى مسلم الخراسانى « أمين آل محمد » .

وفيه يقول سليمان بن المهاجر البجلى عند مصرعه :

إن المساءة قد تسر وربما
كان السرور بما كرهت جديرا

إن الوزير وزير آل محمد
أودى فمن يشناك كان وزيرا

ويسرى نظام الوزراء ، ومعه نظام الكتاب إلى عهد المأمون ، فقد كان له وزراء وكتاب وكان آخر وزرائه هو محمد بن يزداد بن سويد . يقول المسعودى فى التنبيه والإشراف ٣٠٤ : « ولم يكن يسمى بين يديه أحد من كتابه وزيراً ولا يكاتب بذلك ، فلأجل ذلك ترك كثير من الناس أن يعد من ذكرنا فى الوزراء . ورأيت من صنف فى أخبار الوزراء والكتاب كأبى عبد الله محمد بن داود ابن الجراح ، ومحمد بن يحيى الصولى ، ومحمد ابن عبدوس الجهشيارى والمعروف بابن الماشطة الكاتب ، منهم من عدهم فى الوزراء ، ومنهم من لم يعدهم للسبب الذى بينا .

الجاحظ وزواجه وولده

سألنى ويسألنى كثيرون عن أسرة الجاحظ وهل كانت له زوجة أو ولد ؟

وقد عثرت بآخرة على نص فى رسائل الجاحظ ١ : ٢٥٤ فى أثناء رسالة الجد والهزل التى وجهها إلى محمد بن عبد الملك الزيات .

ويبدو أن الجاحظ كان قد تزوج فى سن عالية بعد أن كان قاعدا عن الزواج ، فنعى عليه ابن الزيات ما صنع من ذلك فقال مجيبا فى الرد عليه :

وما كان عليك مع كبر سنى وضعف ركنى أن يكون لى — يعنى الولد — ريحانة أشمها ، وثمرة أضمها ، وأن أجد إلى الأمانى به سببا ، وإلى التلهى به سلما .

ويقول أيضا :

دع عنك كل شىء ، ما كان عليك أن يكون لى ولد يحيى ذكرى ، ويحوى ميراثى

ولا أخرج من الدنيا بحسرتى ، ولا يأكله مراء يرصدنى ، وابن عم يحسدنى ، ولا يرتع فيه المعدّلون فى زمان السوء .

وكفى بهذا النص شاهدا :

تهجين الحيوان :

كما يحدث التهجين فى النبات والفواكه كما حدث عندنا فى مصر من إدخال أنواع الفواكه الحمضية منذ عهد ليس بالبعيد ، حدث مثل هذا التهجين للحيوان فى عصور سحيقة .

إذ يذكر المسعودى تاريخ دخول الجاموس إلى بلاد الشام ، ويقول فى التنبيه والإشراف ٣٠٧ : « وقيل إن بدء الجواميس بالثغر الشامى وسواحل الشام من جواميس كانت لآل المهلب ببلاد البصرة والبطائح والطفوف فلما قتل يزيد بن المهلب نقل يزيد بن عبد الملك بن مروان كثيرا منها إلى هذه النواحى .

وكانت خلافة يزيد بن عبد الملك ما بين سنتى ١٠١ — ١٠٥ .

وذكر المسعودى قولا آخر فى خلافة المعتصم ٢١٨ — ٢٢٧ أنه بعد تغلبه على الزُّطّ أجلاهم وأنزلهم بلاد خانقين وجلولاء من طريق خراسان ، وبلاد عين زربة من الثغر الشامى ، ومذ يومئذ صارت الجواميس بالشام ولم تكن تعرف هنالك .

عض الانسان للحيوان :

أن يعض حيوان إنسانا ذلك أمر معروف ليس فيه من وجوه الغرابة وجه ، ولكن أن يعض إنسان عاقل حيوانا أمر تلفه الغرابة وتحتويه الندرة . يقول الآمدى فى المؤتلف ١٨٨ فى ترجمة ملاعب الأسنة أوس بن مالك الجرمى الشاعر الفارس وكان أوس شاعرا ، عضت اللبؤة منكبه فعض هو بأنفها وقال :

أعض بأنفها وتعض ركنى
كلانا ، باسل بطل شجاع

فلولا أن تداركنى زهير
بنصل السيف أفنتنى السباع

لغويات :

السمنة ، بكسر السين لا تعرفها اللغة وإنما تعرف السِّمَن والسَّمانة . وفى حديث أبى هريرة : « خير أمتى القرن الذى أنا فيهم . ثم الذين يلونهم ، ثم يظهر فيهم قوم يحبون السمانة ، يشهدون قبل أن يستشهدوا »

وتعرف اللغة السُّمنة بضم السين لكن بمعنى الدواء الذى يتخذ للسمن ، تسمن به المرأة أو غيرها .

المقفص :

من أنواع النقوش فى الثياب التقفيص ، وهو كما قال الخفاجى فى شفاء الغليل ١٩٥ : نقش فى الثياب بالطول والعرض . يعنى أن خطوطه يقطع بعضها بعضا كما تتقاطع

قضبان القفص بالطول والعرض . وفى ذلك يقول القائل :

لم أنس قول الوُرْق وهى حبيسة
والعيشُ منها قد أقام منغّصا

قد كنت ألبس من غصونى أخضرا
فلبست منها بعد ذاك مقفّصا

يصف الحمام وقد كان طليقا بين أفنان الشجر ، ثم عاد به الأمر إلى الأسر بين قضبان الأقفاص .

وما أجدر هذا اللفظ « المقفص» الدقيق الدلالة ، أن يستعمل فى مقابل الكلمة الإفرنجية « كاروه» و«كاروهات » .

ولهذا الاشتقاق نظائر فى العربية ، كقولهم المسهم : الذى فيه نقوش كالسهام ، والمرجّل الذى فيه صور المراجل جمع مرجل ، والمدنر : فيه صور الدنانير ، والمضلع : الموشى بمثل الضلوع ، والمبرج الذى فيه صور البروج والمدرهم والمصلب ، الذى فيه كالصليب والمفوف الذى فيه بياض وخطوط بيض من الفُوف ، بالضم ، وهو البياض يكون فى أظفار الأحداث .

تجوهرت الأمور :

تجوهرت الأمور : وضحت وتكشفت ولم أجد هذه الكلمة فى معجم ، وكم ذا من الألفاظ الفصيحة العربية التى لم ترصدها المعاجم .

وجدت فى «المؤتلف والمختلف» للآمدى ص ١٩ فى ترجمة أعشى عكل يقول هذا الأعشى فى هجاء بلال ونوح ابنى جرير الشاعر :

سألت الناس أى الناس شر
وأخبث إذ تجوهرت الأمور

وألأمُ أولاً وأدقُّ فعلا
فقالوا : أسرةٌ فيهم جرير

إذا سئل الورى عن كل خزى
أشار إلى بنى الخطَفى مشيرُ

المتنيح :

نقرؤها كثيرا فى الصحف فى مقام النعى لكبار رجال الدين المسيحى فنظنها حديثة أو استعمالا معاصرا .

والكلمة قديمة جدا ترجع إلى ما قبل سنة ٤٥٥ وهى سنة وفاة ابن بطلان . وهو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون ، وكان من نصارى الكرخ . قال ابن أبى أصيبعة ص٣٢٨ عند كلامه على كتابه «دعوة الأطباء» : « ونقلت من خط ابن بطلان وهو يقول فى آخرها : فرغت من نسخها أنا مصنفها يوانيس الطبيب ، المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون بدير الملك المتنيح قسطنطين، بظاهر القسطنطينية فى آخر أيلول من سنة تسع وخمسين وألف » هذا قوله، ويكون ذلك بالتاريخ الإسلامى : من سنة خمسين وأربعمائة ، والقول

فى تأصيل هذه الكلمة أمر يحتاج إلى بحث طويل .

الحقير النافع :

ليس مادة من المواد ولا مالا من الأموال أو شيئا مهملا لا يؤبه له وإنما هو لقب لطبيب لا يعرف التاريخ له اسما ، كان من أهل مصر يهودى النحلة فى زمن الحاكم بأمر الله ، وكان جراحا حسن المعالجة يرتزق بصناعة مداواة الجراح فقط ، وكان فى غاية الخمول يقول ابن أبى أصيبعة ٥٤٩ : واتفق أن عرض لرجل الحاكم عقر أزمن ولم يبرأ . وكان ابن مقشر طبيب الحاكم والحظى عنده وغيره من أطباء الخاص المشاركين له يتولون علاجه ، فلا يؤثر ذلك إلا شرا فى العقر فأحضر له هذا اليهودى المذكور ، فلما رآه طرح عليه دواء يابسا فنشفه ، وشفاه فى ثلاثة أيام . فأطلق له ألف دينار ، وخلع عليه ولقبه بالحقير النافع ، وجعله من أطباء الخاص .

الطرطور :

كلمة من صميم العربية ، وأخذها الفرس والترك لفظا وملبسا من العربية ، وكم لبس الفرس والترك من الطراطير ، ولاسيما بعض أصحاب الطرق الصوفية من المولوية والبكتاشية ولم ترد هذة الكلمة فى المعجم الوسيط ، وهى جديرة أن تثبت فيه .

جاء فى اللسان : « والطرطور : الوغد الضعيف من الرجال ، والجمع الطراطير وأنشد :

قد علمت يشكر من غلامها
إذا الطراطير : اقشعرّ هامها

ورجل طرطور ، أى دقيق « طويل » ثم يقول : والطرطور : « قلنسوة للأعراب طويلة الرأس » .

وجاء فى القاموس : « والطرطور : الدقيق الطويل ، والقلنسوة تكون كذلك والوغد الضعيف » .

أما استينجاس فى المعجم الفارسى العربى ٨١٢ فيرمزله بالحرف (A) الدال على اقتراضه من العربية ، وفسّره بعين ماجاء فى اللسان ، وزاد عليه أنه يطلق أيضا على الضعيف الدقيق من معزى الجبال وتيوسها » .

وقد جرت هذة الكلمة فى لغتنا المعاصرة بمعنى الرجل الذى ليس له حل ولا عقد ، والذى لا يعبأ به ولا بمكانه بين القوم . وهو مجاز صادق .

كلمات موءودة :

لعل قولهم : اللغة كائن حى من أصدق القضايا المسلم بها . ففى جميع اللغات كلمات تحيا ، وكلمات تموت ، والبقاء للأصلح .

ومن الكلمات التى وئدت فى العصور الحديثة كلمة « الجرائيم » إذ تغير مدلولها

الواسع وانحرف إلى مجرى هو غاية فى الضيق ، انحرافا من الجمال إلى نهاية القبح والشناعة .

فالجرثومة فى فجرها اللغوى تعبير جميل عن أصل كل شيء ومجتمعه ، والجرثومة ما اجتمع من التراب فى أصول الشجر.. وفى حديث ابن الزبير لما أراد أن يهدم الكعبة ويبنيها : كانت فى المسجد جراثيم يراد بذلك أنه كان فيه أماكن مرتفعة عن الأرض مجتمعة من تراب أو طين ، أى إن أرض المسجد لم تكن مستوية . فإذا حاولنا أن نفهم هذا النص بالمفهوم العصرى أخطأنا المعنى المراد ، وفهمنا أن الأرض كانت موبوءة بجراثيم أمراض ، إذ أصبح مفهوم هذه الكلمة فى عصرنا لا يمكن أن يتعدى هذا المعنى الطبى الذى يعم البروتوزوا والفيروسات ، والفطر والبكتريا ، كما يقولون

وكذلك حين نصغى إلى قول جرير فى مدح عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان :

يا آل مروان إن الله فضلكم
فضلا قديما وفى المسعاة تقديم

قوم أبوهم أبو العاصى وأورثهم
جرثومة لا تساويها الجراثيم

ولا يمكن أن تفسر هذه الجراثيم التى تعنى الأصل السامىّ والعرق الكريم بالمفهوم اللغوى المعاصر .

وفى الشعراء الأمويين من كان يدعى «جرثومة» عثرت على اسمه فى كتاب المصون للعسكرى ٦٤ ، وقد كان هذا الشاعر موضع إعجاب من الخليفة عبد الملك بن مروان .

ومن ذلك أيضا كلمة « التبجح » فقد أصبح مفهومها العصرى منحصرا فى الدلالة على الجرأة المستهجنة ، وسوء الأدب وسلاطة اللسان . ولكن مدلولها الأصيل هو الفرح ، والشعور براحة النفس ، والفخر بما صار إليه المرء من منزلة ، كل ذلك فى نطاق الأدب والرضا ، ومنه حديث أم زرع : « وبجحنى فبجحت » ، أى فرحنى ففرحت وعظمت نفسى عندى .

فى ظلال النحو :

قالوا : من موانع الصرف فى الصفة أن تكون على وزن أفعل بشرط ألا يقبل مؤنثه التاء ، وذلك نحو أحمر وأبيض وأسود وأفضل وأكبر .

وهنا ينجم سؤال : ما الحكم إذا كان الوصف على وزن يغلب وروده فى الفعل وليس على وزن أفعل ، وذلك نحو أحيمر وأسيود ، وأزيرق ، مصغّر أحمر وأسود وأزرق ؟

الجواب : أن نحو أحيمر ، وأسيود ممنوعان من الصرف أيضا لغلبة ذلك الوزن فى الفعل نحو قول القائل : أنا أبيطر وأسيطر وأهيئم .

وبناء على ذلك كان قول ابن مالك فى الألفية :

ووصف اصلى ووزن أفعلا
ممنوع تأنيث بتا كأشهلا

موضع اعتراض عند النحويين وقالوا : الأرجح قول ابن مالك نفسه فى متن الكافية :

ووصف اصلى ووزن أصّلا
فى الفعل تا أنثى به لن توصلا

ليشمل القول ما كان على وزن أفعل وكذلك ما كان على وزن يغلب وروده فى الفعل .

وعلى ذلك إن ما ورد فى اللسان (سود ٢٠٩) من قوله :

«وتصغير الأسود أسيد ، وإن شئت أسيود ، أى قارب السواد » إنما هو خطأ ظاهر . والصواب : أسيد وأسيود ، ممنوعين من الصرف . فهذا عصفور آخر .

الجمع بين تاء المضارعة فى أول الفعل وبين نون النسـوة :

قال الحريرى فى الدرة ، ينعى على العامة قولهم : الحوامل تطلقن ، والحوادث تطرقن فيغلطون فيه ، لأنه لايجمع فى هذا القبيل بين تاء المضارعة ونون النسوة التى هى ضمير الفاعلات ، ووجه الكلام فيه أن يلفظ بياء المضارعة ، كما قال تعالى : « تكاد السموات يتفطرن منه » .

هذا ما ساقه الحريرى . .

وقال الخفاجى فى شرحه على الدرة ص ١٨١ : قال الزمخشرى :

فى هذه الآية قراءة غريبة ، وهى : «تتفطرن» بتاءين مع النون ونظيرها حرف روى فى نوادر ابن الأعرابى ، وهى تشممن اه . فإذا قرئ به وورد فى كلام فصحاء العرب قديما فكيف يتأتى ماذكره المصنف ، فهو من قصور الباع وقلة الاطلاع .

وأقول : قراءة التاءين مع النون من رواية يونس عن أبى عمرو فى الآية الخامسة من سورة الشورى ، كما هو عند الزمخشرى . ورواها ابن خالويه «تنفطرن» من الانفطار فى شواذ سورة الشورى من رواية يونس عن أبى عمرو أيضا .

الظرف المستقر :

يخطئ بعض المعربين حينما يقولون ظرف لغو وظرف مستقر . ويكسرون قاف «مستقر » والصواب فتحها . قال الصبان ١ : ٢٠٠ فى باب الابتداء : « وأعلم أن كلا من الظرف والجار والمجرور قسمان : لغو ومستقر بفتح القاف » .

ثم يعلل ذلك بقوله : « وسمى اللغو لغوا لخلوه من الضمير فى المتعلق ،

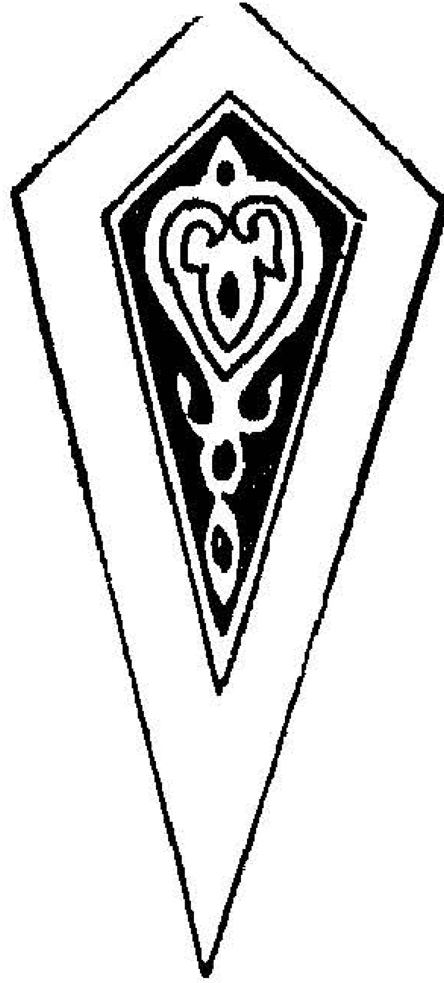
والمستقر مستقرا ، أى مستقرا فيه لاستقرار الضمير فيه.

اذا عرف السبب بطل العجب :

كلمة عائرة ، أومثل شارد ، يجرى كثيرا على ألسنة المعاصرين وكأنه وليد اليوم أو نتاج الأمس على حين نجده يضرب بعرق أصيل فى القدم إلى نحو تسعة قرون ماضية ، أدناها إليها ما جاء فى كتاب« المرتجل » لابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ وهو شرح على كتاب«الجمل» لعبد القاهر الجرجانى . قال فى المرتجل ١٤٥ : « التعجب معنى من المعانى التى تعرض فى النفوس ويكون مما خفى سببه وخرج عن نظرائه . وربمَّا عبرّوا عن هذا المعنى بعبارة أخرى هى : التعجب يكون مما ندر من الأحكام ولم تعرف علته . فإن أخل هذا المعنى بأحد الشرطين بطل التعجب . ولهذا قال القائل ، وهو قول مستفيض فى الناس: « إذا عرف السبب بطل العجب » . .

وأقول : إنى لم أجد هذا المثل فيما لدى من كتب الأمثال ولأمر ما أحببت أن تكون كلمتى اليوم على هذا الغرار الذى توخيته منذ عهد ليس بالقريب ، وهى أشتات نادرة متفرقة لأعلن أن تراثنا يزخر بالكثير من العجب وإذا عرف السبب بطل العجب ؟

عبد السلام محمد هارون
عضو المجمع



حياتي

للدكتور حسن ابراهيم

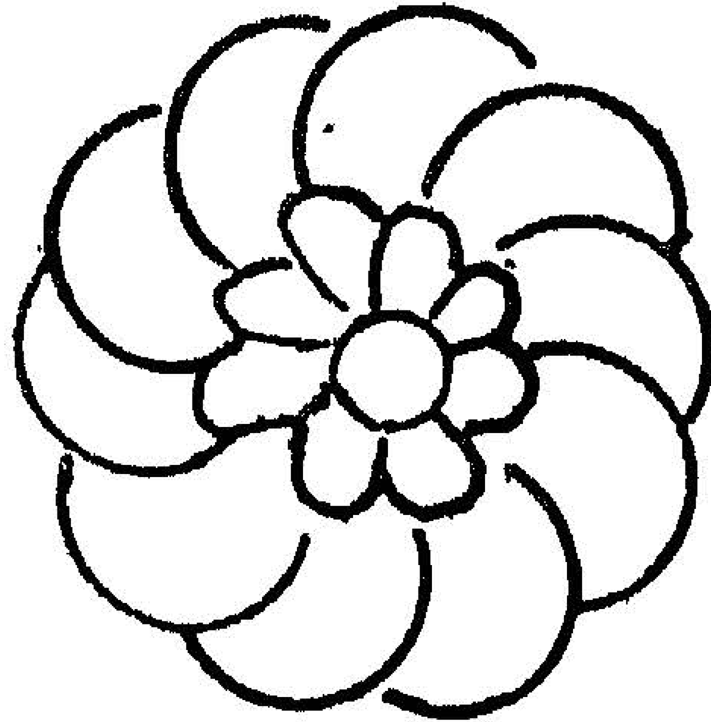
تدب حيـــاة المرء من يوم خلقه ... وئيدة خطو مثلما طلع الفجر
فيجهل ماذا كان فى بطن أمه ... وأيامه الأولى وقد بزغ العمر
فطنت لنور الشمس والصوت واللغى ... وخفت هزيم الرعد ما انهمر القطر
عرفت ظلام الليل والمهد والدمى ... وراحة نفسى كلما ضمنى صدر
وميزت أمى ثم من بعدها أبى ... وأدركت أنى منهما الولد البكر
فطنت إلى الدنيا فزاد تساؤلى ... لأنهم أسرارا فمن عنده السر ؟
وقد مرت الأعوام حتى ثلاثـة ... وأيقنت أن الفهم فى مهجتى نزر
وأمى بقلب الأم تسبر مهجتى ... أليس لها فى كل خاطرة خبر
وكانت معى يومـا بشرفـة منزلى ... عشية يوم زاد من طوله الحر
تطلعت نحـو البـدر ثم سألتهـا ... أأماه واها كيف لايسقط البدر ؟
وكان سؤالا فـوق كـل مداركى ... وكان جوابا حار فى فهمه الفكر
وصار أبى والأم يروون قصـتى ... لحدة تفكيرى وقد عمهم فخر
فهل زادنى التفكير فى العيش بسطة ... وهل نلت قدرا ليس يدركه الغير ؟
ومرت سنون العلم حتى شبيبتى ... وسار على درب الحياة فتى غر
دخلت خضم العيش والعيش ماكر ... ففى كل ركن فيه قد كمن الغدر
لهوت ولكن كنت عزبا عن الهـوى ... فبعض الهوى حلـو وأكثره مـر
وما شاقنى ظبى لعـوب وإنمـا ... لقاء سفين ثم من بينهـا البحـر
وما كان غـير اللهو همى وغايتى ... فما شفنى صـد وأرقنى هجـر
تحملـت أوزارا تعـد كثـيرة ... وعذرى شبابى الغر لو قبـل العـذر
إلى أن هدانى الله نحو قرينتى ... لأحيا حيـاة لايدنسهـا هجـر

(*) ألقيت القصيدة فى الجلسة السادسة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٤ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٨ من فبراير ١٩٨٢ م .

وكان زواجى عن رضى متبادل   وباركنا المولى فقد وجب الشكر
وعشت قريرا فالحياة رتيبة   ففى عملى شطر وفى منزلى شطر
رزقنا بأولاد رعاهم إلههم   فكانوا لنا أزرا إذا وهن الأزر
سلكت طريق الطب والطب منهك   مسالكه صعد وموطئه وعر
يطالبنى المرضى بما ليس فى يدى   فإن لدى الشافى البقاء أو البتر
فكم من هزيل صح من بعد يأسه   وكم ضمت الألحاد من زانه وفر
سهرت الليالى بين يأس وفرحة   أخفف من آلام من مسه الضر
ونلت قليلا فى سبيل شفائهم   فما نال من مرضاى ضيق ولا عسر
وما كان همى المال إن مكانتى   بعلمى وإتقانى لفنى لا الأجر
وإن لم أكن كدست مالا فثروتى   رضاء ضميرى إن هذا هو اليسر
يظن أناس أن من زاد أجره   تفوق علما إن هذا هو الخسر
وما كان برء الناس يوما بسلعة   تباع وتغلو إن هذا هو المكر
تركت وراء العلم أما مريضة   وبين أبى والقبر من دائه شبر
وأمضيت حولا فى بلاد غريبة   أحصل علما والدنا حولى القفر
وكيف يطيب العيش والفكر مفعم   بأهلى وفيما بيننا الطود والبحر
ركبت جناح الجو من بعد غيبة   وقد زاد شوقى للحمى ووهى الصبر
ولما بدت أنوار مصر تحدرت   دموعى لرؤياها ألا إنها مصر
وعدت لألقى والدى زاد داؤه   طريح فراش لايفارقه البهر
بكى إذ رآنى ثم للصدر ضمنى   ومن بعد شهر ضم جثمانه القبر
وكان جنازا مارأت مصر مثله   على منكب المرضى يشاع وهم كثر
لقد كان إنسانا علا ببلاده   فأعلت حياة ثم خلده الذكر
وزاد مع الأيام فى النفس هاتف   يؤرقنى ليلا ويلهبه الظهر
ألا طف ببيت الله خاشعا   وزر قبر من أحببت فى ذلك الخير
عبرت عباب البحر أدعو ملبيا   لمهبط وحى الله قد عمنى البشر
دلفت لبيت الله والشوق عامر   هنا حيث للأخطاء من فضله بشر
وقد حل فى نفسى خشوع ورعدة   فليس بموفى الوصف شعر ولا نثر
وطفت ببيت الله فى خطو خاشع   وقبلت ذاك الركن والقلب يفتر
تعلقت بالأستار لله داعيا   ليغفر لى وزرى وقد عظم الوزر
توجهت للرحمن أطلب رحمة   وما بين مخلوق وخالقه ستر

ومن كان ذا ذنب فمن ذا يجيره   سوى رب هذا البيت من أمره الأمر
وفى زمزم رويت غلة لاهث   وشاركنى فيها محياى والشعر
وصليت للرحمن فى صحن بيته   هنا حيث صلى السيد الطاهر البر
هنا حيث صلى أحمد لإلهه   وحل به ابراهيم وانفجر البئر
أذان بلال صار يطرق مسمعى   وتحطيم أوثان تعبدها الكفر
هنا حيث ألقى أحمد بردائه   ليوضع فيه أسود اللون مغبر
وجاء سراة القوم من كل جانب   فحمل بالجلمود وانحسم الشر
يطير حمام البيت بالبيت طائفا   وما مسه يوما فقد خشع الطير
هنا مهبط الإسلام من كل جانب   توافيه أفواج يضيق بها الحصر
يطوفون أفواجا ورائدهم هدى   ببيت له فى كل ناحية نشر
محمد كم شاقتك كعبة مكة   فعاد بك المولى وكللك النصر
دخلت إلى ذا البيت بالحق فاتحا   كريما فلا ضغن يثار ولا ثأر
فليس من الإسلام حفظ عداوة   ولا بطش جبّار توازره السمر
ومن مكة يممت والقلب مفعم   إلى موقظ الدنيا تهادانى [العفر
إلى قبر من ذكراه نور ورحمة   تخلد فى الأرواح مابقى الدهر
صفىّ إله الكون . [خير] معلم   ومن فتن الدنيا وليس به سحر
وقفت أمام القبر والدمع غامر   وقد لاح من تحت الثرى وجهه النضر
سعى فى سبيل الله والنصر دأبه   فما عاقه حر وأقعده قر
ومن دانت الدنيا له بعد شدة   فما مسه تيه وخايله [كبر
ومن صارع الأهوال من أجل دعوة   فما لان يوما أو تملكه الذعر
وما خاف وجه الموت والموت ماثل   وما راعه زأر وناب ولا ظفر
ومن سار غيم فى السماء لأجله   يظلله فى القيظ وانشطر البدر
أيا من روى الأتباع من نبع راحه   يفيض زلالا مثلما انسكب السدر
وقفت مع الإيمان والله قاهر   فما نالك الكفار والجحفل المجر
جعلت سيوف الكفر بترا عليلة   وأنصل أهل الدين من دمهم حمر
وفى الروضة الفيحاء صليت خاشعا   وقد فاح فيها من جوانبها العطر
فعطر من التاريخ عبق مهجتى   وعطر من الإيمان فاض به الصدر
أحقا أصلى حيث صلى محمد   وقدمر عصر سالف بعده عصر ؟
أأترك هذا النور من بعد عشوة   وهل ذا سمو سوف يتبعه حدر ؟

ولكنها الدنيا ورائى تحثنى ... لأكسب عيشا أو يلاحقنى الفقر
وما رمت من عيش سوى نيل راحة ... فما شدنى مال وأتخمنى دثر
فيا خاتم الرسل الكرام تحية ... عليك سلام الله ما طلع الفجر
وعدت إلى مصر وقد عم مهجتى ... من الدين أنوار أضاء بها الشعر
وإن كانت الأفكار فى النفس لاترى ... فما جاش فى نفسى سيظهره الخبر
وزادت بى الأشواق من أجل عودة ... إلى حيث تثوى فى الثرى أنجم زهر
نذرت إلى الرحمن نذرا لعودة ... لمهبط دين الله قد وجب النذر
ألا إنه موت حسابك بعده ... وليس بمغن عنه جاه ولا حذر
قضى الله موتا ثم إبعثا لخلقه ... وما لقضاء الله دفع ولا دغر
فيا سادرا فى غيه كف واتئد ... تذكر هوان القبر إنك مضطر
إلى وقفة يوم القيامة خاشعا ... أمام الذى سواك تسأل ما العذر ؟
ولا عذر فى غى مضى دون نوبة ... ولا فى ضلال ليس يتبعه بر
وإن لدى التواب أبواب رحمة ... تجيز خطايا الناس ما انصلح الأمر
وإن كانت الأخطاء تعدل قطرة ... فغفران غفار الذنوب هو البحر
ومن كان ذا نفس بكفر سقيمة ... ففى قلبه غى وفى أذنه وقر
هدانا إلى نهج السبيل محمد ... وقد قال ذا خير يفيد وذا نكر
فيارب هل لى فى رضاك مؤمل ... وهل لى مع الأبرار برك والحشر
ويارب إن أخطأت إن وسيلتى ... إليك هى التقوى ومنتك الغفر
ويارب إنى ماعصيتك عامدا ... ولكن جهلى والشباب هما الشر
ويارب إن أذنبت عدلك راجح ... وتأميل غفران لذنبى هو الذخر
ويارب إنى قد تحملت كارها ... من الكره ألوانا وآلمنى الغدر
وإن نعيم الأرض ماض وزائل ... وما خالد إلا النقاوة والطهر
وإنك للذكر الحكيم لحافظ ... فصن أمة الإسلام بقى الدهر
وما دام رب العرش للدين راعيا ... فللدين مد ليس يتبعه جزر



تجربتي في إحياء التراث

للأستاذ عبد السلام هارون

ليس لإحياء التراث أمراً حديثاً، بل هو عمل طبيعي قامت به الأجيال القديمة على امتداد الدهر وعلى صور شتى، من نشر للكتب، أو تلخيص لها أو نقد أو تعليق، فكم قد رأينا من كتب قديمة خلفها أصحابها فقام النساخون والوراقون بإحيائها وإذاعتها على نطاق واسع. فالمقريزى في الخطط ٢ : ٢٥٣ — ٢٥٥ يذكر أنه كان في خزانة العزيز بالله الفاطمى ٣٠ نسخة من كتاب العين و ١٠٠ نسخة من جمهرة ابن دريد. كما يذكر أنه كان في خزانة الفاطميين ١٠٠٠ نسخة من تاريخ الطبرى.

ويروى ابن النديم في الفهرست ٣٦٩ في ترجمته ليحيى بن عدى المنطقى النصرانى أنه كان ينسخ كتب التفسير والكلام، ويروى عنه أيضاً أنه قال: نسخت بخطى نسختين من التفسير للطبرى وحملتهما إلى ملوك الأطراف وقد كتبت من كتب المتكلمين مالا يحصى؟ ومن طريف ما يروى عن أحد النحاة، وهو يحيى بن محمد الأرزنى ما ذكره ياقوت ٢٠ : ٣٤ — ٣٥ والسيوطى في البغية ٤١٦ في شأنه: أنه كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ويبيعه بنصف دينار، ويشترى نبيذاً ولحماً وفاكهة، ولا يبيت حتى ينفق ما معه.

هذا جانب من جوانب إحياء التراث قديماً، وهو جانب النشاط في تكثير الأعداد بالكتابة والنسخ. وهناك جانب آخر يتمثل في شرح ذلك التراث. ونحن نجد أن حماسة أبي تمام المتوفى سنة ٢٣١ قد تناولها بالشرح أكثر من عالم وأديب، فشرحها أبو بكر الصولى، والإمام المرزوقى، وابن جنى، والآمدى، والتبريزى، وأبو هلال العسكرى، وابن سيده، والشنتمرى وغيرهم ممن أحصى عددهم صاحب كشف الظنون واحداً وعشرين شارحاً. وذكروا أن أول شارح لها هو أبو رياش أحمد بن إبراهيم الشيبانى المتوفى سنة ٣٣٩.

وكتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ شرحه أو قام بخدمته أكثر من ٥٥ عالماً منهم

(*) ألقى البحث في الجلسة الثامنة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٧ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ، الموافق ٢ من مارس ١٩٨٢ م.

السيرافى ، والرمانى ، والزمخشرى ، وابن الحاجب ، والشلوبين ، وابن الباذش .

ومقامات الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ تولى شرحها كثيرون منهم الخوارزمى ، والمطرزى ، والعكبرى ، والشريشى الذى له ثلاث شروح عليها : كبير ، وأوسط ، وصغير . وكتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ على ضخامة هذا الكتاب واتساعه شرحه الزبيدى صاحب تاج العروس . وطبع ذلك الشرح بفاس سنة ١٣٠٢ فى ١٣ جزءاً ثم طبع بالميمنية فى سنة ١٣١١ فى ١٠ أجزاء . وقام أخوه أحمد بن محمد الغزالى باختصاره ، واختصره كذلك أبو العباس الموصلى المتوفى سنة ٦٢٢ اختصارين ، كما اختصره السيوطى . وآخر اختصار له إلى اليوم ما نشره عبد السلام هارون باسم تهذيب إحياء علوم الدين .

أما إحياء التراث فى هذه العهود الحديثة فقد لبس ثوباً جديداً يمتاز بالنشاط السريع الذى يتمثل فى إنتاج المطبعة الحديثة فهى كانت عاملا فعالا فى نشر التراث الفكرى على نطاق واسع وعلى صور شتى ودرجات مختلفة من الصحة والتوثيق ومراحل متدرجة من الدقة والعناية حتى وصلت إلى مايشبه القمة فى عصرنا الحاضر .

وكان لإخواننا المستشرقين جهد بارع فى هذه الزاوية وسبق لايمكن إنكاره . فهم كانوا من أساتذة الجيل الحاضر فى الطريقة العلمية التى جروا عليها مستضيئين بلا ريب بجهود أسلافنا الأقدمين فى رواية كتب الحديث واللغة والشعر والأدب والتاريخ فى دقة وأمانة ونظام بارع .

وقد نبغ من بين المستشرقين علماء أمناء قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربى فى أمانة علمية دقيقة اقتبسوها من أسلافنا مقرونة بعناية خاصة بالفهارس الفنية . وهذا أيضاً كان شأن جمهور أسلافنا . فكتب الرجال عندنا تنال ترتيبا فهرسياً ممتازاً مقروناً بالإحالات الذكية ، كما أن مقابلة المخطوطات ومقارنتها ميزة عربية سباقة عرفها آباؤنا الأولون .

ولقد كانت فكرة إحياء التراث العربى والنشاط فيه فكرة قومية قبل أن تكون فكرة علمية فإن طغيان الثقافة الأوربية والنفوذ التركى وضغطه كاد أن يأخذ بمخنق العرب فى بلادهم فى القرنين الماضيين ، فأراد العرب أن يخرجوا إلى متنفس يحسون فيه بكيانهم المستمد من كيان أسلافهم، فى الوقت الذى ألفوا فيه الغرباء من الأوربيين يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية .

فانطلق العرب فى مصر وسائر البلاد العربية والإسلامية بدافع من القومية أفراداً وجماعات ، يولون هذا الأمر ما يستحقه من عناية .

ومن ذلك المنطلق المتدفق النابع من الفكرة القومية وجدتنى أسعى وأرحب بالدخول فى

هذا الميدان ، مع تهيّب وحذر شديد . وأول كتاب أقحمت نفسى فيه إقحاماً ، وبدأته بشىء من التحقيق هو كتاب متن الغاية والتقريب لأبى شجاع الذى نشرته سنة ١٩٢٥ وكنت طالباً بالصف الثالث من القسم الأولى الابتدائى بالمعاهد الدينية . وقد مررت فيه بتجربة الدقة فى ضبط النصوص .

وخضت بعده تجربة أخرى غمرنى فيها العالم الكبير المغفور له محب الدين الخطيب فقد كنت أتردد على مكتبته السلفية ، وألتقى بالعلامتين أحمد تيمور باشا وأحمد زكى باشا وقد آنس محب الدين منى بعض الكفاية فعهد إلى بالاشتراك معه فى تحقيق كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة الذى قمت فيه بالعبء الأكبر . وكان ذلك تجربة مشجعة لى على الاندماج فى هذا التيار المقدس .

وكانت المدرسة الأولى فى جدية التحقيق منى أن يكل إلىّ محب الدين الخطيب تنسيق التحقيق لخزانة الأدب للبغدادى فى طبعتها الأولى الحديثة حينما كنت طالباً بتجهيزية دار العلوم حيث أتممت بعدها الدراسة فى دار العلوم العليا ، وقد أتممت تحقيق أربعة أجزاء من الخزانة بالمشاركة مع العلامة تيمور باشا الذى كان له بعض تحقيقات معدودة ، والعلامة عبد العزيز الميمنى الذى كانت تحقيقاته تمتاز بتخريج الأمثال الواردة فى الخزانة ، ونظرات معدودة أيضاً فى التحقيق .

وقد عقد هذا العمل صلة بينى وبين المخطوطات ودراستها وتعرف خطوطها والخصائص الكتابية لها .

أما المدرسة الجامعة لى فكانت فى نطاق كتاب الحيوان للجاحظ ، الذى بذلت له أقصى جهدى فى زمان الشباب ، وفتحت فيه النوافذ لتأمل ملابسات التحقيق وتجاربه المثيرة التى أستطيع أن أرسم بعض زواياها ، وأن أصور أعماقها التى دفعتنى الخوض فيها إلى أن أبنى كتابى المتواضع «تحقيق النصوص ونشرها» وهو لا يزال بحمد الله نبراساً — إن صح هذا التعبير — لكل من يريد أن يدخل فى غمار هذا الفن الشريف ، لم يزاحمه كتاب آخر .

فأول ما واجهنى فى هذا المجال قضية تعدد المخطوطات للكتاب الواحد ، وبأيّها يأخذ المحقق ، وكيف يرتب منازلها ؟ وكيف يستخدمها عندما تتعدد .

وقد اقتضانى وجود سبع مخطوطات لكتاب الحيوان أن أعقد المقارنة بينها نسخة بعد نسخة فكنت أقيد على جوانب الأصل الذى سيقدم إلى المطبعة ما تقتضيه هذه المقارنة من خلاف بالزيادة أو النقص أو اختلاف الوجوه .

فظفرت من ذلك كله بأننى استطعت أن أرجع البصر فى هذا الكتاب قبل طبعه سبع مرات ، فكأننى حفظت الكتاب حفظاً ووعيته وعياً .

ووجدت أن هذا الكتاب كما يقال بتعبير عصرنا موسوعة متعددة الجوانب فى الثقافة العربية .

وفى الحق أن دار العلوم كانت تزودنا بكثير من وجوه هذه الثقافة . فعلى هذا الأساس كنت أدفع نفسى إلى الاستزادة من تلك الوجوه حينما أجد النص الذى أمامى يحتاج إلى مزيد من الدراسة فى تلك الوجوه منه فى اللغة والشعر والنقد والقرآن والحديث والتفسير والفقه وعلم الكلام ، والطب القديم والبلدانيات والتاريخ والسير ، إلخ . وقد لجأت فيما لجأت إلى معاجم اللغة الفارسية والعبرية وإلى كتاب فى الطبيخ لمؤلف بغدادى قديم تاريخ تأليفه سنة ٦٢٣ لا توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية ، وقد أسعدنى بالأمس أن أتمكن من إهداء صورة منه إلى مكتبة مجمعنا الموقر .

وعلمت من ذلك أن المتصدى لإحياء كتب التراث لابد أن يكون على صلة وثيقة ممتدة بهذه الأصول وغيرها ، وهذه هى العدة الأولى للمجاهدين فى إحياء التراث .

وشىء آخر ظفرت به وتعلمته من تحقيق كتاب الحيوان هو أن المخطوطات قد يقحم فى أثناء سطورها ما هو دخيل عليها ، فيحتاج المحقق إلى شىء من الفطنة ليخلص المخطوطة من هذا الزيف الذى خالطها .

ومن عجب أنى وجدت فى نسختين اثنتين من أصول الحيوان هذه العبارة عند الكلام على العقرب ، وهى :

« كنت بعجت بطن عقرب إذ كنت بمصر فوجدت فيه أكثر من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو أرزة . حرره أبو بكر السروكنى » .

ومن الواضح الجلى أن هذا الأسلوب ليس للجاحظ ، والجاحظ أيضاً لم يدخل مصر ولا اقتحم أبوابها . وعبارة « حرره أبو بكر السروكنى » هذا الرجل المجهول، شاهد بأن العبارة مقحمة على الكتاب إقحاماً .

وأمر آخر خطير وصارخ لفت نظرى فى أثناء تحقيق الحيوان وغيره ، وهو ما مُنيت به كتب التراث من بعض التحريفات فى نصوص القرآن الكريم . فكثيراً ما لايحفل الناظر فى كتب التراث بوجوب الشك فى تلك النصوص ، ثم هو كذلك يرى فى دخيلة نفسه أن هؤلاء العلماء الأعلام لا يثبتون هذه النصوص إلا بعد حرص وتثبت . لذلك كان من المؤسف أن أعثر على تحريفات مزعجة فى هذا الكتاب لم أملك إلا إن أردّها إلى نصابها الصحيح .

وجدت فى الجزء الرابع فى جميع النسخ بما فيها الطبعة الأولى فى ص ٧ : « فلما أتوا على وادى النمل » وهى : « حتى إذا أتوا على وادى النمل » .

وفى ص ١٥٩ : « على أن لا أقول على الله إلا الحق فأرسل معى بنى إسرائيل » . وهى « على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » .

وفى ص ١٦٠ فى جميع النسخ أيضا بعد « ولى مدبرا ولم يعقب » « ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » وهى « ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون » .

وفى الجزء الخامس ص ٣٢ : « إنى مبتليكم بنهر » وهى « إن الله مبتليكم بنهر » .

وفى ص ٣٩ : « هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً » . والوجه إسقاط « هو » .

وفى ص ١٣٧ : « وأنهار من ماء غير آسن » إنما هى : « فيها أنهار من ماء غير آسن » . وفى ص ٥٤٤ فى بعض النسخ : « فلما جاء أمرنا وفار التنور » ، وفى بعضها ؛ « ولما جاء أمرنا وفار التنور » ، وكلاهما تحريف فى تحريف . وإنما هى « فإذا جاء أمرنا وفار التنور » إلى غير ذلك من التحريفات التى هى كالشعر فى العجين يحتاج المحقق إلى استلاله فى حذر ورفق بعد مراجعة للقرآن الكريم ، ومختلف كتب التفسير والقراءات ، ولا سيما الشاذ منها .

لذا آمنت بضرورة تخريج آيات القرآن الكريم ، ودعوت إلى ذلك فى حتمية صادقة كما دعوت إلى ضرورة الاهتمام بوضع الفهارس للآيات القرآنية الكريمة .

وكان من نتيجة اليقظة لهذه الظاهرة والتجربة المثيرة فيها أن أحافظ على هذا المبدأ فى مختلف كتب التراث التى نفضت عنها غبارها . ومنها :

ماجاء فى كتاب « الحوارى » للجاحظ فى مجموعة داماد : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » وهى : « كان فاحشة وساء سبيلا » فقط وهى الآية ٣٢ من الإسراء التبست بالآية ٢٢ من النساء : « ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إنه كان فاحشة ... الآية » .

ومما عثرت عليه فى مخطوطات تهذيب اللغة للأزهرى من التصحيف القرآنى ماجاء فى مادة (وق) : « ما لكم من الله من واق » هى « مالهم من الله من واق » . وفى مادة (فوق) : « ما ينظرون إلا صيحة مالها من فواق » . وهى : « وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق » ١٥ من سورة ص » وهى آية فريدة فى القرآن ومع ذلك ورد فيها تحريفان اثنان .

وفى مخطوطات سيبويه العشر ونسخه المطبوعة فى ثلاث طبعات ببولاق وباريس والهند وكذا فى شرح السيرافى : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، والحافظين فروجهم والحافظات » وصوابها : « والحافظين

فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » في الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

وفى الأصل المخطوط لمقاييس اللغة لابن فارس فى مادة (نكب) : « وهم عن الصراط لنا كبون » وإنما هى : « وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » . وهى الآية ٧٤ من سورة المؤمنين .

وفى خزانة الأدب ٢ : ٢٠ فى نسخته المطبوعة ببولاق ومخطوطة الشنقيطى هذه الآية : « وما لهم به من علم إلا اتباع الظن » وإنما هى « ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » بطرح الواو ، وهى الآية ١٥٧ من سورة النساء وأما المسبوقة بالواو فهى الآية ٢٨ من سورة النجم ونصها : « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن » .

وفى الخزانة ٣ : ٦٠٥ فى النسختين : « فامسحوا برءوسكم وأرجلكم » ، وإنما هى « وامسحوا » .

وفى توضيح ابن هشام ٢ : ١٥٣ فى بعض النسخ : « أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه » ، وإنما هى « فانبجست » . وقد نبه على ذلك الشيخ خالد الأزهرى ، التبست بآية الاستسقاء فى البقرة « وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا ... الآية » .

إلى كثير من تلك التحريفات التى لايفطن لها إلا حافظ حريص على نصوص الكتاب العزيز .

وقد كشفت فى أثناء دراستى لكتب الحديث أنه قد وقع مثل هذا التحريف قديماً بصورة محدودة جداً . عثرت على هذا النص فى كتاب اختصار علوم الحديث لابن كثير الدمشقى ص ١٦٢ — ١٦٣ ، وهو : « وعن القاضى عياض أن الذى استمر عليه عمل أكثر الأشياخ أن ينقلوا الرواية كما وصلت إليهم ولا يغيروها فى كتبهم حتى فى أحرف من القرآن استمرت الرواية فيها على خلاف التلاوة ، ومن غير أن يجىء ذلك فى الشواذ ، كما وقع فى الصحيحين والموطأ ، ولكن أهل المعرفة منهم ينبهون على ذلك عند السماع وفى الحواشى » .

ولعل ماذكرت من إهمال التحقيق القرآنى أضخم وأشنع مزلق من مزالق الخطأ التى تدعو إلى حرص المحقق وأمانته .

وشبهة أخرى اعترتنى فى النصوص القرآنية : أن كثيراً من المؤلفين القدماء كانوا يستشهدون بالنص القرآنى تاركين لبعض الحروف أو الكلمات المتصدرة للنص ، كالواو ، والفاء ، وثم ، وإن أو قل أوما أشبه ذلك من الحروف والكلم نحو « وقل جاء الحق » فيقتصر المقتبس على « قل جاء الحق » أو على « جاء الحق » . وقد أوقعنى هذا فى حيرة شديدة ، هل من الأمانة أن أزيد الواو أو الكلمة التى قد يخيل للباحث أنها قد سقطت من صدر الآية ؟ .

وبعد لأى واستقصاء وجدت الفتوى عند الإمام الشافعى فتوى عنايته فى الفقرات ٦٤٣ : « يحل لهم الطيبات » وهى « ويحل لهم الطيبات » والفقرة ٩٧٤ « قاتلوا المشركين كافة » هى « وقاتلوا المشركين كافة » والفقرة ٩٧٥ : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » هى « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

ووجدت تلك الإجازة أيضاً بصورة أوسع فى تفسير مقاتل المسمى بالأشباه والنظائر مخطوطة مكتبة أحمد الثالث فى أكثر من اثنى عشر موضعاً من التفسير .

وقد نبهت تلميذى الدكتور عبد الله شحاتة عند مناقشتى لرسالته على خطأ تصرفه فى هذا الوجه من الاقتباس ومع هذا التحذير ألفيته بعد تصفحى لهذا الكتاب بعد قيامه على طبعه قد غير النص الأصيل بالزيادة . وبذلك وقعت فى الكتاب تلك التشويهات ، إلى كثير مما قام به من تكملة بعض الآيات فى صلب النص التى يعدها ضمير التحقيق عدواناً على الكتاب وعلى مؤلف الكتاب .

أنتقل بعد ذلك إلى بعض مزالق التحقيق ، وهو السرعة أو التسرع فى الحكم على صحة النص بعامل الإلف ، فقد يألف المحقق صورة معينة لعلم من الأعلام أو لقب من الألقاب ، فيخيل إليه أن ما خالف تلك الصورة الراسخة فى ذهنه هو الخطأ بعينه ، فيبادر إلى التغيير ليثبت مكان النص الصحيح ما خاله هو الصواب .

ومن أمثلة ذلك ما وجدته فى مقدمة معجم تهذيب اللغة للأزهرى الذى يذكر فيها أن أبا عمرو الشيبانى اسمه إسحاق بن مرُار الشيبانى ، مع إجماع كتاب التراجم على أنه ابن مِرار بكسر الميم ، وبالراء الثانية فى آخره . فحدثتنى نفسى أن أصححه بمرار ثم تراجعت وتريثت ، لأنى أعلم أن نسخة الأصل دقيقة جداً وحينما رجعت إلى ترجمته فى إنباه الرواة ١ : ٢٢٥–٢٢٦ وجدت القفطى يقول فى أثنائها : « وأما أبو منصور الأزهرى الهروى رحمه الله فإنه ذكر فى مقدمة كتابه فى اللغة الذى سماه التهذيب أسماء جماعة من علماء العربية منهم أبو عمرو الشيبانى عفا الله عنه ، فأخطأ فى اسم أبيه وأورده مصحفا فقال « مراد » وهو خطأ كبير من مثله ، ورئى ذلك بخطه فى مقدمة الكتاب . أخبرنى ياقوت — الكلام للقفطى — واسمه ياقوت الرومى مولى عسكر الحموى قال : شاهدت بمرو نسخة من الكتاب بخط الأزهرى عند بنى السمعانى وفيها مراد » .

أقول ، بعد هذا كله : إننى لم أعدُ أن أثبت النص على خطئه كما ورد بخط الأزهرى ولم أستحل تغييره ؛ لأن هذا النص ملك للمؤلف ولا أملك بعد ذلك إلا أن أنبه على الصواب فى حاشية الكتاب .

وأخرى وقانى الله شرها ، [٢] إذ وجدت ابن إسحاق فى السيرة ٣٢٩ يلقب أسماء بنت أبى بكر الصديق بذات النطاق ، وعهدى وعهد الناس بها أنها « ذات النطاقين » فهممت ولم أفعل أن أجعلها ذات النطاقين ، ولكنى لم ألبث أن وجدت ابن هشام يعقب على ذلك بقوله : « وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول ذات النطاقين . وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر » . فلم يبدل ابن هشام ذات النطاق أمانة منه وحفاظاً على النص مع شهرة اللقب الثانى الذى ورد فيه حديث : « أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة » .

فى قراءة المخطوطات :

تراثنا الثقافى العربى ، وهو أضخم أنواع التراث الإنسانى وأعظمها وصل إلينا مكتوباً مصوراً فى صور شتى من الخطوط ، ولكل صورة من تلك الصور فروع وفروع للفرع فى شكل الخط وفى رسم الكلمات الذى يسمى اليوم بقواعد الإملاء . ومعنى هذا أن القارئ والدارس فى كتب التراث محتاج إلى خبرة واسعة فى تلك الخطوط والضبوط ، لكى يصل إلى صواب القراءة .

وتحتفظ خزائن الكتب ببعض صور الخط الكوفى القديم فى بدء تطوره ، كما تحفظ الخط المشرقى الجميل الواضح ، والخط الأندلسى المشتق من الخط المشرقى والخط الأوربى معاً . ويمتاز هذا الخط بشيوع الاستدارات والتقليل من الزوايا ، وتداخل الكلمات وإطالة أواخر الحروف . وقد اكتسب الخط الأندلسى بالمغرب حياة جديدة وجمالا جديداً ولكنه لم يلبث أن اضمحل وصار كما يقول ابن خلدون : « مائلا إلى الرداءة بعيداً عن الجودة » . ويفهم من مقدمته أن ما سماه المتأخرون بالخط المغربى إنما هو الحالة التى صار إليها الخط الأندلسى الجميل .

ويشترك الخط المغربى مع الأندلسى فى قاعدة نقط الفاء والقاف ، إذ يكتفى كل منهما برسم القاف منقوطة بنقطة واحدة من أعلى ، ورسم الفاء بنقطة واحدة أيضاً ، ولكن من الأسفل .

وحروف الهجاء يختلف ترتيبها بين المشارقة والمغاربة كما هو معروف . وقد وجدت فى تطوافى الطويل أن قراءة الخطوط الأندلسية والمغربية تحتاج إلى كثير من التمرس والاعتياد ، إذ ضل كثير من المحققين المعاصرين سبيلهم إلى القراءة الصحيحة فى هذا الضرب من الخطوط .

الأبناء الأدعياء :

إن الاستعانة بالمراجع التى يقتضيها تحقيق المخطوطات أمر حتمى ، ولسنا بحاجة إلى الخوض فى تعيين هذه المراجع فقد أصبحت المناهج العلمية الحديثة كفيلة بذلك ، كما أن لكل باحث طريقته الخاصة فى تعيين هذه

المراجع والاعتماد عليها ، والقاسم المشترك الأعظم كما يقولون هو مختلف ضروب المعاجم اللغوية وكتب وسائل الضبط النحوى والإملائى .

لكنى أريد أن أنوه بما كشفته من بعض الموسوعات القديمة التى تضم فى أحشائها كتباً كاملة أو قريبة من الكاملة . وهى بلاريب نوع من أصول النص خطير . وقد لقبت تلك الأصول فى كتابى بأنها الأبناء الأدعياء ، لأنها أصول قديمة منقولة فى أثناء أصول أخرى فتنتمى بالبنوة إلى أمهاتها .

وحينما نشرت وقعة صفين لنصر بن مزاحم لم أجد إلا النسخة المطبوعة بالحجر فى إيران التى فقد أصلها المخطوط . وكنت فى قراءتى لشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ألمح بين الفينة والأخرى نصوصاً طويلة مقتبسة من كتاب وقعة صفين ، ففكرت فى أن أتعقب تلك النصوص فى مختلف صفحات الكتاب فى أجزائه العشرين وأمكننى فى قرابة شهر كامل وبعون من الله أن استخرج نسخة كاملة من هذا الكتاب لا ينقصها إلا نحو عشرين صفحة من نحو ٣٥٠ صفحة . وقد بينت هذه المقارنة بالأرقام فى مقدمتى لوقعة صفين كما عثرت على جمهور كبير من كتاب « المغازى » للواقدى يبلغ نحو : ثلثمائة صفحة .

ومن يتعقب خزانة الأدب للبغدادى ، أوعيون الأخبار لابن قتيبة ، أو الأشباه والنظائر للسيوطى يجد مثيلا لهذا الضرب من الأبناء الأدعياء .

تصحيح نسبة الكتب الى مؤلفيها :

إن تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلف يقتضى حذراً شديداً وإلماماً صادقاً . وقد كان من المعروف المتداول أن مؤلف كتاب « مجالس العلماء » هو أبومسلم كاتب ابن حنزابة ، أوبتعبير مختصر كاتب ابن حنزابة كما هو مسجل فى فهرس دار الكتب المصرية .

وأبو مسلم هذا هو محمد بن أحمد بن على الكاتب ، وأما ابن حنزابة فهو أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر ، وزير بنى الإخشيد بمصر مدة إمارة كافور . وقد اتضح لى أن ذكر هذا الاسم على الصفحة الأولى من الكتاب ، وبخط حديث مخالف لخط الأصل ، مجلبة للشبهة ومدعاة للتحقيق .

وبسلسلة من التحقيقات الصارمة فى نصوص الكتاب ومجالسه ، وفى أسناده المماثلة تماماً لأسناد أمالى الزجاجى قطعت باليقين وبأدلة سبعة لا يحتمل واحد منها خطأ ، أن مؤلف هذا الكتاب هو أبوالقاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى صاحب الأمالى وأن كاتب ابن حنزابة هذا ما هو إلا أحد نساخ الكتاب . وقد أوضحت هذا الأمر بأسانيده فى مقدمة هذه المجالس .

ومرت بى تجربة أخرى فى كتاب ظننت أنه من كتب الجاحظ ، وهو بدار الكتب

المصرية أيضاً برقم ٢٣٤٥ أدب . وقد كنت في إحدى لقاءاتي بالمغفور له أحمد زكي باشا قد بشرني بأنه قد استحضر لدار الكتب المصرية من تركيا صيداً ثميناً هو كتاب « تنبيه الملوك والمكايد » للجاحظ . وقد علقت تلك البشرى بذهني قبل أن أفكر في نشر مكتبة الجاحظ وإحيائها . وحينما صار الأمر جداً ونظرت نظرة الفاحص فيه وجدت هذه النسبة زيفاً من الزيوف وباطلا من الأباطيل . وبحسبك أن تجد في أحد أبوابه : (باب نكت من مكايد كافور الإخشيدي) ، و(باب مكيدة توزون بالمتقي بالله) . فما عدا مما بدا ؟ كافور الإخشيدي كان يحيا بين سنتي ٢٩٢ ، ٣٧٥ والمتقي بالله ، وهو الخليفة العباسي إبراهيم بن المقتدر كان يحيا بين سنتي ٢٩٧ ، ٣٥٧ . وهذا كله تاريخ يجاوز وفاة الجاحظ بعشرات السنين ، إذ كانت وفاة الجاحظ سنة ٢٥٥ وأعجب من ذلك أسلوب الجاحظ ، إذ جاء في صدر مقدمته : الحمد لله الذي افتتح بالحمد كتاباً ، وفتح للعبد إذا وافى إليه باباً ، قسم بين خليقته فطوروا أطواراً وتحزبوا أحزاباً ، وأنفـذ فيهم سهمه وأمضى فيهم حكمـه وجعل لـكل شيء أسباباً ، فهم دائرون في دائرة إرادته لا يستطيعون عنها انقلاباً داهشون في بدائع حكمته ومشيئته وإرادته ، يعز من يشاء ويرزق من يشاء » .

وليس هذا الأسلوب بحاجة إلى التعليق ـ كما أن الكتاب ليس بحاجة إلى أن أسهب في نفي نسبته إلى أبي عثمان الجاحظ .

عوامل التصحيف والتحريف :

وجدت في رحلتي أن عوامل التصحيف والتحريف لكثير من الكلمات تكاد تخضع لعوامل محدودة من الممكن إجمالها فيما يلي :

العامل الأول : هو نقط الحروف ، وعدد النقط ومواضع النقط .

مثال ذلك : اجترار المودة ، أي اجتلابها صحفت إلى احتراز المودة سقطت نقطة الجيم وزيدت نقطة على الراء .

النمور والبيور : جمع نمر وببر صحفت إلى التمور والبيور زيدت نقطة على النمور من أعلى ونقطة إلى الباء من أسفل .

دانية من بطن الدماغ : حرفت إلى ذاتية زيدت نقطة على الدال وأخرى على النون

العامل الثاني : أسنان حروف الكلمات

مثال ذلك شبيه به تصير إلى تنبيه به نقصت أسنان الشين فصارت إلى ما ترى .

على طرف الثمام تصير : على ظرف الشمام ، زيد سنان على سن الثاء فصارت الشمام .

والعامل الثالث : التصاق الحروف أو انفصالها .

مثال ذلك حاق الحرص ، أى شدته تحرف إلى خلق الحرص بالتصاق الألف بالقاف فتصير لاما .

والعامل الرابع : التباس الراء بالواو والواو بالراء ، وهى ظاهرة واسعة النطاق.

النجوم والرجوم تصبح : النجوم والوجوم المرت : الأرض الجرداء تصير : الموت ، أو الموت يصير إلى المرت . وهذا كله خاضع لكتابة الراء مع التضخيم أو لكتابة الواو مع ترقيق رأسها فتصير كأنها الراء .

والعامل الخامس : التباس اللام بالكاف أو الدال .

شوك القتاد : تصير : سول القتال بتضخم الدال ، لم يتحول : لم يتحرك .

والعامل السادس : التباس الكاف بالعين والعكس : الكلاب على البقر وجدتها : كل البقر بعامل تضخم العين وانبساط أولها إلى أعلى مع إهمال سن الياء وضموره.

ولقد كانت معرفة هذه العوامل معينة لى على حل ألغاز كثير من التحريفات والتصحيفات . وقد أودعتها كتابى تحقيق النصوص .

تجربة الفهارس :

كان من أول مالفت أنظار الأدباء فى جيلنا القديم هو فهرس كتاب الأغانى الذى صنعه المستشرق الإيطالى إغناطيوس جويدى وترجمه إلى العربية محمد مسعود المحرر بجريدة المؤيد .

وظهرت من بعده فهارس الكتب التى حققها أحمد زكى باشا ومحققو دار الكتب المصرية .

وقد تنوعت ضروب الفهارس لكتب التراث وكان لى فيها نصيب وافر واستحداث أنواع كثيرة منها ، اقتضتها ضروب الكتب التى قمت ببعثها ، ولعل أصعب تجربة مررت بها هى تجربة صنع فهارس ، أنساب العرب لابن حزم ، وهو أوسع كتاب أخرجته المطابع فى علم الأنساب . وقد هالنى ما رأيت من كثرة الأعلام التى سردها ابن حزم فى كتابه ، فهو لا يكاد يفوته ذكر بطن من بطون العرب وفصائلها ، وحينما يتعرض لذكر خليفة أموى أو عباسى أو أندلسى يقوم بسرد أبناء ذلك الخليفة فردا فردا . وقد يكون للخليفة الواحد أربعون ولدا أو خمسون أو ستون ومعنى هذا أن يكون للخليفة الواحد أربعون سطرا أو خمسون أو ستون بحسب عدد أولاده . وفى هذا إسراف كبير فى غير طائل .

وقد وفقنى الله بعد طويل من التفكير أن أشير إلى الموضع الذى سردت فيه هذه الأعلام سردا بوضعه بين قوسين تمييزا له وإشارة إلى أسماء الأولاد .

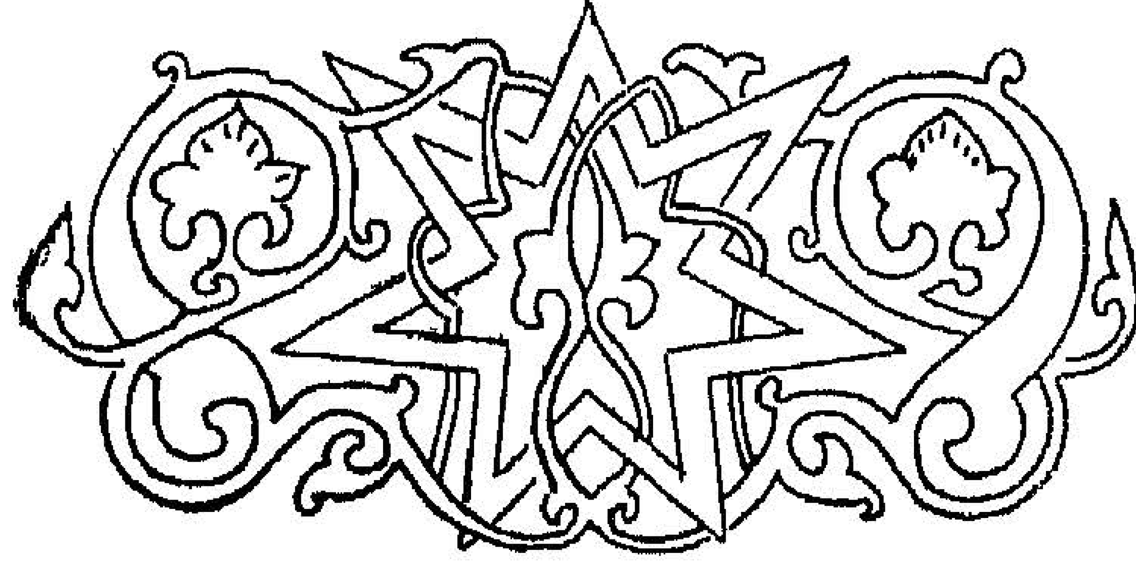
فاذا انفرد أحدهم ، فيما قبل أو بعد ، بخبر أو حادثة خصصته بالذكر بالإشارة إلى الصفحة التي ذكر فيها الخبر أو الحادثة . وبذلك اختصرت فهرس الأعلام إلى نحو الربع وصارت نسبة الفهـارس الاثنى عشر إلى صلب الكتاب ما يعادل نسبة الخمسة والثلاثين إلى المائة .

ومعنى هذا كله أن صنع الفهارس يحتاج إلى دقة ودراسة تتناسب مع موضوع الكتاب وحجمه فى غير ما إسراف أو تقصير .

هذه تجربتى فى أثناء نصف قرن من الزمان بذلت فيه ولم أبخل ، وصبرت ولم أجزع ، لم أستعن غير الله ، ولم ألجأ إلى سواه ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

عبد السلام محمد هارون

عضـو المجمع



عود إلى ابن سينا

للدكتور حسن ابراهيم

في مؤتمر العام الماضي تكلمت عن ابن سينا، وكان عنوان حديثي «ابن سينا أين أخطأ وأين أصاب» وبعد أن أعدت قراءة ما كتبت عدة مرات شعرت أني كنت قاسيا على الرجل فقد عاش ابن سينا في زمن غير زماننا، ولم تكن لديه أية إمكانات معملية تجريبية وفي وقت تمت فيه ترجمة الفلسفة اليونانية وتم هضمها وأصبحت تسيطر على فكر كثير من علماء العرب؛ ولذلك رأيت أن أكون أكثر إنصافاً في حديثي في هذا المؤتمر.

يقول ابن سينا في كتابه الضخم «القانون» «ولما لم يكن الغذاء شبيها بالمغتذي بالفعل خلقت القوة المغيِّرة لتغيير الأغذية إلى مشابهة المغتذيات بل إلى كونها غذاء بالفعل وبالحقيقة وخُلِق لذلك آلات ومجارٍ هي للجذب والدفع والإمساك والهضم» وتعليقي على هذا الكلام الرائع هو أن ابن سينا سبق عصره عدة قرون مما قال، والواقع أنه كلام «معجز» إذا قيس بالعصر الذي عاش فيه، والعملية التي يصفها نسميها الآن التمثيل الغذائي assimilation أي تحويل الغذاء من مواد غريبة من نبات وحيوان إلى مركبات شبيهة بتركيب جسم الإنسان حتى ينتفع بها في عمليتي بناء الجسم والحصول على الطاقة اللازمة. أعتقد أن هذا الكلام كان فيه نوع من الإلهام.

ويقول ابن سينا «وبول المشايخ أشد رقة وبياضا ويعرض لهم الغلظ المذكور ندرة وإذا كان بولهم شديد الغلظ كانوا بعرض حدوث الحصاة فيهم» وهذا أيضا كلام جميل ودقيق فإن كثيرا من المتقدمين في السن تضعف كليتاهم من تصلب الشرايين فتفقد قدرتها على تركيز البول فيكون البول أشد رقة وبياضا كما قال تماما أما غلظ البول وعلاقته بتكون الحصى فهذا أمر معترف به، وأهم سبب لغلظ البول قلة تناول الماء وهذا يفسر ارتفاع نسبة الإصابة بالحصاة ارتفاعا ملحوظا فيما

(*) ألقي البحث في الجلسة الثامنة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٧ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ، الموافق ٢ من مارس ١٩٨٢ م.

يعرف بالحزام الجاف وهو المنطقة الصحراوية الشاسعة الممتدة من المحيط الأطلسى عبر شمال إفريقيا والصحراء الكبرى حتى حدود باكستان ، وهى منطقة تقل فيها المياه عامة ، بل إن إخصائى المسالك البولية فى عصرنا هذا بعد أن يستخرج الحصاة من المريض ينصحه بالإكثار من شرب الماء حتى لاتتكرر .

يقول ابن سينا : « واعلم أن فى فم المثانة عضلة واحدة مستعرضة الليف على فمها ومنفعتها حبس البول إلى وقت الإرادة فإذا أريدت الإراقة استرخت عن تقبضها فضغط عضل البطن على المثانة وانزرق البول بمعونة من الدافعة ». هذا كلام بالغ الجمال والدقة ، ولو أنه فى حاجة إلى تعديل بسيط فوصف العضلة التى تحيط بفم المثانة رائع ولكن الأروع أنه فهم أن التبول لا يبدأ بانقباض عضلة المثانة كما يظن الناس بل يبدأ باسترخائها ليدخل البول إلى المبال الخلفى ، وتبـــدأ عملية التبول . وطبنا فى عصرنا هذا يقرل نفس الشيء أما التعديل البسيط فهو أولا : أن العضلة الدافعة أو القابضة للمثانة هى التى تتقلص وتكمل عملية التبول ولا يستعين الشخص السوى بشد عضل البطن أثناء التبول ولا تنقبض عضلات البطن إلا فى حالة وجود سد فى المبال إذ أن شد عضل البطن يزيد الضغط على المثانة . وثانيا : خلال العشرين سنة الأخيرة عرفنا أن عضلة عنق المثانة تنتشر شعاعيا من فتحة المبال الداخلية وأن التبول يبدأ بتقلص هذه العضلة لا بالاسترخاء ؛ إذ أن انقباضها يؤدى إلى فتح المبال من الداخل ولكن لنذكر أن هذا التقلص أو عملية الاسترخاء يعطيان نفس النتيجة وهى فتح المبال .

يقول ابن سينا « لما كان معظم تدبير حفظ الصحة هو أن يرتاض ثم تدبير الغذاء وجب أن نبدأ بالكلام فى الرياضة فنقول : الرياضة هى حركة إرادية تضطر إلى التنفس العظيم المتواتر والموفق لاستعمالها على جهة اعتدالها فى وقتها به غناء عن كل علاج تقتضيه الأمراض المادية والأمراض المزاجية » ثم قسم أنواع الرياضة إلى ماهو قليل وما هو كثير ثم الشديد والضعيف والسريع والبطيء والحثيث والمتراخ وتكلم كثيرا عن أنواع الرياضة من كل نوع ثم قال « وقت الترويح فى الرياضة يجب أن يكون البدن نقيا ويكون الطعام الأمسى قد انهضم فى المعدة والكبد والعروق وحضر وقت غذاء آخر ويدل على ذلك نضج البول بالقوام واللون» . وأرى أن تعريف ابن سينا للرياضة جميل جدا ولا نستطيع أن نضيف شيئا إلى كلامه اليوم أما إصراره على خلو المعدة من الطعام وقت الرياضة فهذا صحيح أيضا لأن أية رياضة عنيفة

تجرى بعد تناول الطعام مباشرة تؤدى إلى التخمة. ومن يمارس الرياضة العنيفة يتناول قليلا من المواد السكرية قبل اللعب لتعطيه الطاقة اللازمة، كذلك قليلا من الماء ويترك الوجبة الرئيسية إلى ما بعد الانتهاء من رياضته .

ويقول ابن سينا فى حفظ الأطراف من ضرر البرد : « وإذا صارت الرِّجْل مثلا أو اليد لا تحس بالبرد من غير أن يخف البرد ومن غير أن يزيد فى وقايته بتدبير جديد فاعلم أن الحسّ فى طريق البطلان وأن البرد عمل فيه وأما إذا عمل البرد فى العضو فأمات الحار الغريزى الذى كان فيه وعرضه للعفونة فربما احتيج أن يفعل فى بابه ما قيل فى باب القروح وخصوصا الأكالة الخبيثة ، وأما إذا أضر به البرد ولم يعفن بعد بل هو فى سبيله فالأصوب أن يوضع الطرف فى ماء الثلج » وهذا وصف « رائع » لتأثير البرد الشديد على الأطراف وكلنا نعلم أن كثيرا من رواد القطبين الشمالى والجنوبى فقدوا بعض أصابعهم أو أنوفهم وفى هذا الوصف تمييز بين الحالة التى يمكن شفاؤها والحالة التى لا أمل فيها لحدوث الغرغرينة حيث يجب البتر ولكن أروع ما فى هذا الوصف علاج الحالات القابلة للشفاء ، فإن أول خاطر يأتى للإنسان هو أن يوضع الطرف المصاب فى ماء دافىء وهذا إذا عمل ما يؤدى حتما إلى حدوث الغرغرينة لأن زيادة الحرارة فى الطرف تزيد الأيض فيه دون تدفق الكمية اللازمة من الدم إلى الطرف فيموت وفى طبنا الحديث نعلم أن تسخين هذه الحالات يجب أن يكون بطيئاً جدا وبالتدرج حتى تتسع الأوعية المتقلصة شيئا فشيئا فيبدأ بتدليك الجزء المصاب بالثلج حتى تصل حرارته إلى الصفر ثم فى ماء أقل برودة وهكذا حتى تعود الدورة الدموية فكيف عرف ابن سينا أن الطرف يجب أن يوضع فى ماء الثلج وهذا ضد المنطق ؟ هل كان ذلك إلهاما ؟

ويقول ابن سينا « الصلب خلق ليكون مَبْنِيّ لجملة عظام البدن مثل الخشبة التى تهيأ فى نجر السفينة أولا ثم يركز فيها ويربط بها سائر الخشب وليكون لقوام الإنسان استقلال وقوام وتمكن من الحركات إلى الجهات ولذلك خلق الصلب فقرات منتظمة لاعظما واحدا ولا عظاما كثيرة المقدار وجعلت المفاصل بين الفقرات لاسلسلة توهن القوام ولا موثقة فتمنع الانعطاف » أظن لو طلب إلى أحد علماء التشريح فى عصرنا الحاضر أن يصف وظيفة الصلب والسر فى ميكانيكية تركيبه لما استطاع أن يقول كلاما خيرا مما ذكره ابن سينا .

ويقول ابن سينا أيضا : « الصلب مخلوق لمنافع أربع ؛ أحدها ليكون مسلكا للنخاع

المحتاج إليه لبقاء الحيوان .. إن الأعصاب لو نبتت من الدماغ لاحتيج أن يكون الرأس أعظم مما هو عليه بكثير ولثقل على البدن حمله وأيضا لاحتاجت العصبة إلى قطع مسافة بعيدة حتى تبلغ أقاصى الأطراف فكانت متعرضة للآفات والانقطاع وكان طولها يوهن قوتها فى جذب الأعضاء الثقيلة إلى مباديها».

أما من ناحية حماية الصلب للنخاع اللازم للحياة فابن سينا محق تماما ، أما باقى الكلام ففيه تفكير جميل ولكنه خطأ إذ أن جميع الأعصاب المحركة للجسم من الرأس حتى أخمص القدم تخرج من المخ إلا أنها لا تقطع كل هذه المسافة بل إنها من خلال مشابكة فى النخاع أو الحبل الشوكى كما نسميه اليوم تخرج أعصاب جديدة لتكمل باقى المسافة وهذا بالطبع كان لا يمكن معرفته قبل استعمال المجهر وتتبع مسيرة الأعصاب تحت المجهر لسنوات عدة ولا يحدث الحبل الشوكى أية حركة إرادية فى الإنسان ، ولكنه مسار للحركات الانعكاسية السريعة فإذا مست اليد شيئا ساخنا مثلا أو وطأت القدم ما يسبب وخزا فإن الذراع أو الرجل تتحرك فى الحال لتبعد اليد أو القدم عن مصدر الأذى قبل أن يدرك المخ ما حدث ، وهذه الأقواس الانعكاسية الموجودة فى الحبل الشوكى لا تمثل إلا جزءا بسيطا جدا من الجهاز العصبى المركزى وهى لحماية الجسم .

وقال ابن سينا فى الطعام: « وتقدير الطعام هو بحسب العادة والقوة وأن يكون مقداره فى الصحيح القوة المقدار الذى إذا تناوله لم يثقل ولم يمدد الشراسيف ولم ينفخ ولم يقرقر ولم يطف ولم يعرض غثى ولا شهوة كلبية ولا سقوط ولا بلادة ذهن ولا أرق ولم يجد طعمه فى الجشاء بعد زمان وكل ما وجد طعمه مدة أطول فهو أردأ وقد يدل على أن الطعام معتدل أن لا ينتج منه عظم نبض مع صغر نفس فإنه إنما يعرض بسبب مزاحمة المعدة للحجاب » هذا كلام جيد فى اختيار الطعام الصالح والاعتدال فيه ، كما يتعرض تعرضا صحيحا لأسباب أعراض التخمة من سرعة فى النبض وضيق فى التنفس .

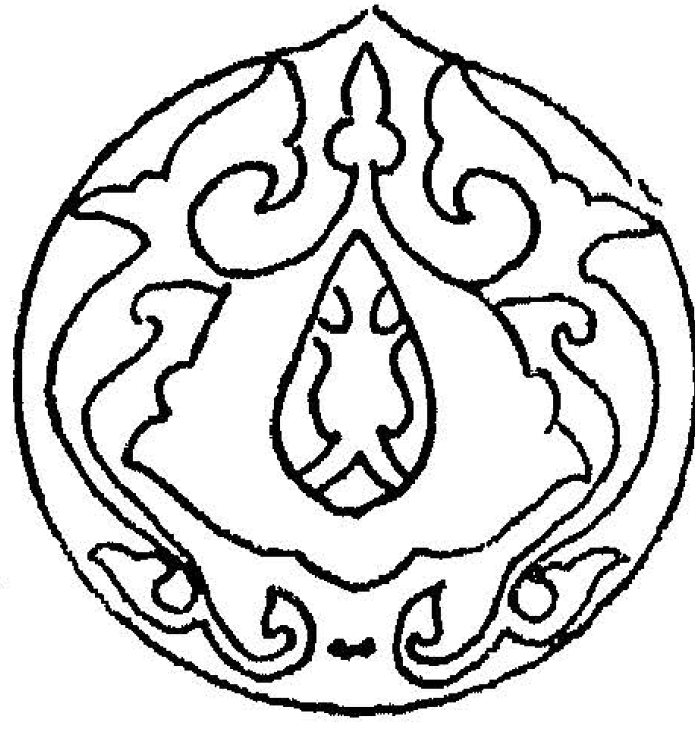
وأود أن أختم حديثى بملخص عما قاله فى الدماغ وهو فى رأيى كلام معجز بالنسبة للعصر الذى عاش فيه يقول ابن سينا ما معناه : إنه مركز الأفعال الحسية والأفعال السياسية مثل التذكر والتفكر وقوة الوهم والحدس) والأفعال الحركية وإدراك الطعم من حرافة وملوحة ومرارة ، ويستدل منه على أحوال الدماغ وهناك أشياء غير عادية مثل طول الحزن والوحوش والمالنخوليا والصرع ومانيا ومن الضحك بلا سبب على حمق أو رعونة وتخيل ما ليس له وجود من خارج مثل الدوى أو ضرب المطارق أو صوت الطبول أو كشكشة أوراق الشجر أو حفيف

الرياح وهو مركز البصر والسمع والشم واللمس أما إذا حدث عمى بالعين فهو ناتج على الأغلب من سبب فى العين وإذا كانت العين سليمة فيكون مرجعه الدماغ أما بالنسبة للذوق واللمس فقد يجريان هذا المجرى إلا أن تغيرهما عن المجرى الطبيعى يدل على فساد خاص فى الأنهاء القريبة وفى الأقل على مشاركة الدماغ خصوصا مثل ما إذا كان عاما كخدر جميع البدن كذلك المزاج والكدر والخيال كذلك الفالج وأن منشأه الدماغ .. إلخ ، فهل تصدقون أن هذا الكلام كتب منذ ألف سنة ؟

أيها السادة لا أريد أن أطيل عليكم وأكتفى بهذا وشكرا .

حسن على ابراهيم

عضو المجمع



المتنبى

بين نفسيته وشاعريته

للدكتور محمد مهدى علام

من القضايا المقررة التى لا تحتمل الجدل الآن أن أسلوب الكاتب ينم عن شخصيته وعن نفسيته . ذلك أن الأسلوب الأدبى قلما يقتصر على التعبير عن فكرة تعبيرا محدودا دقيقا لا يزيد عنها ولا ينقص. بحيث لا يختلف القراء أو السامعون فى فهم مقصوده أىّ اختلاف . إن هذه الدقة فى التعبير ، التى يكون اللفظ فيها قياس المعنى ، كالثوب المفصل المحكم لا توجد عادة إلا فى الأسلوب العلمى البحت الذى تخصصت ألفاظه بمعان لا تتفاوت ، وليس لألفاظه طبيعة التفاعل بعضها مع بعض تفاعلا يلقى عليها أضواء وظلالا .

إن الأسلوب العلمى ، كالمعادلات الرياضية ، تحتفظ بقيمتها سواء قدمت بعض الحدود التى فيها أو أخرتها ، فقيمة (س) أو (ص) فى المعادلة الجبرية الواحدة تظل محتفظة بمدلولها الرياضى ، ولا كذلك الألفاظ فى الأسلوب الأدبى ، فإن وضعها من الجملة تقديما أو تأخيرا ، أو بجانب لفظ دون لفظ ، يؤثر فى المعنى تأثيرا يلحظه كل ذى ذوق أدبى ، كالألوان لا قيمة لها فى لوحة إلا بتجاورها وامتزاجها.

كل هذا واضح مقرر من وجهة نظر القارئ المتلقى ، الذى يستشف من العبارة التى أمامه هدف كاتبها منها . ولكن الذى أريد أن أصل إليه لأقدم به لدراستى هذه ، هو أن الحالة النفسية التى يكون فيها الكاتب تؤثر فى كل من فكرته وأسلوبه . وما أظن أن هناك صعوبة فى إدراك أن نفسية الكاتب تؤثر فى أفكاره ، فنحن نترقب عادة من الكاتب المغضب أن يقول شيئاً يدل على غضبه ، ومن الشاعر الثائر أن يعبر عن ثورته ، ومن المحب الولهان أن يفيض رقة ووجدانا ، ولكن هناك أمرا أخفى من هذا ، هو أن الكاتب إذا أراد — أو أريد له — أن يتكلم عن حالة لا تلائم ما يشعر به فى قرارة نفسه ، لم يكن ثمة بد من أن يظهر ذلك فى أسلوبه لدى العين الناقدة .

ويختلف الكتاب والشعراء فى مدى نجاحهم فى إخفاء مشاعرهم الكامنة حينا

(*) ألقى البحث فى الجلسة التاسعة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٧ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢ من مارس ١٩٨٢ م .

يعرضون لأمور تختلف مع تلك المشاعر ومن أقدر الناس على إخفاء هذه الكوامن النفسية « أبو الطيب المتنبي » ، الذي كان يضطر في بعض الأحيان إلى إظهار الرضا وهو غاضب ، إلى المدح وفي نفسه أن يهجو ، إلى الاعتذار وفي اعتقاده أنه يجب أن يعتذر إليه . وليس من شأني هنا أن أفصل في أن «المتنبي » كان أو لم يكن على حق في أن يكون غاضبا وإن أظهر الرضا . وإنما الذي يعنيني أن يكون معتقدا ذلك في قرارة نفسه بحق أو بغير حق ، وأن أحاول أن أبين أثر هذه المشاعر في أسلوبه الذي تظاهر فيه بغير ما استقر في نفسه .

وللمتنبي في هذا الصدد مقدرة نادرة حقا ، أعانته عليها شاعرية ممتازة ، وعبقرية فذة ، حتى إن كثيرا منا يمر بما يقول هذا الشاعر العملاق في مثل هذه المناسبات دون أن يتنبه إلى خفايا نفسه .

فنحن نعلم قصته مع الأمير «سيف الدولة» ، الذي كان يغدق عليه العطايا نظير قصيدتين أو ثلاث قصائد في السنة . ومع ذلك كان «المتنبي» — وهو الذي كان يرى أن فؤاده من الملوك وإن كان لسانه يرى من الشعراء — يحتجز نفسه ، ويبطىء بمدائحه لسيف الدولة ، وكان هذا يشق على الأمير ، فيحضر من الشعراء من كانوا من غير شك دون «المتنبي» منزلة وكان هؤلاء يتعرضون لأبي الطيب بما لا يحب ، وكان أبو الطيب لا يعبأ بذلك .

ويزيد ذلك في ضجر «سيف الدولة» ، ويتمادى «أبو الطيب» في الإغضاء عن الأمير وعن المتشاعرين الذين غُرُّوا بذمه ، ويستمر الأمير في التحريض على أبي الطيب ، وبعد مدة قضاها الأمير والمتنبي فيما يسمى بلغة العصر الحديث « حرب الأعصاب » أو « الحرب الباردة » تقدم أبو الطيب للأمير بقصيدته المشهورة التي تسمى تارة عتابا ، وتسمى مرة اعتذارا ، وتعتبر أحيانا مدحا . وكل الذي يعنينا الآن هو أن ندرك أن « المتنبي » كان غاضبا ، ولكنه كان مضطرا لمدح سيف الدولة وترضيته ، وقد أعلن عن سخطه في عبارات واضحة صريحة ، على حين أعلن عن رضاه في عبارات مثقلة بالهموم ، محملة بالغضب .

فلننظر في هذه القصيدة قبل البدء في دراستها ، وأنا أعلم أنها من أسبق شعر « المتنبي » إلى قارئيه ، ولكنني أود أن نستعيد فكرتها العامة التي احتفظت بها ألف سنة ، قبل أن أعرض لها بالتحليل .

قال المتنبي :

واحَرَّ قلباهُ ممن قلبه شَبِمُ
ومَن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ !

مالى أُكتّم حبا قد برى جسدى
وتدّعى حبّ سيف الدولة الأمم !

إن كان يجمعنا حب لغُرّته
فليت أنّا بقدر الحب نقتسم !

* * *

قد زرتهُ وسيوف الهند مغمدة ،
وقد نظرت إليه والسيوف دم ،

فكان أحسنَ خلق الله كلهم ،
وكان أحسنَ مافى الأحسن الشّيم .

* * *

فَوْت العدو الذى يمّمْته ظفر ،
فى طيه أسف ، فى طيه نعم :

قد ناب عنك شديدُ الخوف ، واصطنعت
لك المهابة مالا تصنع البُهَم ؛

ألزمتَ نفسك شيئا ليس يلزمها :
أن لا يُواريهم أرض ولا علم .

أكلما رُمْتَ جيشا فانثنى هربا
تصرفتْ بك فى آثاره الهمم ؟

عليك هزْمُهمُ فى كل مُعْترك ،
وما عليك بهم عار إذا انهزموا :

أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
تصافحتْ فيه بيض الهند واللمم ؟

* * *

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ،
فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم !

أعيذها نظرات منك صادقةً :
أن تحسب الشّحم فيمن شحمه ورم ؛

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟

* * *

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ،
وأسمعت كلماتى من به صمم ؛

أنام ملءَ جفونى عن شواردها ،
ويسهر الخلق جرّاها ويختصم ؛

وجاهلٍ مدّه فى جهله ضحكى ،
حتّى أتته يد فرّاسة وفم :

إذا نظرت نيوب الليث بارزة
فلا تظنّنّ أن الليث يبتسم ؛

ومهجةٍ مهجتى مِن همّ صاحبها ،
أدركتُها بجواد ظهره حرَم ؛

رجلاه فى الركض رجل ، واليدان يدٌ ،
وفعله ماتريد الكف والقدم ؛

ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به
حتّى ضربت وموج الموت يلتطم ؛

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ،
والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؛

صَحِبتُ فى الفلوات الوحش منفردا ،
حتّى تعجّب منى القُورُ والأكَم ؛

* * *

يامن يعزّ علينا أن نفارقهم ،
وجداننا كلّ شىء بعدكم عدم ؛

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ،
لو أن أمركمُ من أمرنا أمَمُ !

إن كان سرّكُم ما قال حاسدنا
فما لجُرح إذا أرضاكم ألم .

وبيننا — لو رعيتم ذاك — معرفةٌ ،
إن المعارف فى أهل النهى ذِمَم ؛

كم تطلبون لنا عيبا فيُعجزكم !
ويكره الله ما تأتون والكرم :

ما أبعدَ العيبَ والنقصان عن شرفى !
أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم ؛

ليت الغمام الذى عندى صواعقه
يزيلهن إلى من عنده الدِّيَم !

أرى النوى تقتضينى كل مرحلة
لا تستقلّ بها الوخّادة الرُّسُم ؛

لئن تركنِ ضُمَيرا عن ميامننا
ليحدثنّ لمن ودعتهم ندم ؛

إذا ترحلت عن قوم ، وقد قدروا
ألاّ تفارقهم ، فالراحلون هم .

* * *

شر البلاد بلاد لا صديق بها ،
وشر ما يكسب الإنسان ما يَصِم ؛

وشر ما قنصتْه راحتى قَنَص
شُهب البُزاة سواء فيه والرَّخَم .

بأى لفظ تقول الشعر زِعْنِفة
تجوز عندك ، لا عُرْب ولا عجم !

* * *

هذا عتابك ، إلا أنه مِقَةٌ
قد ضُمِّنَ الدرَّ ، إلا أنه كلم .

ولنقف قليلا عند هذه القصيدة . لقد جأر الشاعر بالشكوى المريرة من أول بيت ، بل من أول كلمة ، فهى استغاثة صارخة :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ،
ومن بجسمى وحالى عنده سقم !

وهو لا يتردد فى وصف عاطفته وعاطفة سيف الدولة ، ولا يترفق فى اختيار الألفاظ لهذا الوصف ، فقلبه مفعم بالحرارة وقلب سيف الدولة خامد بالشبم والبرود .

ثم ينم على نفسه فى البيت الثانى فيعجب ، أو يتظاهر بأنه يعجب ، من أنه يكتّم حبه لسيف الدولة ، يتكلف ذلك تكلفا ، مع أن ذلك الحب قد برى جسده ، فى حين أن حساده من المتشاعرين الذين يقربهم سيف الدولة يدعون حبه ويتظاهرون به :

مالى أكتّم حبا قد برى جسدى
وتدعى حُبَّ سيف الدولة الأمم؟

فإذا كان هناك اشتراك بينه وبينهم فى حب الأمير ، فليت الأمير يقسم عطفه وهباته بينه وبينهم ، على قدر مايكنه كل منهم له من الحب :

إن كان يجمعنا حب لغرّته
فليت أنّا بقدر الحب نقتسم !

وبعد أن يتنفس الشاعر شكواه فى هذه الأبيات الصارخة ، يشعر أن لسيف الدولة حقا فى مدحه ، وأن سبب القطيعة التى يشكو منها المتنبى هو انقطاع مدحه عن الأمير ، فتسعفه شاعريته القادرة ، وينتقل انتقالا سريعا إلى استرضاء وليه ؛ ولكنه انتقال لايخلو من مفاجأة ، فليس له تمهيد ، وتكاد تنعدم الصلة بينه وبين ما سبقه من الشكوى المريرة .

أية علاقة بين شكواه من برود قلب الأمير عنه ، وبين شكواه من الحب الزائف الذى يتقرب به المتشاعرون للأمير ؛ بين شكواه من ظلم الأمير له فى عدم منحه ما يقابل حبه وإخلاصه له — أية علاقة بين هذا كله—وبين قوله عقب ذلك :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة ،

وقد نظرت إليه والسيوف دم ،

فكان أحسن خلق الله كلهم ،

وكان أحسن ما فى الأحسن الشيم

الحق أن المتنبى كان يعانى هنا صراعا نفسيا شديدا ، بين غضبه من سيف الدولة ، وشعوره بأن عليه أن يمدحه ويترضاه ، ولهذا انتقل هذا الانتقال المفاجىء ، المفاجىء بمقاييس منطق الفكر ، ولكنه انتقال طبيعى بمقاييس منطق النفس ، المنطق «السيكولوجى» الذى لا يخضع للمقدمات والنتائج ، بل يبيح المتناقضات ، ويعيش وسط التقلبات التى تخضع للرغبات المتضاربة فى نفوسنا :

فقد انتقل المتنبى هذا الانتقال المفاجىء خضوعا لموقف تمليه الظروف التى تتعارض مع ما يجيش فى نفسه من الألم . بل إن هذا الانتقال المفاجىء هو التمهيد الحقيقى لما أملته لباقة المتنبى عليه فى استرضاء سيف الدولة ، استرضاء مؤقتا ، بمدحه له بين عاصفتى غضب يسميهما كثير من قراء المتنبى عتابا أو اعتذارا . أولاهما تلك التى استهل بها القصيدة ، والأخرى يثيرها وشيكا عندما يعتقد أنه أدى ما يجب عليه نحو سيف الدولة ، فيصرخ مرة أخرى بقوله :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ،

فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم !

أجل ، لقد وجد المتنبى تمهيدا عاما ينتقل به من شكوى سيف الدولة ، إلى مدحه فقال : إنه قد زاره فى حالتى السلم والحرب ، فكان أحسن الناس جميعا وكان أحسن ما فيه شيمه وأخلاقه : وهو معنى عام ، بل عادى لا يرتفع إلى مستوى المتنبى ، ولكنه كان ضروريا ؛ كان مركبا صعبا اضطر المتنبى إلى ركوبه : كان قنطرة عبر عليها من شكواه إلى مايصح أن نسميه مدحا خاصا تظهر فيه شاعرية الشاعر أو تتبين فيه صفات الأمير ، وهو ما خصص له ستة الأبيات التالية التى ظهرت فيها الشاعرية بصورة رائعة جميلة :

فَوْتُ العدو الذى يممته ظفر ،

فى طيه أسف ، فى طيه نعم :

قد ناب عنك شديد الخوف ، واصطنعت

لك المهابة ما لا تصنع البُهَمُ ؛

ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ؛

أن لا يواريهم أرض ولا علم .

أكلما رمت جيشا فانثنى هربا

تصرفت بك فى آثاره الهمم ؟

عليك هزمهم فى كل معترك ،

وما عليك بهم عار إذا انهزمو :

أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر

تصافحت فيه بيض الهند واللمم ؟

ولئن اعترفنا للمتنبى هنـــا بمقدرة تصويرية فائقة ، إنه لا يفوتنا أن نسجل أنه لم يبتدع فكرة جديدة ، وإن كان قد ابتدع صورة جديدة . بل هو لم يمدح سيف الدولة إلا بما مدحه به فى غير هذا الموقف . ألم نقل إنه لم يكن راضيا تمام الرضا عن سيف الدولة ؟ فهو لذلك يعانى قدرا من الصعوبة التى يعانيها من يحمل نفسه على القول حملا ، فيعود إلى ما اختزنه عقله من الأفكار ليخرجه فى صورة قديمة أو جديدة .

والدليل على ما نقوله هو هذه القوالب التعبيرية التى صاغ فيها المتنبى هذه الدفعة من المديح ، فهى قوالب التعبير عن التقريع والتأنيب التى يصوغ فيها الغاضب فى العادة ما يريد أن يقوله من اللوم والنقد :

ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها :

أن لا يواريهم أرض ولا علم .

أكلما رمت جيشا فانثنى هربا

تصرفت بك فى آثاره الهمم ؟

عليك هزمهم فى كل معترك ،

وما عليك بهم عار إذا انهزموا :

أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر

تصافحت فيه بيض الهند واللمم ؟

هذه صيغ من يشير بأصبعه إلى من أتى أمرا يلام عليه ، وإن كانت محتويات هذه الصيغ قد تضمنت مدحا وإطراء .

لقد كان أبو الطيب خاضعا لعاطفتين متناقضتين : إحداهما تملى عليه فكرة المدح لترضية أميره ، والأخرى خفية فى نفسه تجيش بغضبه عليه . ولقد أنقذته شاعريته البارعة بما قال من المدح ، ولكن عقله الباطن تحكم فى قوالب الصياغة لهذا المدح ، فجاءت كما نرى قوالب النقد والتأنيب ، وإن ملئت بالمدح والثناء .

وما مثله فى هذا إلا كمثل الشاعر الذى قال لأميره يستجديه :

أأذكر حاجتى ، أم قد كفانى

حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء .

إن هذا الشاعر تختلج فى نفسه فكرة طلب العطاء من ممدوحه . ولكن الحياء يغلبه . ولنترك ما قاله موقتا ، لننظر فيما نترقب أن يقوله مثله .

إننا نفهم أن يقول :

أأذكر حاجتى ؟ أم قد كفانى

حيائى ، إن شيمتى الحياء .

لأن هذا يكون أصدق تعبير عن حالته النفسية .

ولقد نفهم أنه يقول :

أأذكر حاجتى ، أم قد كفانى
سخاؤك ؟ إن شيمتك السخاء .

لأن هذا يكون تعبيرا صادقا عن أمل الشاعر فى أن كرم ممدوحه يعفيه من مذلة السؤال .

ولكن الشاعر لم يقل هذا ولا ذاك ، لم يقل :

أأذكر حاجتى ، أم قد كفانى
سخاؤك ؟ إن شيمتك السخاء .

لأن شعوره بالحياء والخجل كان مسيطرا عليه ، ويأبى إلا أن يجد منفذا إلى التعبير عن نفسه .

ولكنه لم يقل كذلك :

أأذكر حاجتى ، أم قد كفانى
حيائى ؟ إن شيمتى الحياء .

لأن هذا يبعد به عن مدح وليه ، ويركز الأضواء على نفسه . وهنا تمتزج قوة العقل الباطن بقوة الشاعرية ، فيحول الحياء والخجل الذى يشعر به هو ، إلى صفة يمدح بها أميره ، مع أن الموقف لا يقتضيها ، ولكن هكذا صهرت شاعرية الشاعر هذه الصفة التى يشعر بها ، فأخرجتها صفة مدح لممدوحه :

أأذكر حاجتى ، أم قد كفانى
حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء .

هذا شبيه بالمسلك الذى فرض نفسه على أبى الطيب ، حينما وصف سيف الدولة بالشجاعة فى تلك العبارات التى تنم صيغها وقوالبها التعبيرية عن اللوم والتأنيب .

ولنسق دليلا آخر على ما نقول : دليلا نأتى به من شعر أبى الطيب نفسه .

فقد مدح سيف الدولة فى ظروف أسعد من هذه التى كان فيها وهو ينشىء هذه القصيدة ، ومدحه بنفس المعانى التى تناولها فى المقطوعة التى حللناها الآن . فماذا قال له ؟ قال يذكر نهوضه إلى ثغر الحدث لما بلغه أن الروم أحاطت به :

ما مضوا لم يقاتلوك ، ولكنّ (م)
القتال الذى كفاك القتالا :
والذى قطّع الرقاب من الضَّرْ
ب بكفّيك قطّع الآمالا ؛
والثبات الذى أجادوا قديما
علّم الثابتين ذا الإجفالا .
نزلوا فى مصارع عرفوها ،
يندبون الأعمام والأخوالا :
تحمل الريح بينهم شَعَرَ الها
م ، وتُذرى عليهم الأوصالا ،
تنذر الجسم أن يقيم لديها ،
وتُريه لكل عضو مثالا .

أبصروا الطعن فى القلوب دِراكا ،
قبل أن يبصروا الرماح خيالا ؛

وإذا حاولتْ طعانَك خيلٌ
أبصرت أذْرعَ القنا أميالا :

بسط الرعب فى اليمين يمينا
فتولوا ، وفى الشمال شمالا

يَنْفضُ الرَّوعُ أيديا ليس تَدْرِى
أسيوفا حملن أم أغلالا ؛

ووجوها أخافها منك وجه
تركت حسنها له والجمالا

والعيان الجلىُّ يُحْدِثُ للظنِّ (م)
زوالا وللمراد انتقالا ؛

وإذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعن وحده والنزالا .

هاتان صورتان متشابهتان فى وصف سيف الدولة بالشجاعة ، وبأن بأسه يسبق جيوشه فيلقى الرعب فى قلوب أعدائه . ولكننا لا يمكن أن تمر بنا الصورتان من غير أن نلحظ ما بينهما من فرق فى الأسلوب التعبيرى الذى ينم عن الحالة النفسية التى كانت تمتلك الشاعر فى كل منهما . ففى إحداهما احتشاد ومهارة فنية ، وفى الأخرى تدفق وانسياب وتلقائية . فى إحداهما صراع خفى بين المعنى واللفظ ، فصلت فيه عبقرية المتنبى بملء صيغ اللوم بجميل المدح ، فكان كمن يضطر إلى تقديم طعام أو شراب لمن فى نفسه غضب منه ، فيقدم كريم الشراب ولذيذ الطعام . لا فى كئوس شفيفة وصحاف فاخرة ، بل فى كيزان من الصفيح ، وآنية من النحاس ؛ لكأن المتنبى قال لسيف الدولة : المعنى لك واللفظ لى . بل إنه قال له ذلك فعلا ذات مرة :

إن هذا الشعر فى الشعر ملَكٌ ،
سار فهو الشمس ، والدنيا فلك :

عدل الرحمن فيه بيننا ،
فقضى باللفظ لى ، والحمد لك .

أما الصورة الأخرى فإنها تنساب مسترسلة ، فى عبارات متدفقة ، تصدر عن نفس مؤمنة بما تقول ، لا تحتجز شيئا ، ولا تستتر وراء عبارة أو صيغة أو قالب من قوالب التعبير . إن من الواضح الجلى أن المتنبى هنا يقول لسيف الدولة : لك المعنى واللفظ كلاهما ، لا أحتجز لنفسى شيئا منهما .

ولنعد إلى قصيدتنا لنرى أن الشاعر قد أقحم مضطرا تلك الصورة التى مدح بها سيف الدولة بين صرختيه بالشكوى ، كأنها فترة استجمام بين الصرختين ، أو لعلها — كما قلنا من قبل — ستر لموقفه من وليه الذى كان يتعطش لسماع مدحه . سمعنا صرخته الأولى فى مستهل القصيدة ، أما صرخته الثانية فهى التى يلاحق بها ما قاله فى سيف الدولة مدحا ،

حتى إنه يكاد أن يمحو بها أثر ذلك المدح :

يا أعدل الناس ، إلا فى معاملتى ،
فيك الخصام، وأنت الخصم والحكم!

ونحن لا ننخدع بسحر التعبير فى هذا البيت ، فأبو الطيب لا يصف سيف الدولة بالعدل ، كما يبدو للوهلة الأولى من ظاهر اللفظ ، بل هو يصفه بالظلم ، وإن قال له :

« ياأعدل الناس » . فما المقياس الطبيعى التلقائى الذى يقيس به المتنبى عدل سيف الدولة ؟ بل ما المقياس الطبيعى التلقائى الذى يقيس به إنسان عدل إنسان آخر ؟ إن ذلك يكون فى العادة بالحكم على معاملته له هو ، فإن ظلمه فهو ظالم ، أو بالأحرى ، إن اعتقد أنه ظلمه سماه ظالما ، وإن اعتقد أنه أنصفه سماه عادلا . فماذا قال المتنبى لسيف الدولة فى الحقيقة ؟ لقد قال له يا أظلم الناس ، لأنك خصم وحكم ، ولم ترتفع فى قضائك فوق مستوى الخصومة. ولكن شاعرية المتنبى ، وشعوره بجلال مقام سيف الدولة — فى هذه اللحظة على الأقل — حوّلا هذا التعبير إلى تعبير يشعر بالمدح ، أو على الأصح يخفف من أثر هذا الهجاء :

ياأعدل الناس ، إلا فى معاملتى ،
فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم !

ويؤيد هذا ما تابع به أبو الطيب هذه الشكوى ، إذ يقول :

أعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم ؟

فهل قصد شاعرنا هنا أن يقرر حقيقة أنه ينزه سيف الدولة عن خطأ الحكم ، وأن يثبت له صدق النظر فى التفرقة بين الشحم والورم ؟ هل ما جاء بعد هذا البيت يرجح هذا الظن ؟

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟

فإذا لم يكن هذا الإيحاء الأليم كافيا فى إثبات ما نقوله ، فلنستمع إلى ما جاء بعده من الأبيات التى يتبع فيها الشاعر شكواه من الأمير ، بشكواه من خصومه وحساده الذين يقربهم سيف الدولة ، فيلتفت إليهم المتنبى التفاتة غاضبة ، ويصب عليهم احتقاره صبا ، فى عشرة أبيات تفيض زهوا وكبرياء وصلفا ؛ فما يترك مكرمة من المكارم إلا أضفاها على نفسه ، غير عابىء بأنه فى مجلس وليه ، وبأن الموقف موقف استرضاء واعتذار ، لاموقف زهو وفخار : فهو خير من تسعى به قدم ، وهو الذى ينظر الأعمى إلى أدبه ، ويسمع الأصم كلماته ، وهو صاحب الشوارد التى ينام عنها ، يملأ جفونه الكرى ، على حين يسهر الخلق من أجلها ويختصم ، وهو الحليم الساخر من خصمه الجاهل الذى يظن حلمه ضعفا حتى ينقض عليه فيبطش به ، وهو

الفارس المغوار الذى يمتطى صهوة جواد ظهره حرم على غيره ، وأمره بين يديه يطيعه كما يشاء ، وهو الكمىّ الذى يسير بين الجحفلين بحسامه المرهف يشق لجج الموت المتلاطمة ، وهو المعتدّ بنفسه ، المعوّل على شجاعته ، يجتاز الفلوات وحده ، حتى لتعجب منه سهولها وجبالها ، ثم هو آخر الأمر : صاحب الخيل ، وخِدْن الليل ، وأنيس الصحراء ، وابن الضراب والطعان ، ورب القرطاس والقلم :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ،
وأسمعتْ كلماتى من به صمم ؛

أنام مِلءَ جفونى عن شواردها ،
ويسهر الخلق جرّاها ويختصم .

وجاهلٍ مدّه فى جهله ضحكى ،
حتى أتته يد فرّاسة وفم ؛

إذا نظرتَ نيوب الليث بارزة
فلا تظنّنّ أن الليث يبتسم .

ومهجةٍ مهجتى من همّ صاحبها ،
أدركتُها بجواد ظهره حرم ،

رجلاه فى الركض رجل، واليدان يدٌ ،
وفعله ما تريد الكف والقدم ؛

ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به
حتى ضربت وموج الموت يلتطم .

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ،
والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؛

صحبت فى الفلوات الوحش منفردا ،
حتى تعجّب منى القُور والأكَم

وبعد أن أراح الشاعر نفسه مما كانت تحمله من أعباء كبريائه ، وتنفس غضبه فى ثورة نسى فيها سيف الدولة ، وشُغل فيها بنفسه ، عاد إلى سيف الدولة ليستعطفه فى الظاهر ، ولكنه يؤنبه فى الواقع : لقد استودع ما بقى من القصيدة . وهو أربعة عشر بيتا ، عبارات من العتب ، ترق تارة ، وتقسو غالبا ، وتلوّح بالفرقة حينا ، وتهدد بالقطيعة أحيانا ، حتى إذا ما قال كل ما يريد ، ختمه ببيت أراد أن يمحو بنصفه الأول ما خلّفه صَلَفه فى نفس سيف الدولة ، ولكنه ثبّت بنصفه الثانى ذلك الصلف نفسه :

هذا عتابك ، إلا أنه مِقَةٌ ،
قد ضُمِّن الدرَّ ، إلا أنه كَلِمُ

لقد بدأ هذه الدفعة من العتاب بيت يفيض رقة ، ويتدفق عذوبة ، حتى ليكاد المرء يعتقد أن أبا الطيب قد ثاب إلى رشده ، وأنه شعر بسوء أثر ما نطق به لسانه عن نفسه ، فيقول بلغة العاتب ، بل بلغة التائب : إن فراقه لسيف الدولة يعز عليه ، وإنّ كل شيء بعده عدم لا يغنى عنه :

يامن يعز علينا أن نفارقهم ،
وجداننُا كلَّ شيء بعدكم عدم .

غير أنه يبدو أن المتنبى قد جاوزت به ألفاظه هدفه ، فكان عليه أن يفسد تلك

الرقة ، وأن يمرّ تلك العذوبة ، فيعقب على ذلك بأبيات تنعكس فيها حالة نفسية مضطربة ، متذبذبة بين استرضاء سيف الدولة وإغضابه فى غير ترفق . فيبدأ بعتابٍ مشوب بالاعتزاز بالنفس إذ يقول :

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة
لو أن أمركمُ من أمرنا أمم !

ثم يتلوه استسلام هو أدنى إلى الفناء فى الحب حين يرق رقة الأصدقاء الأصفياء ، ويذل ذل المحبين المتيمين ، إذ يقول :

إن كان سرّكمُ ما قال حاسدنا
فما لجُرح إذا أرضاكم ألم

ولكنه — كعادته — يخشى أن تغلبه رقته (أو ما تكلفه من الرقة) فينتقل سريعا إلى اللوم يلمح به تلميحا ، ويعرض فيه بسيف الدولة تعريضا :

وبيننا — لو رعيتم ذاك — معرفةٌ ،
إن المعارف فى أهل النهى ذمم .

وهنا يشعر أبو الطيب بأنه يتنفس عاطفة هى أقرب إلى نفسه ، وينطق بما هو أصدق فى تصوير شعوره ، فيندفع فى التعبير عن كوامن نفسه ، وينتقل من التلميح إلى التصريح ومن التعريض إلى التقريع البغيض :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزُكم !
ويكره الله ما تأتون والكرم .

ويطمئن المتنبى إلى كبريائه ، ويطمع فى المزيد من غلوائه ، كالمنازل الذى يرى الدم يسيل من خصمه ، فيستشرى ولا يأبه أن يقتل بعد أن جرح ، فيرسل بالقضية العامة تؤيد الدعوى الخاصة :

ما أبعدَ العيبَ والنقصان عن شرفى
أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم .

وكأنما أراد أبو الطيب أن يلين جانبه قليلا ، ليخفف من شدة ما قال ، ولكنه هنا يهوى مستخزيا ، فيسأل مستجديا ، ويرزح تحت عبء الحسد ، فتظهر النفاسة على لسانه ، فينطق فى بيت واحد بما يجمع بين مدح سيف الدولة بأنه الغمام الجواد ، وذمّه بأنه الظالم الذى لا يعدل فى توزيع عطاياه ، وينفّس على منافسيه فيتمنى لهم صواعق هذا الغمام ، ويذلّ بالاستجداء والسؤال ، ويضعف بالتمنى لما يجود به الغمام من الحيا الهطال :

ليت الغمام الذى عندى صواعقه
يزيلهن إلى من عنده الدِّيَم !

ويستخزى مرة أخرى ، محاولا ستر استخزائه فى ثوب من التهديد ، ولكنه ثوب شفشاف لا يستر ما تحته من ضعف وتهافت إخال المتنبى قد أصيب بهما فجأة وقد أوشك أن يختم قصيدته ، لفرط ما نطق به مما أغضب أميره . إنه لم يزد على أن يقول :

إن البعد عنكم — ذلك البعد الذى يهدد

به — يكلفنى أن أقطع مراحل لا تقوى على قطعها الإبل السريعة الشديدة .

أفيريد المتنبي أن يعلن أنه سيهجر سيف الدولة على الرغم مما سيكلفه ذلك من بُعد الشُّقة ووعورة الطريق؟ أم يريد أن يتراجع عن غطرسته ، فيذكّر سيف الدولة بأن هجره له — هجر المتنبي لسيف الدولة — ليس قريب المنال ، وأن الفرصة متاحة للأمير لاسترضائه واستبقائه ؟ أرجح الرأيين عندى أنه فى هذه المرحلة من القصيدة على الأقل كان أميل إلى الأخذ بأسباب الصلح لو أن سيف الدولة تقدم له بالخطوة الأولى . فهو لذلك يرسل طلائع الهدنة ، ورسل الصلح فى البيت التالى :

أرى النّوَى تقتضينى كل مرحلة
لا تستقلُّ بها الوَخّادة الرُّسُمُ .

ثم يبدو فى صورة المهدد ، ولكنه تهديد أدنى إلى التحريض والإغراء حين يقول :

لئن تَرَكْنَ ضُمَيراً عن مَيامنِنا
لَيَحْدُثَن لمن ودّعتهم ندم .

وإننا لنلمس ذلك الرفق فى التهديد فى تذكير سيف الدولة بما سيحدث له من ندم إذا فارقه أبو الطيب . إن الزاهد الغاضب لا يقف ليقول : هيا استبقونى قبل أن تفوت الفرصة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين .

ثم لنتدبر الرفق واللين اللذين يشعان فجأة فى لفظ «لمن ودّعتهُم» . ولو أن المتنبي كان جادا فى رغبة الفراق ساعتئذ لما ترفق باستعمال هذا اللفظ ، وقد كان له عنه مندوحة فى مثل «لمن فارقتهم» أو «غادرتهم». فإن أردنا ما هو أدل على ذلك الرفق وأوضح فى استجلاء شعور أبى الطيب فى هذه اللحظة التى تخاذل فيها ، فلنستمع للبيت التالى :

إذا ترحّلتَ عن قوم ، وقد قدروا
ألا تفارقهم ، فالراحلون هُمُ .

وأشهد أن هذا من أصدق ما قاله الشعراء ، وإنه ليشف عما تنطوى عليه نفس الشاعر فى هذه الآونة من رغبة قوية فى أن يستبقيه سيف الدولة ، غير أنه — كعادته — ينقلب وشيكا ، ويغضب سريعا ، ويكاد ينقم من نفسه ما فرّط منها من الملاينة ، فيأبى إلا أن يعود إلى الجفوة فى التعبير فيعلن :

شرُّ البلاد بلاد لا صديق بها ،
وشر مايكسِبُ الإنسان مايَصِمُ .

وتعود إليه صورة حساده ، ويؤلمه تسويته بهم ، وكأنما يريد أن يملى شروط الصلح على سيف الدولة إن هو أراد استبقاءه : وهى ألا يسوّى بينه وبين سَقَط المتاع ، من زعانف الشعراء ، فيقول :

وشرُّ ماقَنَصَتْه راحتى قَنَصٌ
شُهْبُ البُزاة سواء فيه والرَّخَمُ

بأىِّ لفظ تقول الشعر زِعْنِفة
تجوز عندك ، لا عُرْب ولا عجم ؟

ثم يحاول — كما قلنا من قبل — أن يصلح ما أفسده ، فيسمى كل ما تقدم ، من لين وضعف ، ولوم وتقريع ، عتابا بل مِقَةً ومحبة ، غير ناس نفسه وقدره ، فيصف ذلك العتاب بأنه كلام قد ضُمِّن الدرَّ :

هذا عتابك ، إلا أنه مِقَةٌ
قد ضُمِّنَ الدرَّ ، إلا أنه كَلِمُ

كأن مجرد هذه التسمية يغير من طبيعة ما ساقه فى هذه القصيدة !

والحق أن المتنبى لم يكن فى موقف اعتذار أو عتاب ، ولا فى موقف مدح ، بل لم يكن فى موقف فخر خالص ، وإنما كان خاضعا لمجموعة معقدة من الوجدانات تعتوره فى وقت واحد أو لحظات سريعة متلاحقة . مما أخرج لنا هذا المزيج العجيب فى هذه القصيدة التى ظلت أكثر من ألف سنة وهى تثير إعجاب القارئين ، وقلَّ من تلمس ما وراء شاعريتها البارعة من نفسية مضطربة متوثبة .

ولكى يتجلّى لنا مبلغ صدق ما نقول يكفى أن نضاهى هذا العتاب المعقد بعتاب آخر للمتنبى ، قاله لسيف الدولة كذلك ولكنه كان فى حالة نفسية تختلف عن حالته السابقة :

ألا ما لسيف الدولة اليومَ عاتبا ؟
فداه الورى أمضى السيوفِ مضاربا .
ومالى إذا ما اشتقتُ أبصرت دونه
تنائفَ لا أشتاقها وسَباسبا !
وقد كان يُدْنى مجلسى من سمائه
أحادث فيها بدرها والكواكبا .
حَنَانَيْكَ مسئولا ، ولبيكَ داعيا ،
وحَسبي موهوبا ، وحسبُكَ واهبا !
أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقا ؟
أهذا جزاء الكِذْب إن كنت كاذبا ؟
وإن كان ذنبى كلَّ ذنب فإنه
محا الذنبَ كلَّ المحو من جاء تائبا .

إن فى هذا أدبا رفيعا ، ورقة لا تشوبها الكبرياء ، وتواضعا لا يبدو الصلف من خروق قناعه : هنا نجد المتنبى عاتبا كما نفهم العتب ، لا يَتنفّس على وليه المكارم يقاسمه إياها ، أو يدعيها كلها لنفسه ؛ ولا يضن عليه بالمنزلة اللائقة به ، بل يقف منه حيث يشعر كل إنسان بأنه مخطىء تائب ، وبأنه يتطلع إلى صَفْحِه ورفع منزلته مما انحدرت إليه .

فسيف الدولة هنا عاتب ، لا متجن ولا ظالم لا يرجى عدله ؛ وسيف الدولة هنا يشتاق المتنبى لقاءه بدلا من أن يكون زاهدا فى مصاحبته ، والتنائف والفلوات التى تتراءى للمتنبى هنا تتراءى له بينه وبين سيف الدولة الذى يجعلها فاصلة بينهما ، ويشتاق المتنبى اجتيازها ليصل إليه ، وليست المفاوز التى كان يراها المتنبى موصلة لخصم سيف الدولة (كافور) ، يهدد باجتيازها ليفارقه ويخلص من صحبته ؛ وسيف الدولة هنا بدر فى سمائه ، وحوله

كواكب يتطلع المتنبي إلى الصعود إليهم ليحادثهم ، وليس المتنبي هنا هو الثريا التي لا ينالها شيب العيب ولا هرم النقصان ؛ وليس سيف الدولة وندماؤه هنا هم أولئك الذين كان يجمعهم المتنبي فى غير استحياء ولا تجمّل حين يقول :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم .

وسيف الدولة هنا يُسترحم ويلبي ، ويُشكر واهبا ، لا يُعنَّف متعنتاً ، باحثا عن عيب للمتنبي ، متعقبا لهفواته ، مخفقا فى العثور عليها ؛ والمتنبي هنا خاضع معترف تائب ، فحسبه — مهما يكن ذنبه — أن يأتي تائبا ، وليس متسخطا متمـلملا يعجب من أن سيف الدولة لم يقاسمه عواطفه ، ولم يبادله احترامه ، فيجأر من قلب شَمّ لقلب نابض بالحب ، وينادى بحقه فى التكريم ممن لم يكن أمره من أمره أمما ، ويصرخ بالشكوى ممن لم يرع المعارف فى أهل النهى .

ألا إن هنالك فرقا عظيما بين ما يمكن أن نلخص به عتابه الأول فى قوله :

شر البلاد بلاد لا صديق بها ،
وشر مايكْسِب الإنسان ما يَصِمُ .

وما يمكن أن نلخص به عتابه الثانى فى قوله :

وإن كان ذنبي كلَّ ذنب فإنه
محا الذنبَ كلَّ المحو من جاء تائبا .

ثم لننظر فى عتاب آخر قاله المتنبي لسيف الدولة كذلك ، على إثر تأخره عنه فى مدحه ، وظنه أنه كان عاتبا ، ولكن المتنبي لم يكن هنا حانقا ، كما كان حانقا فى عتابه الأول ، ولهذا جاء عتابه هنا سهلا سمحا ، خاليا من السب ، أليَقَ بمقام العتب :

بأدنى ابتسام منك تحيا القرائح ،
وتقوى من الجسم الضعيف الجوارح ،
ومن ذا الذى يقضى حقوقك كلها ؟
ومن ذا الذى يُرْضِي سوى من تسامح ؟
وقد تقبل العذر الخفى تكرّما ،
فما بال عذرى واقفا وهو واضح !
وإن مُحالا — إذ بك العيشُ — أن أُرَى
وجسمك معتلٌ وجسمي صالح ؛
وما كان تَرْكِي الشعر إلا لأنه
تُقصِّر عن وصف الأمير المدائح .

ألسنا نشعر برقة تنساب فى هذه الأبيات انسيابا ، وتلطف فى التعبير ، بل لطف كريم لم ينزل إلى حضيض الملق ، ولكنه لم يتشبث بالغطرسة ؟ فأبو الطيب هنا لا يتقاضى سيف الدولة المساواة التى يطلبها الند من الند حين يقول له :

وبيننا — لو رعيتم ذاك — معرفةٌ
إن المعارف فى أهل النهى ذِمَم .

ولكنه يقنع بفضل عطفه ، ويرضى منه بأدنى ابتسام :

بأدنى ابتسام منك تحيا القرائح ،
وتقوى من الجسم الضعيف الجوارح .

وهو لايرى لنفسه حقوقا لدى سيف الدولة يقرّعه على عدم أدائها ، ويتهمه بأنه ينتقصها ليمنحها من لا يستحقونها ، كما قال له قبلا :

إن كان يجمعنا حب لغرّته
فليت أنّا بقدر الحب نقتسم !

وهو هنا لا يعرض به بأنه خصم وحكم ، وبأنه خصم خصيم ، وحكم ظلوم ، كما قال له فيما سبق :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى .
فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم .

وهو هنا لا يصارحه بأن ظلمه حول غيث سحابه إلى خصومه ، وأنزل به هو صواعقه ، كما صارحه بذلك حين قال له :

ليت الغمامَ الذى عندى صواعقُه
يزيلهن إلى من عنده الدِّيَم !

وإنما يرى هنا أن سيف الدولة هو صاحب الحقوق عليه ، وأنه (أى المتنبى) لا يستطيع أن ينهض بأداء كل تلك الحقوق وأنه لا سبيل لتأدية جميع هذه الحقوق ، إلا إذا تسامح الأمير فى بعض حقوقه :

ومن ذا الذى يقضى حقوقك كلها
ومن ذا الذى يُرْضِى سوى من تسامح ؟

وليس سيف الدولة هنا عيَّابا باحثا عن النقائص ، يطلب لأبى الطيب عيبا فيعجزه ذلك ، بل هو سمح يقبل العذر الخفىّ ، فأجدر به أن يقبل عذر أبى الطيب وهو واضح جلىّ :

وقد تقبل العذر الخفىّ تكرّماً ،
فما بال عذرى واقفا وهو واضح !

وليس سيف الدولة شخصا يتلمس أبو الطيب مفارقته ، ولو اقتضاه هذا البعد كل مرحلة لا تستقلّ بها الوَخّادة الرُّسُم ؛ وليست دولته شر البلاد لأنه لاصديق له بها ؛ وإنما هو شخص لا يستطيع المتنبى أن يعيش إلا به ، بل إن من المحال ألا يتأثر بما يتأثر به من ألم :

وإنّ مُحالا — إذ بك العيش — أن أُرَى
وجسمك معتلّ وجسمىَ صالح .

وليس فتور المتنبى عن مدح سيف الدولة راجعا إلى أن شعره أسمى من أن يتقدم به إلى من يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، ومن لا ينتفع بناظره ، فتستوى عنده الأنوار والظلم ، ومن لا يفرق بين شعر الزعانف الذين ليسوا عربا ولا عجما وشعر الأستاذ الذى يقول الكلم فيضمّنه الدر ، وإنما يرجع ترك المتنبى لمدح سيف الدولة هنا إلى أن المدائح تقصر عن مدحه :

وما كان تَرْكِيَ الشعرَ إلا لأنه
تقصّر عن مدح الأمير المدائح !

وكان ترك الشعر مأساة مكررة ، يغضب لها سيف الدولة ، ويُرْضِى بها المتنبى كبرياءه ، ثم تنتهى بقصيدة

قد تكون كما رأينا هنا عتبا ، وقد تكون مأساة أشد من ترك الشعر ، وقد تكون مزيجا من العتب والفخر .

ولننظر الآن فى قصيدة أخرى اعتذر فيها المتنبى لسيف الدولة اعتذارا جمع بين رقة الاعتذار وعزة النفس .

فقد تأخر مدح أبى الطيب عن سيف الدولة — كالعادة — فعاتبه مدة ، ثم لقيه فى الميدان ، فرأى منه المتنبى انحرافا عنه ، وأنكر المتنبى تقصير سيف الدولة فيما كان عوّده من الإقبال عليه ، والسلام عليه ، فعاد إلى منزله وكتب له قصيدته التى مطلعها :

أرى ذلك القربَ صار ازورارا ،
وصار طويل السلام اختصارا .

وهو عتب رقيق يزداد رفقا ولينا فى البيتين التاليين :

تركتنىَ اليوم فى خَجْلة ،
أموت مِرارا وأحيا مرارا ؛
أسارقك اللحظَ مستحيياً ،
وأزجر فى الخيل مُهْرِى سِرارا

لكن ينقلب فى البيت التالى إلى عزة ، ولكنها عزة كريمة تلفّها براعة المتنبى فى شاعرية لبقة تكاد تسترها لأنه يقول : إنما يعتذر المجرم، فإذا اعتذرت إليك من غير جرم كان اعتذارى فى احتياج إلى اعتذار ، لأنه لا سبب له ولا مسوغ :

وأعلمُ أنى إذا ما اعتذرت
إليك أراد اعتذارى اعتذارا .

وهو يعلن أن الجفوة وتأخره عن مديحه لم يكن أمرا اختاره المتنبى ، وإنما هو اضطرار سِيق إليه ، ويؤكد ذلك بأنه لو كان تأخره عنه اختيارا لكان ذلك كفرا بأيادى سيف الدولة الباهرة .

كفرتُ مكارمَك الباهرا
تِ إن كان ذلك منى اختيارا ،

ثم تنتاب المتنبى نوبة الفخر ، تنازع شعوره الخجل والميل إلى الاعتذار ، فتخرج لنا عبقريته من كل ذلك مزيجا عجيبا ، نخاله أرضى سيف الدولة ، ولا نشك فى أنه أرضى المتنبى :

ولكن حَمَى الشعرَ ، إلا القليـ
ل ، هَمّ حمى النوم إلا غرارا .

ونبحث عن مصدر ذلك الهمّ الذى حجب النوم ، إلا قليله ، عن عيون المتنبى ، كما حجب الشعر ، إلا قليله ، عن آذان سيف الدولة ، فلا نعثر عليه إلا فى لفظ غامض ، يستتر وراءه المتنبى : فهو أولا ينفى عن نفسه أنه سبب ذلك الهم :

وما أنا أسقمتُ جسمى به ،
ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

ثم ينتقل بعد هذا التمهيد إلى إلصاق التهمة بالدهر المسكين، الذى ينبغى أن يكون دائما كبش الفداء مع كل شاك لا يستطيع (أولا يريد) أن يحدد بالدقة مصدر آلامه :

فلا تُلزِمَنّى ذنوب الزمان ،
إلىّ أساء ، وإياىَ ضارا .

وكأنما شعر المتنبي عندئذ أنه أبرأ نفسه من كل ما عليه من دين المسئولية ، فتشجع ولمّ أذيال الخجل التي كان يتعثر فيها منذ قليل ، وانتقل من الاعتذار إلى الفخر ، فأخذ يذكر سيف الدولة بأياديه البيضاء عليه — أيادى أبي الطيب البيضاء على سيف الدولة — نعم ، أما أيادى سيف الدولة على المتنبي فقد انقضى ذكرها في أول القصيدة ، عندما كان يرزح تحت عبء الخجل ، ويحاول التنصل من الذنب فيقول:

كفرتُ مكارمَكَ الباهرا
تِ إن كان ذلك مني اختيارا ،

أما الآن فلم يبق له إلا أن يذكر له فضله عليه ، كأنما يريد أن يقول له : حسبك ما قلتُ فيك من القصائد السائرات التي لا تقف عند حدود الأقطار ، بل تثب الجبال وتخوض البحار :

وعندى لك الشُّرُدُ السائرا
تُ لا يختصصْنَ من الأرض دارا :
قَوافٍ إذا سِرْنَ عن مِقْوَلى
وثَبْنَ الجبال وخضن البحارا .

ويزداد المتنبي زهوا وإعجابا بنفسه ، فيسمح للسانه أن يقول ما هو أقرب إلى المنّ والأذى منه إلى الترضية والإطراء :

ولى فيك ما لم يَقُلْ قائل
وما لم يَسِرْ قمرٌ حيث سارا .

ولكنه يشعر بأنه نسى في كل ذلك سيف الدولة ، وأنه شغل نفسه ، وشغل سيف الدولة ، بالثناء على شعره ، وإطراء مواهبه ، فيلتفت إليه التفاتة مفاجئة ، لا تجد لها صلة بما قبلها من الأبيات ، ولكنها الصلة الخفية التي لا يشرحها إلا محاولة الوقوف على ما كان يجرى في نفس أبي الطيب من الانفعالات المتضاربة المتلاحقة :

فلو خُلِقَ الناسُ من دَهْرِهم
لكانوا الظلام ، وكنت النهارا ،

أية علاقة بين ما كان يتكلم عنه أبو الطيب من وصف قصائده الشُّرُد الجوّالة في آفاق الأرض ، التي لم يقل مثلها قائل ، وبين أن سيف الدولة كالنهار وسط ظلام الناس ؟

لكأنه يريد أن يقول له : إن كنت تريد برهانا جديدا على مقدرتي على مدحك بشرط ألا تنسى ما أسجله عليك من فضل مديحي السابق فها كه في بيتين اثنين ، يتلوهما بيتان آخران ، يقاسم فيهما أبو الطيب سيف الدولة ما تضمناه من مدح ، أما البيتان الأولان فهما :

فلو خُلق الناسُ من دهرهم
لكانوا الظلام ، وكنتَ النهارا ،
أشدُّهُم في الندَى هِزَّةً
وأبعدهم في عَدُوٍّ مُغارا .

وأما البيتان الآخران فهما :

سما بك هَمِّيَ فوق الهموم
فلست أعدّ يسارا يسارا ؛
ومن كنتَ بحرا له يا علىّ (م)
لم يقبل الدرّ إلا كبارا .

وكما كان أبو الطيب يُدِلُّ على سيف الدولة ، فينقطع عنه بشعره ، كان يفعل ذلك مع غيره ممن اتصل بهم من الأمراء والحكام قبله وبعده .

فقد عاتبه مرة الأمير أبو محمد الحسن ابن عبيد الله بن طُغْج على تركه مدحه ، فاعتذر له فى سماحة ولباقة تشبهان ما رأيناه فى القصيدة التى انتهينا من تحليلها ، إذ قال له :

تَرْكُ مدحيك كالهجاء لنفسى ،
وقليلٌ لك المديح الكثير ؛

غير أنى تركت مُقْتَضَبَ الشعر (م)
لأمر مثلى به معـذور ؛

وسجاياك مادحاتُك ، لا لفظى ، (م)
وَجودٌ على كلامى يُغير

فَسَقَى الله من أحب بكفَّيكَ (م)
وأسقاك أيهذا الأمير

أما السماحة فتتجلى فى الاعتراف بأن انقطاعه عن مديح أميره بمثابة هجائه لنفسه ، وأنه لا يستكثر عليه شعره ، بل إن كثير المديح قليل بالنسبة له :

ترك مَدْحيكَ كالهجاء لنفسى ،
وقليل لك المديح الكثير .

وأما اللباقة فتتشكل بشكلين ، كلاهما أصيل عند المتنبى : أحدهما اللباقة الشعرية ، التى تنطقه بالفكرة التى تصرف المرء عن شكواه ، بما فيها من براعة تكاد تصل إلى حد السفسطة ، ولكن تصوغها الصورة الباهرة ، فى العبارة المعبرة ، فهو يقول له :

إنه (أى الأمير) فى غنى عن مدحه ، لأن سجاياه هى التى تتولى مدحه ، لا ألفاظ المتنبى ، وكذلك جوده الذى يتضاءل أمامه شعره :

وسجاياك مادحاتك ، لا لفظى ، (م)
وَجودٌ على كلامى يُغير

بالضبط كما قال لسيف الدولة ليصرفه عن شكواه من تقصيره فى إنشاد شعره :

وما كان تركيَ الشعرَ إلا لأنه
تقصر عن وصف الأمير المدائح

أما الشكل الثانى الذى تتشكل به لباقته فهو ما أسميه لباقة الغموض الذى يستتر وراءه المتنبى فى الاعتذار عن تأخر مدائحه ، فهو لا يصرح بالسبب الحقيقى الذى حجزه عن مدح وليه ، ولعله كان على حق فى الاتجاه إلى هذا الغموض ، فربما كان إعلان السبب الحقيقى عذراً أقبح من الذنب ، ولذلك يكتفى المتنبى بأن يقول : إننى تركت الشعر لعذر يقبل من مثلى :

غير أنى تركت مقتضَبَ الشعر (م)
لأمر مثلى به معذور

ونبحث عن ذلك الأمر ، فلا نجد له صدى يتردد . كأنما يكفى أن يعلن المتنبى أنه يعذر نفسه فيعذره الناس ، لقد قال مثل ذلك لسيف الدولة ، حينما أعلن أن

عذره ، واضح ، ولم يزد على ذلك إلا تعجبه من أن سيف الدولة لم يقبله على الرغم من وضوحه :

وقد تقبلُ العذرَ الخفيّ تكرّما
فما بال عذرى واقفا وهو واضح؟

كما سبق أن قال فى قصيدة أخرى : إنه لم يكن مختارا فى تأخره عن مدح سيف الدولة ، وإنما اضطر إلى ذلك اضطرارا ، وهو لا يذكر سبب ذلك الاضطرار إلا فى عبارة غامضة كذلك ، هى أنه كان لديه همّ حمى الشعرَ إلا القليل ، كما حمى النوم إلا غرارا :

كفرتُ مكارمَك الباهرا
تِ إن كان ذلك منى اختيارا
ولكن حمى الشعرَ إلا القليـ
لَ همّ حمى النومَ إلا غرارا

ولعلّ أرق عتاب نطق به أبو الطيب هو تلك الأبيات التى قالها حين غضب عليه أبو العشائر ، على إثر سماعه لقصيدته التى بدأنا هذه المقالة بتحليلها :

* واحر قلباه ممن قلبه شبم ! *

وكان حاضراً مجلس سيف الدولة ، فتأذّى بتعريض المتنبى ببعض بنى حمدان ، أبناء عم سيف الدولة ، فأرسل أبو العشائر بعض غلمانه ليوقعوا به ، فلحقوه بظاهر حلب ليلا ، فرماه أحدهم بسهم قائلا : خذه ، وأنا غلام أبى العشائر . فقال المتنبى :

ومنتسبٍ عندى إلى من أحبه ،
وللنّبل حولى من يديه حفيف؛
فهيج من شوقى ، وما مِن مذلة
حننتُ ، ولكن الكريم ألوف ؛
وكل وداد لايدوم على الأذى ،
دوامَ ودادى للحسين ، [ضعيف
فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا
فأفعاله اللائى سررن ألوف
ونفسى له ؛ نفسى الفداء لنفسه ،
ولكن بعض المالكين عنيف ؛
فإن كان يبغى قتلها يك قاتلا
بكفيه ، فالقتل الشريف شريف .

فهنا يرق رقة الأصدقاء الأوفياء الذين لا يغيرهم غدر ، ولا يحد من شوقهم خوف الظهور بالمذلة ، فإنّ الكريم ألوف . وهو يعلن أن الود الذى لا يدوم على الأذى كدوام وداده لأبى العشائر ود ضعيف .

وهو لا يريد أن ينسيه غضبه — افعل سيء واحد — ألوف الأفعال السارة التى سبقته ، ثم هو يعلن أن نفسه ملك لأبى العشائر ، وإن كان بعض المالكين عنيفا . وهو تقريع لا نستطيع أن نعترض عليه ، بل هو أرق صورة لتقريع فى مثل هذا المقام . فإذا كان أبو العشائر يبغى قتله فليقتله بيده ، لا بيد غلمانه ، فقتل الشريف شريف .

وبعد فقد أكون قد قسوت على المتنبى ولكن هذا ما وسعنى جهدى من الرأى فإن أكن قد وفقت فيه فالحمد لله ، وإن أكن قد جاوزت الصواب فمعذرة لشاعرنا أبى الطيب .

محمد مهدى علام
نائب رئيس مجمع اللغة العربية

بين القرآن والنحو

للأستاذ على النجدى ناصف

دعا مجمع اللغة العربية فى مؤتمر العام الماضى إلى محاضرة عامة يلقيها الأستاذ شوقى ضيف عن « تيسير النحو » ، وقد خف لشهود المحاضرة والاستماع لها جمهرة من العلماء ، وعنى جمع منهم بالتعليق عليها ، فكان مما علق به عليها دعوة إلى نحو يستمد أحكامه من القرآن الكريم .

وما من دعوة إلى عمل يقوم على أساس من القرآن ، أو يأخذ منه بسبب ، أو يكون منه على حرف إلا قوبل بالترحاب وحسن القبول ، تيمنا بالقرآن ، وتساميا إليه فى أفقه الأعلى .

ولعل مما يزيد هنا من الارتياح لهذه الدعوة أن النحو فى جفائه وعبوسه حقيق أن يفيد من القرآن فى سماحته وإشراق ديباجته ، فإذا هو ألين جانبا وأخف محملا .

ومهما يكن من أمر فإن الدعوة إلى نحو آخر يؤخذ من القرآن حرية أن تظفر بحظها المقدور من الحفاوة والحد لأنها دعوة إلى جليل من الأمر ، فمكان النحو بين علوم العربية مكانه الرفيع لا يتسامى غيره إليه . ولعلى إذ أقبل عليها فأدرسها ، وأرى رأيا فيها أن أكون أديت لها واجبا ، وشاركت فى العمل لها بنصيب :

والنحو الذى تعنيه هذه الدعوة هو —بلا مراء— نحو للعربية كلها لا نحو للقرآن من بينها ، لأن النحو المستمد منه سيقوم مقامه منها ، ويغنى غناءه فيها . أما نحو القرآن فإنما هو للقرآن وحده والقرآن نص فيها وليس بها كلها فى اتساع آفاقها وتعدد فنونها .

والنحو حين كان يسترفد اللغة إبان نشأته لإقامة القواعد وتقرير الأحكام لم يكن يقتصر فى هذا على نوع منها ولا فن من فنونها ، ولكنه يستوعبها طلبا واقتضاء ، سواء عليه جد القول وهزله ، وشريفه ورذله . وهو — لا محالة — وجد من كل أولئك حاجته ، عند اللغة . أليست هى ترجمان

(*) تلا البحث الدكتور مهدى علام فى الجلسة العاشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين نيابة عن المرحوم الأستاذ على النجدى ناصف فى ٨ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٣ من مارس ١٩٨٢ م .

الحياة ومرآتها بكل ما يضطرب فيها من شئون ؟

وتحتوى اللغة فيما تحتوى على ضروب من الأساليب كثيرة ،لها فى صنع النحو وإقامة بنيته عمل غير منكور ، بفضل ما أودعت من حقائق غُفُل ، لها ذكر فى أبواب شتى من النحو لهذا يحرص النحاة عليها ويحتفون بها ، يعرضونها فى كتبهم ليديروا عليها بحوثا ويتخذوا منها شواهد وحججا .

وقد اخترت بعضا من أكثرها شيوعا ثم رحت أفتقد لها نظائر فى القرآن الكريم فلم أعثر لها على أثر فيه . وهذه هى : أسلوب المنادى الشبيه بالمضاف ، وأسلوب الاستثناء بغير إلا وغير ، وأسلوب التنازع الذى أعمل فيه العامل الأول ، وأسلوب الاشتغال الذى يقع فيه المشغول عنه بعد أداة مختصة بالدخول على الفعل ، وأسلوب حذف خبر المبتدأ حين تغنى عنه حال لا تصلح أن تكون خبرا له .

وكنت أود لو أتيح لى أن أعرض هذه الأساليب ومع كل أسلوب شواهده المتعددة من نظم القول ومنثوره ، لكن منع من ذلك اتقاء الإسهاب وما يُعقب من ملال .

وليس للقرآن قراءة واحدة يقرأ بها ولكنه يقرأ بقراءات كثيرة ومتنوعة ، ولم يكن بد من كثرتها وتنوعها ، لأن القرآن إنما أنزل فى أمة كانت قبائل شتى ، ولكل قبيلة لهجتها الخاصة ولم يكن الرسول - صلوات الله عليه - يلتزم القراءة بلهجة واحدة لئلا يشق على أصحاب اللهجات الأخرى . وتابعه على ذلك أصحابه والتابعون ، ثم أخذ عنهم قراء ثقات مأمونون ، يتعلمون ويعلمون . ومضى الأمر على هذا النحو كلما مضت منهم طائفة خلفتها أخرى ، تحمل الرسالة ، وتؤدى الأمانة على مر الزمان .

ويتنوع الخلاف فى القراءات تنوعاً كثيرا ، فخلاف فى حركات الإعراب كالذى فى قوله تعالى : (من يضلل الله فلا هادى له ،ويذرهم فى طغيانهم يعمهون)[1]. قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر : (ونذرهم) بالنون والرفع ، وقرأ أبو عمرو :(ويذرهم) بالياء والرفع ، وقرأ حمزة والكسائى : (ويذرهم) بالياء والجزم .

وخلاف فى بنية الكلمة وحركاتها كالذى فى قوله تعالى : (وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون)[2] فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة الكسائى (بئيس) على وزن فعيل، وقرأ نافع (بيس) بكسر الباء من غير همز ، وروى عن نافع (بَيْسٍ)، بفتح الباء من غير همز على وزن فَعْل ، وقرأ ابن عامر (بِئْس) على وزن

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٦ والقراء السبعة : ٢٩٨

(٢) سورة الأعراف ١٦٥ ، والقراء السبعة : ٢٩٦

فِعْلُ مع الهمز ، وقرأ عاصم (بَيْئَس) على وزن فيعل .

وهناك خلاف فى الهمز بالتسهيل والتحقيق وبنقل الحركة وإقرارها . وخلاف فى الياءات فى أواخر الكلمات ، إثباتا وحذفا وتسكينا وتحريكا ، إلى ضروب أخرى فى الوصل والسكت والإدغام والفك . وهكذا ولا يعلم إلا الله هل يمكن أن يستجيب القرآن مع هذا الخلاف لنحو جديد ؟ ومعلوم أن تخالف الأصول يفضى إلى خلاف فى الفروع .

ولا يحدث الخلاف فى حركات الإعراب تغييرا فى معنى اللفظ المقروء ولا الألفاظ التى لها به صلة من صلات نظم الأسلوب فهذا قول الله —سبحانه — يصف مكر الذين ظلموا أنفسهم ، ويضرب قدرة مكرهم على إزالة الجبال مثلا لتفاقمه ، فيقول : (ومكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال)[1] .

قرأ الكسائى قوله : (لتزول) بفتح اللام الأولى ورفع الثانية ، فتكون (إن) هى المخففة من الثقيلة ، واللام الأولى هى الفارقة بينها وبين النافية . والمعنى على إثبات شدة مكر القوم . وقرأ سائر القراء (لتزول) بكسر اللام الأولى ، ونصب الثانية فتكون (إن) هى النافية فى أسلوب الجحود ، مثلها كمثل (ما) فى ذلك ، وتزول منصوب بأن مضمرة بعد اللام . والمراد بالجبال هنا آيات الله وشرائعه. والمعنى أن مكر القوم —وإن كان قادرا على إزالة الجبال — عاجزعن إزالة آيات الله وشرائعه . لأنها أرسخ من الجبال رسوخاً وأشد تمكنا[2] ، فليس ثمة خلاف إذن فى معنى الآية فى القراءتين .

وربما أثار الخلاف فى حركات الإعراب خلافا بين أئمة النحو ، لا فى الإعراب وحده ولكن فى الحكم الذى يستند إليه أيضا ، كالخلاف فى قراءة كلمة(الأرحام) من قول الله عزوجل: (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام)[3] ، قرأها حمزة بالجر عطفا على الضمير فى (به) من غير أن يعيد معها حرف الجر وهو حكم يجيزه الكوفيون ، ويعارضه البصريون فى ملحمة حامية من الخلاف بين المدرستين .

وفى القرآن كذلك آيات مشكلة الإعراب ولم يفت قدامى النحاة أن ينظروا فيها على نور من النحو المأثور ، فَمَهَّدُوا فيها إلى آراء رضوا عنها ، واطمأنوا إليها ومن هذه الآيات قول الله تعالى :(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[4] فرفع (الصابئون) وهو فى موقع معطوف على منصوب مشكل ، وقد ذهبوا فيه إلى أنه مبتدأ حذف خبره ، وقدر تأخيره عن اسم (إن) وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى (حكمهم كذا . . .) (الصابئون) كذلك .

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٦
(٢) الكشاف : ١ : ٥٠٩
(٣) سورة النساء : ١
(٤) سورة المائدة : ٦٩ ، والكشاف : ١ : ٢٦٧

ومنها قوله تعالى (رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين)[1] فعطف أكن بالجزم على «فأصدق» بالنصب مشكل كذلك ، فجعل العطف على محل فأصدق مع تقدير سقوط الفاء ، كأنه قال : إن أخرتنى أصدق وأكن وربما سبق إلى الخاطر أن من الممكن تقليل الخلاف فى قراءة القرآن إذا نحن اقتصرنا فى تلاوته على القراءات السبع ، وهى ما هى بين القراءات ، قوة سند وصحة لغة لرسم المصحف . وقد ألف ابن مجاهد فيها كتابا جليلا وقد حققه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، فأحسن تحقيقه وأصبح الاعتماد عليه فى القراءات السبع أمرا ميسورا .

ونحن إذ نرجع إلى هذا الكتاب نستلهمه الرأى نرى الخلاف فيه بين السبعة كثيرا متشعبا يمنع القرآن أن يستجيب لوضع نحو منه. بل إننى لا أبالغ إذا قلت : إن وضع النحو من القرآن فى قراءة واحدة ، سبعية أو غير سبعية أمر غير ميسور أيضا ، فكثيرا ما يخالف القارئ نفسه فى القراءة ، فيقرأ فى موضع أو مواضع بقراءة ، ثم يقرأ بغيرها فى موضع أو مواضع أخرى .

فهذه آية (كن فيكون) مثلا ، لقد ذكرت فى القرآن إحدى عشرة مرة ، فقرأها ابن عامر بنصب (فيكون) ست مرات ، وقرأها بالرفع فى الخمس الباقية[2] بل ربما وقع الخلاف فى قراءة لفظ واحد فى سورة واحدة فنافع وابن كثير يقرآن لفظ (الداعى) بغير ياء فى قوله سبحانه : (يوم يدع الداع) فى الآية السادسة من سورة القمر ، ويقرآنها بياء فى قوله : (مهطعين إلى الداع)[3] فى الآية الثامنة فى السورة نفسها ، ذلك لأن القراءة سنة متبعة ، تؤخذ رواية وسماعا ، لا قياسا وتطبيقا .

إننا حين تمنينا على الله أن يجعل لنا من القرآن نحواً لم نطلب الأمر من مأتاه الأصيل لأن القرآن ليس كتاب لغة ، ولكنه دستور حياة ونبراس هداية . وقد مضت سنة الله فى خليقته أن يأخذها بقانون التخصص ، كل فيما هو ميسر له ، فجعل لكلٍّ نصيبا من تكاليف الحياة ، هو فيه أصيل ، وبه موكل ، وله مهيأ .

وأيما عمل قد يصلح له ، ويشارك به مما ليس من همه — فهو منه نافلة ، يحفظها ويثاب عليها .

فلندع القرآن الكريم إذن بمكانه من الأفق الأعلى ، بين الطهر والإجلال والتقديس ، ولنعد إلى النحو ، لانعيبه ونستعدى عليه فقد فعلنا من ذلك كثيرا ، وأبلينا فيه بلاء الحد والوفاء ، ولكن نعود إليه لنجعل

(١) سورة المنافقون : ١١ (٢) اتحاف فضلاء البشر : ٨٩]
(٣) كتاب السبعة : ٦١٧

من حفاوتنا به وجهادنا فيه حفاوة بلغة الثقافة وجهاداً فيما تزخر به من كنوز المعرفة الكريمة فى ماضيها الغابر وحاضرها الماثل .

فلنجمع لها أمرنا إذن ، ولنقبل عليها نبعثها من مرقدها ناضرة ندية ، وننشرها فى الناس دانية الثمار ، ميسرة الأسباب ، لا نبخل بها على أحد من أبنائها ، ولا ننسى فى هذه العزمة المباركة إن شاء الله أن ثمة آفتين ملعونتين تتربصان بها ، ولا أرى بعيدا — إن غفلنا عنهما أو قصرنا فى القضاء عليهما — أن تفسدا علينا أمرنا ، وأن تجعلا من جهادنا فيه عملا ضائعا وعبثا فارغا .

وأعنى بالآفتين « الأمية والعامية » — أعاننا الله عليهما — فالأمية سمة التخلف ، ومباءة الجهالة وعار الأمم . والعامية وباء شره مستطير ، ومصاب الثقافة منه عظيم . فعلينا بهما نستنقذ الحياة الفاضلة من وبالهما ، غير وانين ولا مقصرين .

لقد صبرنا على العامية طويلا ، وسكتنا عنها كراما ، فنمت وازدهرت وراحت تزاحم الفصحى ، وتنازعها القول فى كل مقام للكلام فيه مجال ، حتى أصبحت لغة التدريس والمحاضرة ، ولغة الإعلام والتوجيه ، ولغة السياسة والأدب ، بها تكون الخطابة فى الشئون العامة والمطالب الكبرى لا يكاد يعدل عنها إلى الفصحى الخالصة إلا نادرا .

ولقد خيل إلى حماة العامية ونصرائها أنهم قادرون على إعلاء شأنها ونفى الشين عنها إذا هم بدلوا بأسماء بعض معالمها أسماء من بعض معالم الفصحى ، فسموا الزجل شعرا ، والزجال شاعرا ، كأن الأسماء فى رأيهم تعمل عمل أصحابها فى كل ما يبغون منها أن تكون .

وهذه المنظومة — التى يسمونها النشيد القومى — قد حلت فى غفلة الزمن محل نشيد كريم فهى تنشد فى المحافل والمناسبات ذات الشأن برغم ما يعيبها من عامية ، وتحريف ، واضطراب فى الوزن .

وقد تقدمت فى مؤتمر العام الماضى أوصى بها أن تعرض على شاعر من شعرائنا المكرمين ليقوم عوجها وينفى معايبها إذا كان حتما أن نُبقى عليها ، لا نبغى بها بدلا من الأناشيد التى نظمها بعض شعرائنا المقدمين ، مثل نشيد شوقى ، أو الرافعى ، أو العقاد .

غير أن العامية حمتها ، وأبت إلا أن تظل على حالها خلقاً سقيما ، ولم لا ؟ أليست هى لغة العلية وأصحاب الجاه ، لا يمتنع عليها مطلب ولا يُمس فى حماها مستجير ؟

أما بعد ، فإنى أعتقد أن الله تعالى إذ يرضى عن مسعانا للثقافة ، وإذ يقدر له أن يؤتى ثمره المرجى ، نشراً للثقافة ، وتمكينا لها . نكون يومئذ بمطلع عصر مزهر ، تتفتح فيه القلوب وتهذب الأذواق ، وترق المشاعر وتذب الألسنة . ويومئذ تخف مئونة النحو ويصبح فى القليل الصالح منه كفاية وغناء .

على النجدى ناصف
عضو المجمع

التراث اللغوي وكلمة "حتى" عندنا وعند غيرنا

للدكتور عمر فروخ

أحب أن أبدأ هذا البحث بدءا خفيفاً في ظاهره .

حينما أبدأ ، في أول العام المدرسي ، درس « تاريخ العلوم عند العرب » في الصف الأعلى من كلية الآداب وفي الصف الأعلى من المرحلة الثانوية – أبدأ بالجملة التالية:

ليس هنالك علم عربي وعلم غير عربي . هنالك علم واحد ، وهنالك فلسفة واحدة : علم وفلسفة إنسانيان ؛ ولكننا نحن نقول : علم يوناني وفلسفة يونانية لذلك العلم ولهذه الفلسفة المدونين بلغة يونانية .

إن فيثاغورس اليوناني (ت ٥٠٣ق .م) يقول عن نفسه ؛ إنه أخذ كتاب توصية من التورانس (الحاكم المستبد) في جزيرة ساموس إلى فرعون أحمسـو الخامس (٥٧٠ – ٥٢٦ ق . م) حتى يستطيع أن يدخل إلى الهياكل ويتعلم من الكهنة المصريين . ثم إن الشكل الهندسي المشهور باسم « نظرية فيثاغورس » ، ولفظه : « إن مساحة المربع المنصوب على وتر المثلث القائم الزاوية مساو لمجموع مساحتي المربعين المنصوبين على الضلعين الباقيين من ذلك المثلث » ، إنما هو نظرية أشورية أقدم من فيثاغورس ، وكانت تعرف عند الأشوريين باسم نظرية السلّم . إن السلم المستند إلى جدار يمثل وتر المثلث القائم الزاوية . ثم إن الجدار الذي يستند إليه السلم وسطح الأرض الذي يقوم عليه ذلك السلم يلتقيان عند قاعدة الجدار على زاوية نفرضها زاوية قائمة .

وكذلك إذا أنا وصلت في علوم التعاليم أو العلوم العددية (وهي التي تسمى عندنا الرياضيات ، وفي مصر تدعى الرياضة) ثم انتهيت إلى الكلام على الغناء أو الموسيقى قلت أيضا : ليس هنالك موسيقى عربية ثم موسيقى أجنبية عن العرب . هنالك موسيقى فحسب، إنك إذا شددت وترا على لوح من خشب رقيق ثم نقرته وأنت في مدينة بيروت مثلا ، وبعدئذ حملت هذا الوتر المشدود على ذلك اللوح إلى الصين ونقرته هنالك كما كنت قد نقرته

(*) ألقى البحث في الجلسة العاشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين في ٨ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٣ من مارس ١٩٨٢ م

فى مدينة بيروت ، فهل يختلف نغمه ذلك من نغمه فى مدينة بيروت ؟

والقول الصواب : إن هنالك أنغاما ألفها العرب فسميت أنغاما وألحانا عربية ، بينما ألف الهنود أنغاما وألحانا أخرى ناشئة من نقر الوتر الواحد فسميت ألحانا هندية . وليس هذا القول قولى أنا ، بل هو قول قد ورد فى رسائل إخوان الصفا . أما المثل الذى أريد أنا أن أقدمه فهو : أن جماعات من العرب أنفسهم قد أصبحوا يألفون ألحانا كانت تسمى أجنبية من فرنسية وإنكليزية وأميركية وزنجية ، ثم أخذوا يرقصون عليها أو يطربون لها طربا أكثر مما كانوا يطربون لألحان قالوا عنها من قبل إنها عربية ، وقد أحب موسيقار مشهور أن يفتخر فذكر — أو ذكر قوم عنه — أنه «يطعم» أغانيه بألحان يونانية . غير أن هذه الألحان التى سموها يونانية لا يمكن أن تلائم الأغانى العربية إنما هى فى الأكثر ، وفى حالها الراهنة ، قد تحدرت من ألحان تركية تحدرت هى بدورها من ألحان فارسية متأثرة بالغناء العربى الإسلامى .

ثم أرانى أكاد أقول : ليس هنالك لغة عربية ولغة غير عربية . هنالك لغة واحدة مرت فى كل أمة فى ثلاثة أطوار من الطور الأول الطبيعى المنطقى والقائم على الحركات والأصوات إلى الطور الثانى الاجتماعى الذى أخذ فيه كل قوم يجعلون لتلك الحركات ولتلك الأصوات الأولى معانى لم تكن لها فى الطور الأول . ثم يأتى الطور الثالث الغنائى أو الموسيقى حينما يحاول الناس أن يغلبوا سهولة اللفظ أو عذوبته على القاعدة الحازمة ، إذا كان فى تلك القاعدة الحازمة شىء من الجفاف أو من العسر أو التنافر فى اللفظ .

وفيما يلى عدد من الأمثلة على غاية من الإيجاز :

١ — من الطور الأول الطبيعى المنطقى :

لا يزال كثير من الناس إذا التقوا بأناس آخرين — وكان بعضهم لا يعرف لغة بعضهم الآخر — حاولوا أن يتفاهموا بعدد من الحركات (كما يتفاهم الخرس فيما بينهم فيقصون أخبارا وحكايات أو يعالجون أمور السياسة بطريقة تدعو الناس القادرين على النطق إلى شىء كثير من العجب) . وكذلك لا يزال عندنا جميعا بقايا من تلك الأصوات فى طورها القديم يتفاهم بها الصغار والكبار ، كأصوات الزجر والحض والاستحسان والاستهجان وما إلى ذلك . وأحب هنا أن أذكر من لغة الصغار صوت «نن» أو «ننى» بمعنى الطعام . ولفظ «نان» (بألف مفخمة) يدل على الخبز فى اللغة الفارسية .

٢ — من الطور الثانى الاجتماعى :

حينما يطالع أحدنا شيئا من اللغات الشمالية فى أوروبة (كالدانمركية والأسوجية والنروجية) وهى لغات لم تفترق إلا

فى مطلع القرن العشـــرين للميلاد — يجد أنها لا تكاد تفترق إلا فى أشياء يسيرة من صيغ الكلمات ثم فى كثرة الإعراب فى بعضها أو قلته فى بعضها الآخر — أما السبب الأساسى فى افتراقها؛ فإنما جاء من العنصر الاجتماعى الذى جعل للصوت الواحد فيها من قبل أوجها مختلفة من الأداء عند التلفظ بها .

ويجدر بالعرب أن يشكروا الله تعالى على أن عندهم « لاما» للتعريف واحدة تدخل على الاسم المذكر وعلى الاسم المؤنث فى الإفراد وفى الجمع . ومع ذلك فإن نفرا منا لا يستطيعون أحيانا أن يفرقوا بين اللام القمرية واللام الشمسية . أما إذا نحن أتينا إلى اللغة الآيسلندية — تلك الجزيرة المتطرفة فى الشمال الغربى من قارة أوروبة — فإن أداة التعريف وحدها تحتاج عندهم إلى كتاب كامل .

فى اللغة الإنكليزية أداة واحدة للتعريف فى صورة هجائها ، ولكن لها لفظين : لفظا إذا هى سبقت اسما يبدأ بحرف صحيح ثم لفظاً آخر إذا هى سبقت اسما يبدأ بحرف علة . وفى اللغة الفرنسية ثلاث أدوات للتعريف : واحدة تدخل على الاسم المذكر المفرد وثانية تدخل على الاسم المؤنث المفرد وثالثة تدخل على الاسم إذا كان جمعا . ثم تكثر مشاكل لام التعريف فى اللغة الفرنسية إذا هى دخلت على اسم يبدأ بحرف علة أو بالهاء . ولكلمة عظم (مفرد عظام) فى اللغة الفرنسية مشكلة قائمة بنفسها ؛ كيف نلفظها إذا سبقتها أداة تنكير أو أداة تعريف ثم كانت هى مفردا أو جمعا .

وفى الإيطالية نحو عشرة أشكال لأداة التعريف لا أخوض الآن فى أوجه الاختلاف بينها .

أما إذا نحن وصلنا إلى أداة التعريف فى اللغة الألمانية فحدث عن الأرض والبحر والجو ولا حرج . إن أداة التعريف فى اللغة الألمانية تتقلب فى صور كثيرة لتلائم الاسم الذى يأتى بعدها فى أحواله المختلفة إذا كان مذكرا أو مؤنثا أو مفردا أو إذا كان جمعا . ونعود إلى هذا الاسم نفسه لنراه من حيث إعرابه : فى حالة الرفع أو النصب أو الجر أو الإضافة، ففى اللغــة العربية إعراب واحد للاسم المجرور وللاسم المضاف إليه ، أما فى الألمانية فللجر علامة وللإضافة علامة أخرى . ثم تبدو فى ذلك كله مشكلتان أخريان : إن حركة الجر فى الاسم المؤنث المجرور غير الحركة التى تظهر على الاسم المذكر المجرور ثم تختلف أواخر الكلمات (فى تلك الأحوال المختلفة من الإعراب والتصريف) عند التنكير وعند التعريف . وأنا لا أريد أن أطيل عليكم حتى أستوفى الكلام على ثمان وأربعين حالة للام التعريف فى اللغة الألمانية . ومع ذلك فإن الطفل الألمانى لا يشكو من النحو فى لغته ، كما يشكو اليوم نفر من كبرائنا من النحو العربى . ولقد أخذ نفر من العرب — مع

الأسف الشديد – يجرون الأسماء الخمسة أو بعض الأسماء الخمسة ، مجرى واحدا فى الإعراب . ونحن نشكر الله على أنهم لم يعرفوا الاسم السادس .!

وفى هذا الطور الثانى الاجتماعى افترقت معانى الكلمات باختلاف مواطن المتكلمين فأصبح لكل لفظ عند كل قوم معنى مستقل إن لفظة « بور» العربية الدالة على الأرض غير المزروعة تدل فى اللغة الهولندية على «الفلاّح» (بتشديد اللام) وكذلك لفظة« نور» التى تدل فى اللغة العربية على الضوء والضياء واللمعان تدل فى اللغة الألمانية على الاكتفاء ويقابلها فى العربية كلمة « فقط» وفى الألمانية لفظ هو شبايت (بترقيق الفتحة على الشين وتسكين الياء والتاء : spät) ومعناه «التأخّر» يدل فى اللغة الألبانية (بالباء مكان الميم) على الاستعجال (طلب السرعة من الآخرين) .

واللفظ « تير» يدل فى الإنكليزية على «الدمع» وفى الألمانية على «الحيوان» وفى الفرنسية على « إطلاق النار« وعلى »الجذب » وعلى غير ذلك . « والريم » فى اللغة العربية هو الغزال الأبيض والمحبوب الجميل ، كما قال شوقى :

ريم على القاع بين البان والعلَم
أحلّ سفك دمى فى الأشهر الحُرُم

أما فى الفرنسية فإن كلمة « ريم » معناها « القافية » (فى الشعر) والاستشهاد على هذا الباب من اللفظ الواحد فى اللغات المختلفة شرحه يطول .

غير أنى أحب أن أورد هنا اختلاف المفسرين فى موقفهم من عدد من الكلمات وردت فى القرآن الكريم، أعربية هى أم غير عربية ، مثل : درهم، دينار ، قنطار عليّون، كرسىّ ، جهنم. إن نفرا من المفسرين جمعوا بين المذهبين فقالوا : هى كلمات غير عربية فى الأصل ، ولكن لما جرت على اللسان العربى فى صيغ عربية أصبحت عربية كالكلمات العربية الأصيلة سواء بسواء .

٣ – من الطور الثالث الفنائى أو الموسيقى :

ولما استقرت اللغة على قواعدها المنطقية الطبيعية (فى طورها الأول) ثم على المعانى الاجتماعية للكلمات (فى طورها الثانى) – وهذا ما نسميه « مجازا» ، كإطلاق لفظ «الشمس» مثلا على المرأة الجميلة ، وهو فى المعجم اسم للجرم السماوىّ المنير الذى نراه من أرضنا نهارا – وجد العرب فى لغتهم العربية ، كما وجد آخرون فى لغاتهم أن عددا من القواعد المنطقية يفقد اللغة شيئا من السهولة فى اللفظ ومن العذوبة عند التكلم ، فلجأوا إلى قوانين الغناء أو قواعد الموسيقى يطبقونها على كلامهم ثم يخالفون فى ذلك منطق العقول فى سبيل جمال الألفاظ .

إن الإيطاليين يحبّون تضعيف الحروف فهم يقولون مثلا : فتّوريا مكان فيكتوريا ويقولون فتّورا (مكان فكتور factur

الفرنسية) ، ونحن نقول فى هذه الكلمة فى اللغة العربية : « فاتورة » وأحسب أن الكاف لا تأتى قبل التاء فى كلمة إيطالية بينما عدد من اللغات كالفرنسية والإنكليزية والأسبانية يتقبل توالى هذين الحرفين بالرضا .

وعندنا ، نحن العرب ، فى الصرف والنحو أبواب عناوينها : الإدغام والإعلال والإبدال والممنوع من الصرف ثم نصب جمع المؤنث السالم بالكسرة بدل الفتحة . ومن الحق أن تجمع هذه الأحوال كلها فى باب واحد يسمى « باب الموسيقى فى اللغة » .

نحن نقول ، مثلا : ضَرَبَ يضرب وعرض يعرض ونزل ينزل وقصد يقصد . ولقد كان من الحق أن نقول : رَمَيَ يرمِيُ — كما يقول الأحباش — ولكننا اخترنا أن نقول : رمى يرمِي . ثم نحن نعترف أو نقر على أنفسنا بأن عملنا هذا الذى هو « إعفاء الياء من الحركة الخاصة بها » إنما هو لاستثقال الضمة والكسرة خاصة على الياء . نحن نقول مثلا : لن يَرْمِيَ ، ولكننا لا نقول : رَمَيَ . وكذلك نقول : لم يستحيِ ، ولا نقول لم يَرْمِيْ كيلا نجمع فى هذه الكلمة ياء وسكونا (أى مداً ووقفا أو حركة قصيرة على حركة طويلة كما يقول نفر من الدارسين باللغات الأجنبية) كل هذا لا تفسير له منطقياً إلا أن نقول إن العرب يستسهلون ذلك .

وأريد أن آتى هنا بمثلين على ذلك من القرآن الكريم :

أولا — إن كلمة « أشياء » ممنوعة من الصرف . واختلف علماء النحو فى تعليل ذلك المنع من الصرف فى « أشياء » اختلافا كبيرا ، ثم لم يأتوا فى جدالهم الطويل بكلام مقنع .

إن هذه الكلمة « أشياء » وردت فى القرآن الكريم مفردة غير مضافة مرّة واحدة فى قوله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . . » (٥ : ١٠٤ سورة المائدة)، ورأيى أن هذه الكلمة منعت هنا من الصرف للموسيقى فقط . ولو أننا صرفناها فى هذا الموضع لوجب أن نقول : «.. عن أشياءٍ إن ...»فتتوالى فى هذا التعبير القصير ثلاث نونات ساكنة . وهذا يسمى فى علم التجويد « الأنأنة» (كما كانوا يقولون لنا ونحن صغار) ، وهذا مكروه فى القراءة .

وأصبح منع كلمة أشياء فى هذا الموضع من القرآن الكريم قاعدة أو إضافة على القاعدة فى الأصح ، فقال المقنع الكندى (وهو شاعر إسلامى متقدم ، قبل أيام عبد الملك بن مروان قبل سنة ٦٥ للهجرة — ٦٨٥ للميلاد) :

يعاتبنى فى الدين قومى ، وإنما
دِيُونىَ فى أشياء تُكسبهم حمدا

ثانيا — تبدأ سورة « الشمس» من القرآن الكريم (ذات الرقم ٩١ فى المصحف) بقوله تعالى (بعد البسملة) :

«والشمس وضحاها — والقمر إذا — تلاها والنهار إذا جلاها . . (إلى قوله تعالى :

ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها كذبت ثمود بطغواها . . . »

ولو أن الآيات الثلاث الأخيرة ، وردت فى النسق التالى :

قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دسسها . كذبت ثمود بطغواها .

لاختلف السجع ثم جاءت أربع عشرة آية على قافية مؤسسة (يسبق على رويها — على الهاء فى تلك القافية — ألف) وآية واحدة فى ذلك غير مؤسسة . فأبدلت السين الثانية فى كلمة « دَسَّسَها » ألفاً للتخفيف ، كما قالوا ، أى مجاراة للقوافى الباقية ، أى للموسيقى .

ونأتى الآن إلى « كلمة حتى » .

منذ حين جرى ، فى إحدى جلسات هذا المجمع ، بحث فى تركيب شاع استعماله على أقلام نفر من المعاصرين لنا وتقع فيه كلمة « حتى » وقوعا عده نفر منا غريبا فى الاستعمال الفصيح . وذلك مثل قولهم : جاء القوم حتى كبارهم .

ومن متابعة النظر فى هذا الاستعمال فى عدد من الكتب الحديثة وفى الصحف ندرك أن هذا الاستعمال ، فى تركيبه الحاضر ، والذى عده نفر منا غريبا وخاطئا ، إنما جاء من النقل (أى من الترجمة) عن اللغة الإنكليزية لكلمة « even » ومن الغريب فعلا أن تكون اللفظة الإنكليزية «even» واللفظة العربية « حتى » تتقاربان فى أمور كثيرة . فلنبدأ بالكلام على اللفظة الإنكليزية :

من الغريب حقا أن يكون علماء اللغة الإنكليزية قد وقفوا من كلمة « even » موقفا شبيها جدا بموقف الحريصين منا على صفاء اللغة العربية من كلمة « حتى » فقد جاء فى معجم أوكسفورد الكبير (٣ : ٣٣٣ — ٣٣٦) نحو ثلاث صفحات ونصف صفحة من القطع الكبير وبالحرف الدقيق ، وكان مما فيها مايلى :

كثر ورود هذه اللفظة فى الكتب الحديثة وفى تعابير بعيدة عن الاستعمال القديم المألوف ، وهو استعمال يشبه وجها من وجوه استعمال كلمة même فى اللغة الفرنسية . هذا التعبير (الإنكليزى) الحديث يحمل معنى هو «ذكر حالة متطرفة من حكم عام» ، كقولنا مثلا :

« فلان يجادل حتى فى الحقائق البادية للعيان » .

هذا التعبير (الإنكليزى) ليس موجوداً فى اللغات التيوتونية ، أى فى اللغات الألمانية والهولندية والدنمركية وأخواتها . إن اللفظ نفسه موجود فى اللغة الألمانية ، ولكنه يستعمل استعمالا فصيحاً وفى غير المعنى المقصود من الاستعمال الحديث فى اللغة الإنكليزية . ففى الألمانية والهولندية تستعمل اللفظة « eben » اسماً وصفة للدلالة على الاستواء (كاستواء صفحة الجدار ، مثلا) كما تستعمل ظرفاً بمعنى « الآن » أو « حديثاً » (فى الوقت الحاضر) .

واعتراض علماء اللغة من الإنكليز على هذه اللفظة « even » أنها تستعمل فى الكتب الحديثة على أنها « حرف ابتداء » .

أما الذى دعانى إلى عقد هذا الفصل – مع مقدمته الطويلة – فيما يتعلق بتراثنا اللغوى أو بالتراث اللغوى عامة ، أننا نجد نفراً من الكتاب المعاصرين لنا يستعملون لفظة « حتى » حرف جر أو حرف نصب (أو حرف جر ينتصب الفعل المضارع بعده بأن مضمرة) ثم يستعملونه أيضاً « حرف ابتداء » على غرار ما يرد عليه هذا الحرف فى اللغة الإنكليزية .

* * *

ولعل علماء اللغة من الإنكليز لم يكونوا على حق حينما قالوا : إن هذا الاستعمال لكلمة « even » حديث عندهم ، فلقد ورد هذا التعبير عند شكسبير (فى مطلع حياة اللغة الإنكليزية ستمائة وأربعا وعشرين مرة ، وكان فيها أمثلة كثيرة تشبه الاستعمال الحديث لتلك الكلمة عندهم . ثم إننا نجد هـذا الاستعمال نفسه اثنتى عشرة مرة فى الترجمة الإنكليزية للتوراة والإنجيل) .

ولا أرى فائدة من إيراد الجمل الإنكليزية هنا . ولكن من المفيد أن نعلم أن هذه الكلمة الإنكليزية المقابلة لكلمة « حتى » (فى استعمالها المتأخر عن القرآن الكريم عندنا) يمكن أن يحل محلها عندهم : مع أن – لو أن – ولا سيما .

* * *

ونعود إلى كلمة « حتى » عندنا .

هذه الكلمة كانت محيرة للفراء يحيى ابن زياد (ت ٢٠٧ هـ) شيخ النحاة الكوفيين حتى قال – أو روى عنه أنه قال – : أموت وفى نفسى شىء من « حتى » .

ولفظ « حتى » عربى يقابله فى السريانية « عدامو » ، وتكون عند السريان ، كما تكون عندنا أيضاً ، حرف عطف وحرف جر .

(ا) فإذا كانت حرف عطف (لاسم على اسم ، لا لفعل على فعـل ولا لجملة على جملة) وجب أن يكون بعضها جزءاً مما قبلها ، نحو : « مات الناس حتى الأنبياء » (لأن الأنبياء جزء من الناس) .

(ب) أما إذا كانت « حتى » حرف جر وجب أن يكون للدلالة على الانتهاء إلى غاية . فلا يجوز مثلا أن يقال : « سرت الليل إلى نصفه » (لأن نصفه داخل فى الليل الذى ذكرت أنك سرته) . ولكنك تقول : سرت الليل إلى الفجر (لأن الليل ينتهى بطلوع الفجر) .

أما فى اللغة العربية فإن استعمال « حتى » أوسع مدى .

كلمة حتى فى الاعصر المتوالية :

فى الجاهلية :

لقد مررت ببصرى على المعلقات السبع (كما جمعها الزوزنى) وعلى ديوان بشر ابن أبى خازم (بتحقيق عزة حسن — ونشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى دمشق) وعلى ديوان عروة بن الورد (بتحقيق عبد المعين المالوحى — ونشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، دمشق) وعلى ديوان الأعشى (بشرح محمد محمد حسين — المكتب الشرقى للنشر والتوزيع ، بيروت ١٣٨٨ هـ — عام ١٩٦٨ م) . ويجدر بمن يريد التوسع فى هذا الموضوع أن يرجع إلى ما تبقى من الشعر الجاهلى فى غير هذه الكتب التى ذكرتها هنا .

* تأتى « حتى » فى الشعر الجاهلى حرف جر بمعنى « إلى أن » :

— فمن ذلك أنها تدخل على الفعل الماضى مطلقاً ، فقد قال امرؤ القيس فى معلّقته :

ففاضت دموع العين منى صبابة
على النحر حتى بل دمعى محملى

وقال بشر بن أبى خازم (ديوانه ١٨٤) :

ولقــد خبطن بنى تميم خبطة
. . . .
حتى سـقيناهم بكأس مرة
مكروهة حُسُواتُها كالعــلقم

— كما تأتى مقيدّة بالحرف « إذا » على أنه أداة شرط ، وعليه قول زهير فى معلقته :

رعوا ظمأهم حتى إذا تم أوردوا
غماراً تفرّى بالسلاح وبالدم

ويبدو أن دخول « حتى » على « إذا » الشرطية كثير ، فقد وردت مراراً فى معلقة لبيد ، من ذلك مثلا ، قوله :

حتى إذا سلخا جُمــادى ستة
جزْءاً فطــال صيامه وصيامهــا

ومثل ذلك قول الأعشى (ديوانه ٦٧) :

حتى إذ لمع الدليل بثوبه
سُقيت وصَبّ رواتُها أشوالهــا

— وكذلك تدخل حتى على الفعل الماضى المقيّد بإذا الشرطية التى تليها « ما » الزمانية ، كقول الأعشى (الديوان ٢٩١) :

ركَدت عليه يومَهـــا
شمس بحــرٍّ شِهــابهـــا
حتى إذا مــا أُوقِــدت
فالجمــر مثل ترابهـــا
كلّفــت عــانسة أمــو
نــاً فى نشــاط هبــابهــا

وتدخل « حتى » على الفعل المضارع فينتصب بعدها بحرف النصب المضمر «أن ».
قال عمرو بن كلثوم فى معلّقته :

ورثنــا المجــد قد علمت معــدّ
نطــاعن دونه حتى يبينــا

وقال عروة بن الورد (الديوان ٣٠) :

وإن جارتى ألْوَتْ رياح ببيتها
تغافلت حتى يستر البيتَ جانبُه

وكذلك قال بشر بن أبى خازم (الديوان ص ٥٧) يخاطب ناقته :

لما تخالجت الأهواء قلت لها :
حق عليك دُؤوبُ الليل والسَّهدُ
حتى تزورى بنى بدر فإنهم
شُمّ العرانين لا سود ولا جُعُدُ

وقال الأعشى فى الغزل (الديوان ص ١٧٥ — ١٧٧) :

لو أسندت مَيْتاً إلى نحرها
عاش ولم ينقل إلى قابر
حتى يقولَ الناس ، مما رأوا : «
يا عجباً للميِّت الناشر

* وتدخل « حتى » على الحرف المشبه بالفعل « كأن » . قال بشر بن أبى خازم :

تغالى نبتُه واعتمَّ حتى
كأن منابت العَلَجان شامُ

وقال الأعشى (الديوان ٤٠٩) :

تدلت عليه الشمس حتى كأنها
من الحَر ترمى بالسكينة قُورُها

* وكذلك تكون « حتى » حرف جر فتدخل على الاسم الظاهر فتجره . قال عروة ابن الورد (الديوان ١٠٢) :

لكل أناس سيِّد يعرفونه
وسيدنا حتى الممات ربيع

فى القرآن الكريم خاصة :

وردت كلمة « حتى » فى القرآن الكريم نحو مائة وأربعين مرَّة :

— وردت خمس عشرة مرة قبل الفعل الماضى مطلقاً ، نحو : « . . . وقلَّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله » (٩ : ٤٨) ؛ « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا . . . » (٦ : ٣٤) ؛ « فقال : إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب » (٣٨ : ٣٢) .

— وجاءت أربعين مرة قبل « إذا » (الشرطية) الداخلة على الفعل الماضى المثبت نحو : « ... فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا . . . » (٤٠ : ٣٤) ، « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم . . . » (٣٤ : ٢٣) ؛ « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » (٤١ : ١٩ — ٢٠) .

— ووردت « حتى » ثلاثاً وسبعين مرة قبل الفعل المضارع المثبت فانتصب الفعل المضارع بعدها بحرف النصب المضمر « أن » نحو : « فلا تقعد معهم حتى يخوضوا فى

حديث غيره » (٤ : ١٤٠) ؛ « . . . حتى يبلغ الكتاب أجله » (٢ : ٢٣٥) ، « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١٣ : ١١) .

— ووردت مرتين فى لفظ واحد ، وجاءت قبل « كان » التامة فى الزمن المضارع المنفى ، وذلك فى قوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (٢ : ١٩٢ و ٨ : ٣٩) .

— وكذلك جاءت حتى حرف جر قبل اسم هو « حين » (ست مرات) ، نحو : « فتول عنهم حتى حين » (٣٧ : ١٧٤ و ١٧٨) و (مرة واحدة) فى قوله تعالى : « سلام هى حتى مطلع الفجر » (٩٧ : ٥) .

فى الصدر الأول (أيام الخلفاء الراشدين):

مررت ببصرى على الدواوين التالية : مجموع أشعار الهذليين (الجزء الثانى ، نشره يوسف هل ليبزج عام ١٩٣٣) : ديوان حميد بن ثور (صنعه عبد العزيز الميمنى — القاهرة ، مطبعة دار الكتب عام ١٣٧١ هـ — ١٩٥١ م) ؛ شعر الحطيئة (تحقيق عيسى سابا — بيروت ، مطبعة صادر عام ١٩٥١ م) ، شرح ديوان كعب ابن زهير) القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م) ، ديوان عمرو بن معدى كرب (صنعه هاشم الطعان — وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد) ، ديوان حسان بن ثابت (تحقيق سيد حنفى حسنين — القاهرة الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٧٤ م) ؛ شرح ديوان الخنساء (بيروت ، دار مكتبة الحياة) .

تكون « حتى » حرف جر يدل على الانتهاء إلى غاية (أى بمعنى : إلى أن) . وتدخل « حتى » بهذا المعنى على الفعل الماضى مطلقاً ، وعلى الفعل الماضى المؤكد بالحرف « قد » ، وعلى الفعل الماضى المسبوق بالأداة الشرطية « إذا » الداخلة على فعل ماض أو على اسم ، وعلى الفعل الماضى المسبوق بالأداة الشرطية « إذا » وبالأداة الزمانية « ما » معاً ، قبل فعل ماض أو قبل اسم متمكن أو قبل صيغة من الصيغ أو قبل ظرف . وتدخل « حتى » أيضاً على الفعل المضارع المثبت أو المنفى فينتصب هذا الفعل بالحرف المضمر « أن » . وتدخل أيضاً على « كاد » من أفعال الشروع . وتأتى أيضاً قبل « كأن » . وكذلك تأتى « حتى » حرف ابتداء (وهذا هو المقصود الأول من هذا البحث) .

وفيما يلى شواهد مفردة على الأوجه التى ذكرت :

— قالت الخنساء (الديوان ٥١) :

فبتّ ساهرة للنجم أرقُبُه
حتى أتى دون غَوْرِ النجم أستارُ

— وقال حميد بن ثور (الديوان ٩٥) :

لقد ركبت العصا حتى قدآوجعتنى
مما ركبت العصا ظهرى وأظفارى

- وقال عمرو بن معديكرب فى صفة الحرب (الديوان ١٥٦) :

الحرب أول مـــا تكون فتيّة
تسعى ببزّتهـــا لكل جهول
حتى إذا حَمِيت وشبّ ضرامهـا
عادت عجوزاً غير ذات خليل

- قال الحطيئة (شعر الحطيئة ١١٤) :

كأنى ساورتنى يوم أسألهـــا
عودٌ من الرُّقْشِ ماتصغى لراقيها
حتى إذا ما انجلت عنى قعدت على
حرف تهالكُ فى بِيدٍ تقاسيها

- وقال الحطيئة أيضاً (ص ١٥٦) :

وكأن رحلى فوق أحقبَ قـارح
بالشَّيِّطين تُهـــاقُه التعشيرُ
حتى إذا ما الصبح شقَّ عموده
وعلاه أسطعُ لا يرد منير
أوفى على عُقُـــدِ الكثيب

. . . .

- وقال أبو خراش الهذلى (مجموع أشعار الهذليين ٢ : ٧٤) :

أقاتل حتى لا أرى لى مُقاتلاً
وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك

- وقال حسان بن ثابت (الديوان ص ١٢٣) :

يُغشون حتّى ما تهِرُّ كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

- وقال حميد بن ثور (الديوان ٩٤) :

ليت الشباب عليك الدهرَ مرتجعاً
حتى تعود كثيباً أمَّ صَـــبّار

- وقال حسان بن ثابت (الديوان ص ١٠٩) يصف مقتولا فى إحدى المعارك وملقى أرضاً :

ومجـــدّل لا يستجيبُ الدعـــوة
حتى تزول شوامخُ الأعلام.

- وقال حسان بن ثابت أيضا (الديوان ص ٢٩٦) :

(يا) خالةً لك بين قُدْسَ وآرة
تحت البَشام ورُفغهـــاً لم يغسل
تسعى وترقص حول«شىء» حمارها
حتى يكاد يمسها أو يفعلِ

- وقال كعب بن زهير (الديوان ص ١٤٦) :

طليح من التَّسعاء حتى كأنه
حـــديثٌ بحُمى أسأرتْها سلالم

* وتكون « حتى » أيضاً حرف جر يدخل على الاسم المتمكن ، أو قبل الاسم إذا كان ظرفاً .

- قال حسان بن ثابت (الديوان ص ٢١٥ - ٢١٦) فى مديح عثمان بن عفان وأهل الشام :

وقــد رضيت بأهل الشام زافرةً
وبالأمير وبالإخوان إخوانا
إنى لمنهم ، وإن غابوا وإن شهدوا
حتى الممات ِ وما سميّت حسّانا

— وقال حميد بن ثور (الديوان ١١٧):

فقلت: امكثى حتى يسار، لواننا
نحجُّ. فقالتْ لى: أعام وقابل؟

— وقال المتنخّل الهذلى (مجموعة أشعار الهذليين ٢ : ٨٣):

فالتطّ بالبرقة شؤبوبه
والرعد حتى برُق الأحول

** وكذلك جاءت حتّى حرف ابتداء عند الحطيئة (ت ٥٩ هـ — ٦٧٨ م). والحطيئة شاعر مخضرم كان فى الجاهلية ثم أدرك الإسلام وأسلم وعاش بعد ذلك مدة طويلة. وإذا كانت وفاة الحطيئة فى السنة التاسعة والخمسين للهجرة فلا يجوز أن يكون قد عاش فى الجاهلية طويلا ولا أن يكون قد قال فى الجاهلية شعراً كثيراً. والبيت التالى أقدم ما مر بى فى هذا المعنى (شعر الحطيئة ص ١٠٣):

تركت المياه من تميم بلاقعا
بما قد ترى منها حلولا كراكرا
وحتى سُليم قد أبدت شريدهم
ومن قبل ما قتّلت بالأمس عامرا

فى العصر الأموى:

لم أجد ضرورة لاستعراض عدد كبير من الدواوين الأموية للاستشهاد على الأوجه المختلفة التى ترد فيها « حتى ». إننا نستطيع أن نقول: إن « حتّى » ترد فى الشعر الأموى فى جميع الوجوه التى جاءت فيها فى شعر صدر الإسلام الأول. ويبدو بوضوح أن أصحاب القواميس قد تنبهوا إلى هذا الوجه الذى عقدتُ أنا هذا الفصل من أجله. ومع ذلك فقد مررت ببصرى على ديوان جميل ابن معمر وديوان عمر بن أبى ربيعة.

جاء فى « تاج العروس » (الكويت ٤ : ٤٨٧ — ٤٨٨):

« حتى » حرف من حروف الجر (مثل): « إلى »، ومعناه « للغاية ». وهو حرف يخفض... (أى) يجر. وقد تكون حرف ابتداء. وفى « الصحاح »: وقد تكون حرف ابتداء يستأنف بها الكلام بعدها، كما قال (جرير):

فما زالت القتلى تمج دماءها
بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وهو قول جرير يهجو الأخطل (ت ٩٠ هـ) ويذكر إيقاع الحجاف بقومه... وفى « المغنى »: والثالث من وجوه « حتى » أن تكون حرف ابتداء، أى حرفاً تبدأ بعده الجمل، أى تستأنف، فتدخل على الجملة الاسمية... كقول الفرزدق:

فواعجبا، حتى كليب تسبّنى
كأن أباها نهشل ومجاشع

غير أن البيت الذى وقعتُ أنا عليه للحطيئة أقدم من بيت جرير بجيل من الدهر على

الأقل ، وهو – من هذه الناحية – أجل قيمة فى تاريخ تطور الكلام .

وهنــالك شاهد آخر فى شعر عمر ابن أبى ربيعة (ت ٩٥ هـ) يمكن أن يكون أقدم من بيتى جرير والفرزدق ، ولكنه ليس أقدم من بيت الحطيئة ، هو : (شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة المخزومى ، ص ١٥٤ – ١٥٥) :

ولقد عصيت ذوى القرابة فيكم
طرّا وأهل الود والصّهر
حتّى مقــالتهم إذا اجتمعوا :
أجننت أم ذا داخل السحر؟

واستعمال « حتّى » فى هذا البيت يشبهه تماماً الاستعمال الإنكليزى المستغرب عنــدهم لكلمة « even »(أى إخراج حكم جزئى من حكم عام)، فبعد أن ذكر عمر بن أبى ربيعة أنه خالف أهل قرابته (من جهة أبيه) وأهل الود (الأصدقاء) والصهر (أقاربه من جهة أمه) ، قال : « حتّى مقالهم » (أى القليل من فعلهم ، بالإضافة إلى ما كان قد ذكره من قبل) .

ولعمر بن أبى ربيعة بيت آخر (شرح ديوان عمر . . . ص ٤٠٠) هو :

ولو أقسمتِ لا يكلّمُ حتى
عُمّرِ نوح بعيشه ما عصاكا

وبعد : من أين جاء هذا الاستعمال المخالف للمألوف من القاعــدة العامة ، ثم كان عند الإنكليز – فيما بعد – يشبه ما عند العرب من قبل ؟ ليس من المعقول أن يكون العرب قد أخذوا ذلك عن الإنكليز (قبل أن يكون فى الدنيا لغة إنكليزية) . وكذلك لم يكن من الممكن أن يكون الإنكليز قد عرفوا ما عند العرب من هذا الاستعمال الجانبى لكلمة جانبية .

ولكن يبدو أن هذا الاستعمال عندنا قد تسرب إلى اللغة العربية الفصيحة بالطريقة التى تسرب بها مثله إلى اللغة الإنكليزية ، والتى يمكن أن يتسرب أمثاله إلى كل لغة . ومعنى ذلك أن فى كل لغة فصيحة عدداً من التراكيب الشائعة فى اللفظ تفرض نفسها على اللغة الناشئة ولا نجد نحن لها فى قواعد اللغة تفسيراً واضحاً . هنالك بقــايا يسمونها فى الفرنسية « غاليّة» (بتشديد اللام والياء معاً : (gallicisme) ، أى صيغاً وتراكيب من لغة تستعمل فى لغة أخرى استعمالا مجانباً ، أى مخالفاً لقواعد اللغة التى انتقلت تلك الصيغ والتراكيب إليها . ويحسن بنا أن نسمى نحن هذه الظاهرة فى لغتنا « الظاهرة الأعرابية » لأن التسمية « ساميات » تسمية خــاطئة ولا دلالة صحيحة لهـا .

من هذه « الإعرابيات » عندنا : « اللهمّ » و « ليس من مبرّ مصيام فى مسفر » .

إن كلمة « اللهم » مجانبة لكلمة « الله » فى التهجئة . فالشدة فى الكلمة الأولى على اللام الأولى ، وأما اللام الثانية فهى للرسم

وليس لها قيمة هجائية . ولفظ الكلمة « الاهمّ » . وأما الكلمة الثانية « الله » ، فالشدة فيها على اللام الثانية . وأما اللام الأولى فيختلف فيها صانعو الفهارس . إن نفراً من هؤلاء يجعلون اللام الأولى للتعريف فيأتى الاسم عبد الله عندهم بعد عبد الكريم . وهنالك من يجعل كلمة الله « لفظاً واحداً » فيأتى اسم عبد الله عندهم قبل اسم عبد الباسط

ونرجع إلى كلمة «اللهم» . إنها وردت فى القرآن الكريم خمس مرات ثم هى فى هذه المرات الخمس « منادى » ، ولكن لا تسبقها أداة نداء .

وبالرجوع إلى المعجم الكبير (١ : ٤٤٤-٤٤٥) نراه يذكر أن نفراً من النحاة قالوا فى تعليل امتناع أداة النداء قبل لفظ « اللهم » راجع إلى أن الميم تنوب عن أداة النداء . ولكن المعجم الوسيط لا يذكر ذلك فى مطلع باب « الميم » .

وفى المعجم الكبير أيضاً أن « اللهمّ » قد دخلت عليها أداة النداء « يا » فى شعر أبى خراش الهذلى. ثم إن هذه اللفظة قد وردت فى صيغة ثانية هى « لاهُمّ » ، وهذا يردنا إلى ما سبق إليه قولى من وجوب الشدة على اللام الأولى أو على اللام الثانية .

ولكلمة « اللهم » استعمال آخر يرد فى وجهين : أحدهما قبل أداة الاستثناء ، نحو : « هذا القول صحيح ، اللهم إلا إذا كان فلان قد أخبرنى الخبر ناقصاً » ، وأعتقد أن هذا الاستعمال صناعى جداً . أما الوجه الثانى ، قبل أداة الجواب ، نحو : « اللهم نعم ، اللهم لا » فتدل — كما يقول المعجم الكبير — على « تيقن المجيب » . غير أنى أرى رأياً آخر هو أن « اللهم » هنا هى « المنادى » التابع للأصل العام . وأنا أفهم التعبير : « اللهم نعم » على أنه اكتفاء من قولنا : « اللهم ، اشهد أن هذا الإيجاب (نعم) » .

وبالرجوع إلى رسالتى « صورة الإسلام فى الشعر العربى من الهجرة إلى وفاة عمر ابن الخطاب » (ليبزغ عام ١٩٣٧ م) نرى أن هذه الكلمة قد وردت فى بيت شعر واحد بروايتين (ص ١٣) :

* اللهم لاعيش إلاعيشَ الآخرة
فاغفرن للأنصار والمهاجرة
* لاهمّ إن العيش عيش الآخرة
فاغفرن للأنصار والمهاجرة

وكذلك يقول عمرو بن سليم الخزاعى :

* اللهم إنى ناشدٌ محمدا *

ولكنّ هذا البيت يروى فى صيغة ثانية « يا ربّ ، إنى ناشد محمّدا » . هذا بالإضافة إلى أن هذا « اللفظ » ورد (بحسب دراستى السابقة) فى السنوات الأربع الأولى من الهجرة وعند شعراء من المدينة .

وشئ آخر :

إن البيت الذى يورده المعجم الكبير لأبى خراش الهذلىّ :

* إنى إذا ما حدث ألمّا *
* دعوت يا اللهم ، يا اللهما *

أصله (مجموعة أشعار الهذليين ٢ : ٧٨) :

إنى إذا ما لَمَمٌ ألمّا
دعوت : يا اللهمّ ، يا اللهم
لا همّ ، هذا رابع إن تمّا
أتمه الله ، وقد أتمّا
إن تغفر ، اللهم ، تغفر جمّا
وأى عبد لك ما ألمّا

غير أن هذه الأشطر منحولة لأبى خراش (راجع ص ٧٥) . غير أننى لا أعرف إذا كانت هى لغير أبى خراش ثم نسبت إليه ، أو أنها منحولة بمعنى أنها قيلت فيما بعد ثم نسبت إلى أبى خراش . ويلفت النظر أن هذه ستة أشطر ورد فيها اسم الجلالة خمس مرات فى أربع صيغ : يا اللهم – لا همّ – الله – اللهم . ولعل فى ذلك شيئاً من الصناعة النحوية .

فى العصر العباسى وما بعده :

ثم كثر استعمال « حتى » حرف ابتداء . وقد اتفق أن مررت أنا بعدد من الشواهد ، ولكنى لم أستعرض ديواناً معيناً ولا مجموع شعر معيناً . وقد لاحظت أن هذا الاستعمال كان فى الشعر الأندلسى أكثر منه فى الشعر المشرقى ، أو هكذا يخيل إلى . وسأورد فيما يلى عدداً من الشواهد إيراداً عاماً بلا تعليق . إن استنفاد الشواهد ضرورى قبل التعليق عليها فعسى أن يأتى من يجعل ذلك موضوع دراسة ذات منهج معلوم .

أما الشواهد التى هى بين يدى الآن فهى التى تلى :

– قال أبو نواس ، وهو شاعر مشرقى ، فى الخمّار الذى أخذ منه فى شرب الخمر جميع ثيابه . (رِمته بالكسر من رام يريم : ترك ، فارق) :

فما رِمته حتى أتى دون ما حوت
يمينىَ ، حتى رَيطتى وحذائى

– وقال الطغرائى (وهو أيضاً مشرقى) :

بَخِلْنَ حتى بإهداء السلام لنا
والبخل فيهن محسوب من الكرم

والأبيات الثلاثة التالية من الشعر الأندلسى

– قال ابن فرج الجيانى :

. . . .
وأستحلى به حتى كروبى

– وقال محمد بن مسعود بن أبى الخصال (الذخيرة ، بيروت ٣ : ٧٩٤) :

تقدح الأيام حتى
فى المودّات القديمة

– وقال أحمد بن جعفر :

طَرِبَ ثنى حتى الجمادَ ترنُّحاً
وأفاض من دمع السحائب أعينا

أرجو أن أكون قد كشفت فى هذه العجالة عن جانب من التراث اللغوى العام الذى لا يخص لغة دون لغة ، بل هو عام فى اللغات كلها .

عمر فروخ
عضو المجمع من لبنان

أصالة ومعاصرة بتآن

للدكتور محمد عزيز الحبابي

البحث الذي اختاره مجمعنا الموقر في هذه الدورة، هو « تراثنا اللغوى » . ما اطلعت عليه حتى تبادرت إلى ذهنى عن طريق تداعى المعانى ، بعض المفاهيم على رأسها : كنز ، وأصالة ، واستلاب لغوى ، واغتراب . وبالطبع ، في عملية تداعى المعانى يجر كل مفهوم معه معارضه فمثلا عندما برز في الذهن مفهوم « أصالة » تبعه مقابله « معاصرة » .

وبما أن الوقت لن يسمح بتناول مجموع تلك المفاهيم سنكتفى بأقل ما يمكن منها .

* * *

عندما نقرأ العبارة (تراثنا اللغوى) ، نستنتج أننا أغنياء لغويا لكن ، إلى أى حد نستفيد من ذلك الثراء ؟ ألسنا كالجائع الجالس فوق كنز وهو يجهل ما تحته ؟ أو كما يقول شاعر عربي :

ومن العجائب ، والعجائب جمة
قرب الحبيب وما إليه وصول
كالعير في البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

إننا نعى قيمة تراثنا اللغوى ، ولكن استثماره دون حاجات الساعة الملحة . فإذا كنا قد عربنا التعليم ، أوقل مرافق التعليم ، فإن الحياة البيتية والمعاملات اليومية – أى الحياة المجتمعية – ما زالت خاضعة للدارجات . فخطاباتنا عامية لا علمية . من هنا يجب أن نبدأ . وقد بدأنا ولكن متى النهاية ؟

تلك مشكلة من مشاكلنا الكبرى ، وإن مجامعنا اللغوية تصارعها . أما المشكلة الثانية ، وهى أعم من الأولى وأعوص فهى الموقف من الأصالة والمعاصرة . لقد استبدت هذه المشكلة باهتمام أكثرية المثقفين العرب ، ولها ستتعرض هذه الصفحات .

يرى البعض أن التاريخ يفرض علينا أن نختار إما المعاصرة ، وإما الأصالة . تلك « إمّيّة » محرجة ومحيرة بلا مبرر .

(*) ألقى البحث فى الجلسة العاشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٨ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٣ من مارس ١٩٨٢ م .

١ ـ لكل عصر عصريوه :

لا اعتراض على استعمال « عصرى » وصفا لمن أحسن اندماجه فى القرن العشرين لكن من التجنى على اللغة وعلى الواقع أن نصف بعصرى من يتقن – فحسب – رقصة « السوينغ » و « بوب ميوزيك » . ويعرف آخر « موضة » فى الأناقة أو من يكثر من استعمال « حرمان» و « استلاب » و « إيديولوجيا » و « دياليكتيك » ، و« كبح » وألفاظ أخرى لها سحر« الموضة».

إن لفظ « عصرى » مشتق من عصر ، فالعصرى من ينتسب لعصر . وبما أن كل الناس عاشوا أو يعيشون فى عصر ، فكلنا « عصريون » .

وضع بعض المجـــددين فى مقابل « عصرى » – زيادة على « رجعى » – لفظ «ماضوى» من« ماضوية » ، وهى عندهم ، اتخاذ الماضى مرجعا ، على حساب العصر ، فكما أن الجميع عصريون (فأبونواس – مثلا – عصرى بالنسبة لعصر بنى العباس ومعاصر لهارون الرشيد . .) ، كذلك ماضوى لأن لكل شخص ماضيا ، عليه يتأسس شخصه (=شخصياته) ، وبه تحدد كينونته ويتم تشخصها . إن الماضى حضارة وثقافة ، أى تراث مشترك ، وذاكرة جماعية ،ومن هنا فهو «أصيل» فى الشخصية .

وبما أن التواصل من أبعاد الذات العميقة « الإنسان حيوان مدنى بالطبع » ، فكلنا «معاصرون » بالطبع ، معاصرة مع جميع من يحيون وإيانا نفس العصر ، وكلنا معاصرون لمن تجمعنا بهم ثقافة أو تراث ، لأن لنا ذاكرة شخصية وذاكرة جماعية .

عاصر أبو نواس هارون الرشيد وزبيدة ، وكان يحفظ المعلقات ، ويعرف الكثير عن أصحابها ، أكثر أحيانا مما يعرفه عمن عاشوا معه فى البلاط العباسى ، وحفظ أبو نواس القرآن واطلع على تاريخ الفترة التى تفصل وقته عن بداية الإسلام . ذاك هوأفقه الذهنى والثقافى ومنظاره على التاريخ الذى يمارسه وعلى التاريخ الذى يملأ ذاكرته ومخيلته ويثرى تفكيره .

فنحن جميعا إذن عصريون ورجعيون ماضويون ، فى نفس الآن ، وبالتساوى ، وسيبقى هذا التخريج مقولة محتملة الصحة إلى أن تحدد مفاهيم «معاصرة» و«ماضوية» « رجعية » تحديدات أخرى .

* * *

قام كثير من الكتاب العرب بتحديد « معاصرة » ، لكنهم وقعوا فى تناقضات ، حتى المفكر الكبير زكى نجيب محمود لم ينج من ذلك .

فمنهم من يدعى – باسم التقدمية ضرورة – الاستغناء عن التراث العربى الإسلامى لأنه عائق فى سبيل التفتح والرقى . فلابد من تنظيف ذهننا الحاضر من بقايا ما علق به من ماضى الأجداد ، ومن بين ذلك

اللسان العربي لكونه ميتا ولايقدر على مسايرة صيرورة التاريخ . فعلى مثل هؤلاء المصلحين ينطبق المثل العربي « أراد تطبيبه فأعماه »

وهناك طائفة أخرى تقدم لنا الغرب ، بكل ماله من مزايا ومساوئ كنموذج أوحد يجب أن نندمج فيه كي ننجو ولا نجاة عن غير ذلك الطريق .

بنى الغرب ثقافاته المعاصرة على أصالته ، فى حين يظهر أن أولئك المصلحين العرب يريدون منا أن نقفز من لا شيء إلى حضارة القرن العشرين ، أو على الأصح ، إلى ميادين انتصار الليبرالية فى القرن العشرين ، متجاهلين التجارب والتيارات الفكرية والتطبيقية الأخرى . إن الوقفة العربية الإسلامية مطالبة — فى الواقع — بأن تحتك بكل التيارات المعاصرة فـ «تعرب» وتصهر فى ذاتيتها وفى «أصالتها» ، ما هو حرى بأن يعينها فى الكفاح ضد التخلف .

فهل الغرب كله محاسن ؟

يفترض بعض مثقفينا أن المعاصرة تقتضى من العرب — قبل كل شيء — أن يضحوا بتراثهم ليتم الاغتراب على أكمل حال .

فما مقدار الربح فى هذه المقايضة ؟

إن محاكاة العرب للغرب استلاب ، ومحاكاته وحده يضاعف هذا الاستلاب . على أن هناك مستوى ثالث للاستلاب ، وهو الأفظع : أن نقلد غربا متحركا أبدا ، وبحركاته ينمى باطراد المسافة التى تفصلنا عنه ، دون أن نحافظ على ارضية ومعالم ! إنه التيه فى متاهة ، فنحن إذن ، لسنا مستلبين من لدن التراث العربى الإسلامى — كما يدعون — بل من قبل صورة وهمية عن الغرب ، تهيّشنا أكثر فأكثر ، فنزداد انفصالا عن مكوناتنا الأصيلة والأصلية .

فعلاوة على هذا الاستلاب الحلزونى — شكلا وكيفا — نسجل أن الصورة الوهمية عن غرب وهمى ترعرعت نموذجيتها فى عقلنا الواعى وعقلنا اللا واعى . إنها صورة تنزع بإصرار إلى توقيف حركات الغرب ومزجه بعالم « الأنا » . وبقدر ما ينفصل الأنا العربى عن جذوره الأصيلة يغدو قابلا لكل تشكيل ولكل تكييف يمارس عليه ، مع وعى منه وبدون وعى ما دام قد أمسى ، لا هو ذاته ولا غيرها . ينساق المستلب إلى أن يحيا فى زمان ليس عمليا — زماناً واقعياً — ، أو على الأصح ليس زمانه . اندفاعا مع التعود على الفردية ، يود لو يفرض نمطه من الحياة على مجموع البشر . إذن : نتواجد فى عالمين ، عالم التغير والتجديد ، وعالم التماثل (ا = ا) الفاقد للحركة لا نهاره الدائم أمام تصورات خياله عن الغرب .

* * *

إن الغرب نفســه يتغير باطّراد فى صيرورة متصاعدة . فلا غرابة أن يعتمد الغرب على تراثه الخاص عساه يحافظ على معالم ثابتة فى هويته ، وينفتح على ما يجرى خارج مناطقه دون تخوف من الذوبان .

* * *

لن يوصلنا إلى المعاصرة تجديد يرفض الأصالة إطلاقا لا بد من التوفيق بين الأصالة والمعاصرة ، لأنه يجعل بين قوسين التاريخ العربى الإسلامى ، فى حين يدعونا إلى الانفتاح على معاصرة مبنية على أصالة من نوع آخر ، على ليبرالية ترتكز على تاريخ الغرب يقينا ، إن هذا الاتجاه يجر إلى استلاب مضاعف : حرمان من التواصل مع التراث القومى العربى الإسلامى . وتقليد عشوائى لتاريخ أجنبى .

إذا كانت المعاصرة انتفاضة ضد التقليد والجمود يستحيل ألا يباركها كل مثقف واع ، أما إذا اعتبرت انتفاضة على ركام الأصالة (الهوية الثقافية والأخلاقية ، أى ما يُكوّن ويكيّف الشخصية الحالية) فلن يرغب أحد فى الانسلاخ عن ذاتيته ليرتمى ، بلا قاعدة ، فى أحضان الغير ويزكى الافتقار إلى التكنولوجيا المعاصرة والزعامية الغربية. علينا أن نقاوم المفاهيم الخرافية والمباحث الضبابية التهريجية التى سُجِنّا فيها على يد الاستعمار وما نزال سجناءها ، فالمقاومة فى الواجهتين ، تجعلنا « تقدميين » بالفعل لأنها مقاومة تفرض مثلا أعلى تعمل على تحقيقه. إن التطور والعقلنة والموضوعية تؤلف البديل العملى للخرافية .

فمقابلة «معاصرة» بـ« أصالة » مرفوضة . لم يرو التاريخ أن أمة بلا أصالة استطاعت أن تتعصّر ، فبعض المنظرين العرب لاينازعون فى هذا ، لكنهم يطلقون معنى خاصا على معاصرة : فالعصرى غربى ، كما أن العربى ماضوى لأنه فقد قدرته على التكيف مع التغيرات فأمسى غريبا فى العصر .

فلنفرض الآن أن الهدف هو أن نجعل منا نسخة طبق الأصل للغرب ، إذن فلننسلخ انسلاخا كليا عن شخصيتنا ونخلع على ذواتنا لباس الموت المحنط . أنكون بذلك وفقنا فى الحصول على بديل لأوضاع التخلف ؟

هذا النوع من الإصلاح والتقدمية لن يُلقى بالشعوب العربية إلا فى مغامرة الغربة والتلف ، لأن التطور والتقدم لا يحصُلان بطلاء برّاق لامع تبرنق به عظام وهى رميم .

* * *

بحسب التنميط الذى اعتمده صاحب « ثقافتنا فى مواجهة العصر»[1] ، إن الذهنية العربية مختلفة عن الذهنية التى

(١) زكى نجيب محمود ص ٥٧

تجعل القرار الإنسانى غير مسبوق بمعيار ؛ إن وجهة النظر العربية :

« تفترض أسبقية المعيار الذى يقاس به القرار فى صوابه أو خطئه ... إلخ »، بعد إقرار هذه الخاصية العجيبة ، يتساءل المؤلف :

« هل يمكن التوفيق بين أن يكون الإنسان عربيا يحمل هذه الوجهة من النظر وأن يكون فى الوقت نفسه معاصرا يتطور مع الزمان وتغيراته السريعة ؟ » .

بصدد هذا السؤال ، يمكن إبداء بعض الملاحظات :

— كل الذين يزعمون أنه من الممكن أن تدخل أمة المعاصرة ولو بلا أصالة يضربون المثل بالولايات المتحدة . بيد أنهم يتغافلون عن أن الأمريكيين الشماليين ورثوا أصالة أوربية حملوها معهم فى موجات استيطانية متوالية ؛ فاختلط هذا الإرث الضخم الكثيف بما كان عليه السكان الأصليون فالأمة الأمريكية الشمالية مزيج ثقافات اندمجت وزواج بين أجناس مختلفة أتت من القارات الخمس ، حتى اقتتل القادمون الكثير من الأهالى الأصليين ، لكن الحرب نفسها احتكاكات حضرية رغم كل سلبياتها .

يستخلص مما تقدم معارضة بين « الإنسان العربى » وهو على ما يظهر شبيه بالبدائى لأن ذهنيته ذهنية خاصة (ترفض الحرية والمسؤولية والسببية) .وبين الذهنية المنطقية العلمية القابلة للتجدد ؛ أى العقل القابل لأن يكون : « معاصرا يتطور مع الزمان وتغيراته السريعة » .

ماذا ادعى المستعمرون عندما استولوا على أراضينا ؟

ألم يؤكدوا ، فى الأثنلوجيات الخاصة بالعالم الثالث أن الذهنية ذهنيتان : الأولى تتحرك فى مرحلة ما قبل المنطق وفى طور السير نحو اكتساب التمنطق (بفضل الاحتكاك بالاستعمار) والثانية ذهنية المنطق والإدراك العلمى الخالى من الخرافة والسحر ؟

فعلى حسب تلك النظرية يحيا العربى بذهنية لاعقلانية تؤمن بـ «قانون المشاركة»(١) وتعوم فى ثقافة درويشية تقوم على الأدعية والكلمات السحرية فيقضى أصحابها أوقاتهم فى فلك ما فيها من غرابة وغموض ورموز .

فالمفكرون الذين يلحون على أن للذهنية العربية بنيات خاصة تميزها عن بقية الأقوام البشرية إنما يبررون — عن

---

(١) أى مايسميه ليڤى — برول : participation التى يمتاز بها الذهن — ماقبل المنطق .

غير قصد الأثنلوجيات المصنوعة بعون الاستعمار ولصالحه ، ضد الشعوب الضعيفة .

* * *

الأصالة مجموع أنماط الانفعال والتفاعل ، بها نسمو عندما نسمو ، وعلى حسابها يكون سقوطنا عندما ننحط . فهي إطار الوجدان والضمير في ترابطهما بفردية كل فرد وبالفردية المجتمعية . إنها نسق عام تنتظم فيـــه وبه حركية العلاقات الجماعية .

فالتقدمية الحق أو المعاصرة الحق ، لا تقصد خلاص الشعوب من ذواتها ، بل ما تقصده هو أن تتحرر الشعوب مما يصيبها من انحرافات عن صواب ذاتيتها. إن وجدان الشعوب وذهنيتها معرضان على الدوام لانحرافات تزحف من كل ميدان فتتقوقع الثقافة وتتفسخ الأصالة ثم تنغلق :

٢ ــ البــاب المغلق :

نعود إلى تساؤل زكي نجيب محمود[*] :

« هل يمكن التوفيق بين أن يكون الإنسان عربيا (....) وأن يكون في الوقت نفسه معاصرا يتطور . . . ؟ »

الجواب ، بالطبع ، هو : « لا يمكن » إذا تصورنا أن المفكر العربي الإسلامي على الشكل الخاص الذي يتصوره عليه صاحب « ثقافتنا في مواجهة العصر » ، أي إذا افترضنا أن بين الأصالة العربية الإسلامية والمعاصرة حساسية مفرطة وتناقضا عميقا .

فما الذي يبيح هنا هذا الافتراض ؟ هل « العربي » نوع يتميز عن بقية أنواع البشر ؟ وكيف نبرر تقابل « أصالة » و « معاصرة » ؟

الأصالة العربية الإسلامية تراث امتزجت فيه ذهنيات ، وتخاصب فيه سلوك أجيال بتجارب إنسانية. إنه سمد ذاكرتنا الجماعية ، وفي نفس الآن ، القاعدة التي يقوم عليها شعورنا بالانتساب إلى ما نحن ، وعليه نركز الوثبات نحو ما نريد أن نصير .

فمن الشعوب من فقد الأصالة لضحالتها أو لتفريط في الحفاظ عليها ، فبات مشلولا لا يقدر على المشي ، ومنها من أعمته أصالته حتى لم يعد له إلا نصف حقله البصري ، أي لا يبصر كل ما يتجدد حوله ، فيعجز عن الإسهام في التطور ، ولا يعرف معنى للمعاصرة ، لكن جميع تلك الشعوب مضطرة بدافع غريزة البقاء (البقاء في التاريخ لا في هامشه) إلى أن تحاول السير ولو بتعثر ، إلى الأمام ، وأن تفتح البصر على مسيرة التاريخ الحالية ، رغم المنظار الناقص . فالشعوب التي لا تقوم بتلك المحاولات تعرض نفسها للانعدام . إن الأصالة تمنح الشعوب طاقات وسمدا ، وأما المعاصرة فتوجهها لتتحقق تحققا سويا وجهة تاريخية غدية تختفي معها العاهات .

فما بالنا بمن فقد البصر كله والرجلين معا ولا يحاول التغلب على العاهات ؟

ذلك هو الحال المتوقع لكل شعب متخلف (أى لا يتطور / يجهل المعاصرة ، كجل الثالثين) ، وفى نفس الوقت ، يحبب إليه بعض منظريه أن يتجاوز أصالته / تراثه ، بالعدول عنه والانغمار فى الغرب وفى أصالة الغرب ! . . .

إن المكان الملائم لهذا الحيوان النادر العجيب هو حديقة الحيوانات بين الأصناف التى انقرضت أو التى يخشى انقراضها .

هكذا لا يخلو مفهوما « أصالة » و« معاصرة » من ارتباك . فلامندوحة من أن يطالبانا بالتحديد اللازم كى لا يبقيا فى مهب الريح . فعندما نقول « أصالة » يجب أن نحدد بالنسبة لأى زمان ولأى فترة من الزمان : هل الأصالة هى ماأقرته السلطة أوما أقره المؤرخون (على علاتهم فى الرحلات والجولات والحكايات الخرافية) أو الفقهاء المقلدون (الذين يدعون أن باب الاجتهاد قد أغلق) ؟

أم أن الأصالة هى ما جرت به الأعراف والعادات . . . ؟

أم هى الفلكلور ؟

و« المعاصرة » أهى ما عليه أمريكا الشمالية أم اليابان أم أوروبا وأية أوروبا : الشمالية أم الغربية ؟

وفى غرب أوروبا أيكون النموذج هو البريطانية العظمى أم البرتغال ؟

٣ - تأصيل المعاصرة :

يجب أن توضع كذلك الأصالة والمعاصرة بالنسبة لما يرجى منهما ، داخل مجموع الفعاليات الحياتية . إن الأصالة ليست كل التراث ، بل ما تأصل فى ذهنية الشعوب وسلوكها ، أو ما هو قابل لأن يستثمر فى حياتها حاليا . فالشعوب التى لا تستأنس بتراثها عند بناء مستقبل ترتضيه ، طبقاً للنماذج المعاصرة التى اختارتها ، شعوب مبتورة من حاسة التاريخ ومن الثقة بالنفس فكثير من المثقفين العرب مستلبون عموديا (قطيعة مع التراث العربى الإسلامى) وأفقيا (لأن تلك القطيعة تفصلهم عن الجماهير العربية والإسلامية) . فهم ضحية الانبهار بالغرب - كحاضر وكتراث - فمن المنظرين العرب للتجديد من يتأملون غالبا بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية وهم يتكلمون عن الأصالة العربية الإسلامية أو عن تعصير مجتمعاتهم .

إن التآنى الذى نريد أن يربط الأصالة بالمعاصرة جانب من جوانب المثاقفة فى معنى تلاتح ثقافتين أو أكثر قديمة (تراث) مع حديثة (معاصرة) ؛ فمثلا إذا تلاقحت الثقافة العربية الإسلامية مع ثقافات غربية حصل تلاحم ثقافى ينتج عنه نمط حى جديد ينسجم وأوضاعنا . فإلى أى حد تجوز مقابلة « أصالة » لدى أمة أو فرد ما ، بـ «خصوصية» ، فإذا كانت الأصالة حقا « تلتفت إلى الماضى » ، فلماذا يعاب عليها تمركزها فى التاريخ ؟ أيتصور وجود أمه أو فرد بلا تاريخ ؟

سؤال آخر :

هل « الخصوصية » تنفصل عن التاريخ؟

كيف يجوز وصفها بأنها « متطورة » وهى منفصلة عن التاريخ ؟ أليس التاريخ بنية التطور ؟

تؤكد الأنثر بلوجيا الحديثة أن «التراكم»(١) عملية ضرورية لنشوء الحضارات ونموها تمثل كل حضارة فى فترة ما مجموع العناصر المادية والمعنوية التى تجمعت لدى الأجيال الحاضرة ، بعد أن ورثتها عن الأجيال السابقة ، فى تتابع الأزمان ، وأضافت إليها خبرات وعطاءات جديدة . والعطاء الجديد إنما هو إضافات عناصر «عصرية» حية (حيوية) للتطور منها يتكون تراث الأمة أى تركات العصور السالفة (الماضى ، الأصالة الخاصيات القومية ، التاريخ ، . . .) .

* * *

أما بخصوص ما يدعيه « ع . العروى » من « تحجر الأصالة » ، فيجب أن نفرق بين تاريخ انقرض بانعدام الأمة أو الفرد — ويعى المتحدث أنه كذلك قد انتهى — وبين « تاريخ أصيل » ؛ أى ما زال يجرى فى عروق الأمة ويحدد رؤاها وسلوكها (جزئيا أو كليا) ، فتتطور به وتطوره .

إن الأصالة التى يتعرض لها «العروى» هى الأصالة العربية الإسلامية . كلنا نعرف أن العروبة والإسلام فى صيرورة تحتد فى قطاعات وتقل أو تجمد فى أخرى ، بحسب مستويات المثاقفة ، هنا أو هناك وبحسب توتر حياتها الداخلية وقدرتها على التواصل مع التيارات الخارجية .

فليست الأصالة تجمدا محضا ، كما أن المعاصرة ليست تجددا محضا . فالجمود يصيب حتى التجديد ، فى بعض الحالات ولو لفترة ((عوائد وأعراف غابت ، ثم طفت على ساحة التاريخ) ويصيب « الموضات » فتضمحل إلى الأبد ، بعد أن يتحمس لها الناس ويجعلون منها شعارا ورمزا للمعاصرة .

إن النظرة الأحدية تجر إلى الوثوقية ، على أن النظرة الازدواجية ، هى أيضا لا تخلو من خطر . فعندما يعطى زكى نجيب محمود نظرية عن الأصالة مرة بيضاء ناصعة ومرة سوداء حالكة ، لا يجد لدعم ذلك إلا أمثلة اختيرت اعتباطا تجره إلى بعض التناقضات . فهو يدعى أن الخلفاء لم يكونوا يتمتعون بحرية فى أعمالهم ، بينما نراهم فى كتابه نفسه ، يستبدون بالحكم ، أى يتمتعون بحرية مطلقة مع حرمان الرعية منها .

ولماذا لا يرى زكى نجيب محمود فى العصر العباسى إلا الطوائف الكلامية ؟

---

(١) accumulation = عملية تجمع بها تنشأ الحضارات وتنمو . فكل حضارة تمثل — فى فترة ما — مجموع العناصر المادية والمعنوية التى تجمعت لدى الأجيال الحاضرة ، بعد أن ورثتها عن الأجيال السابقة وأضافت إليها خبرات وعطاءات .

أين الغناء والأدب ومجالس الظرف والفكاهة والأندية العلمية والمعارك الفلسفية والفقهية . ومراكز الترجمة ؟

أين المخترعات والمكتشفات ؟

إن كل ثقافة تعرف تناقضات . صفحات مشرقة وأخرى مخزية . فمثلا ، في القرن العشرين تواجدت إنسية ماركسية محررة ومنفتحة على التقدم مع ماركسية كاسحة طوطيمية تعطل الفكر المعاصر وستالينية سفاكة للدماء ومعادية للحريات . كما تواجدت بأمريكا الشمالية (رغم تألقها في الاكتشاف والاختراع) سادية ماكارثية مقيتة . أما ألمانيا النازية فقد ساد فيها فكر جبار مبدع في خضم من العنصرية والوحشية .

* * *

لا ريب أن بالفكر — حتى الأكثر عقلانية — قابلية لمزج أدلة عقلية بأدلة « وجدانية » . فغالبا ما ينطلق المكافحون انتصارا للمعاصرة من افتراض أن الغرب وثقافة الغرب قد استقر تقديرهما في الوجدان العالمي وأنهما المصدران لكل رقي ولكل إنقاذ من التخلف . وبما أن هذا الموقف قبلي لا استنتاجي أو استقرائي ، جاء بلا دعامة علمية ، إنه مجرد انبهار .

هذا أولا . وثانيا : على أي أساس يريد خصوم الأصالة أن نبني تفكيرنا وآمالنا ؟ أعلى مركزية الغرب ، في الوقت الذي يتحدى كثير من مفكريه بالبحث عن ركائز جديدة وبإعادة النظر في مكوناته النظرية والأخلاقية والتكنولوجية ؟

أنأخذ عن الغرب ما يماري فيه هو نفسه ، أو ما هو في طريق البحث عنه وما يصادفه ؟

علينا أن نقتنع بنسبية الحضارات . حتى الغربية منها فالإيمان بمركزية الحضارة الغربية استلاب يعمي الرؤية عن الواقع والإمكانات ويسد آفاق المستقبل . نعم إن الاقتباس من الغرب واعتبار حضارته معطيات تاريخية إنسانية شيء ضروري .

الثقافات القومية كلها نسبية . فلا صدارة مشروعة ولا مركزية دائمة لهذه أولتلك ، وفي كل الميادين وعلى مستوى النموذج سوى في (عالم المثل)[1] . فالجائز والمعقول هو تبادل الخبرات والاحتكاك الثقافي والاقتباس ، أما التبني والنسخ التام فلا يحصل عنه إلا المسخ التام .

ولنتأمل هذا المثال : زكي نجيب محمود يكتب بالعربية ، بفن وإتقان ، كعيون كتابنا الاتباعيين الكبار . وتشعرك كتاباته بأنه متعمق في التراث العربي الإسلامي كما تشعرك بأنها لحمت بعناصر غربية تلحيا مستساغا مما يعطي لأسلوبه في

(١) في كتابنا من المنغلق إلى المنفتح عشرون حديثا عن الحضارة الإنسانية والثقافات القومية ، القاهرة ، الأنجلو المصرية .

الكتابة وفى التفكير طابعا لا معا خاصا ، هذا ما لا تحس به فيما ينشره كتاب من جيله لم يتثاقفوا . فلو كان زكى نجيب محمود أحدىّ الثقافة (إما عربية إسلامية ، أو غربية محضة) لما أعطى ما أعطى ، وعلى المستوى الذى نعرفه ونعتز به فالإمية (إما المعاصرة وإما الأصالة) لن تمدنا أبدا بأمثال زكى نجيب محمود . إنها فقر ثقافى فاقع اللون يجعل من (إمية) ، بهذا المعنى ، معادلة لـ « أمية » . هذا يذكرنا بما صرح به الحسن الثانى فى حديث مع الإذاعة والتلفزة الفرنسية (أواخر نوفمبر ١٩٧٦)

« إن الأمى هو الذى لا يعرف إلا لغة واحدة » .

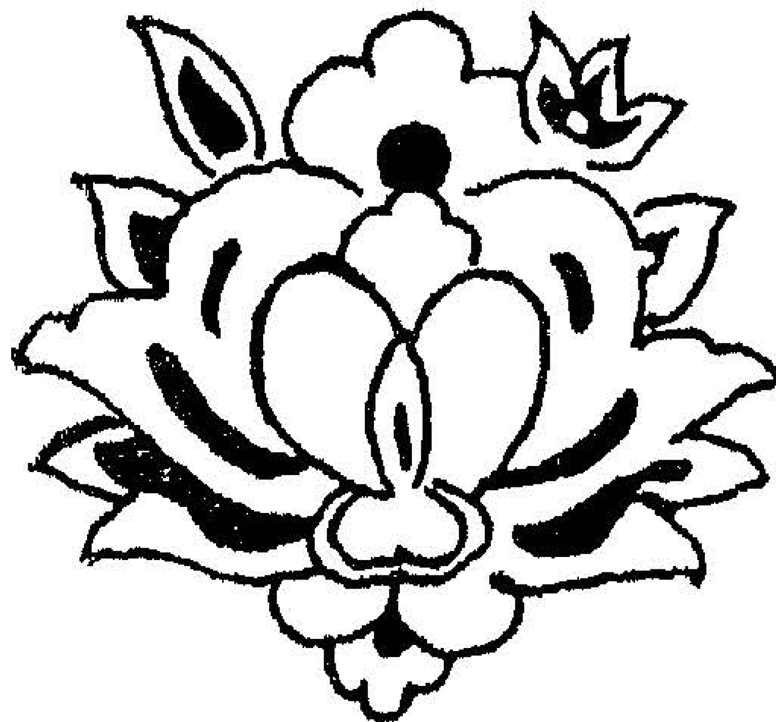
ونأخذ « لغة » هنا بمعنى لسان وثقافة ، وبالتالى ذهنية أحدية .

فواجبنا أن نقتبس من الغرب ما ننمى به ما عندنا ، بحسب الحاجات دون أن نتغرب باسم المعاصرة . فلا فائدة فى أن نبدأ من حيث بدأ الغرب تاريخه لنصل إلى الليبرالية ، طبقا لنصيحة عبد الله العروى ، كما لا فائدة فى أن نجعل من الغرب الغاية والنموذج والوسيلة وهو يتجدد يوميا . إن الغربيين أنفسهم يحاربون انحرافات فكرية وسلوكية تسود حاليا مجتمعاتهم .

فلا استعداد للالتحاق بالمعاصرة عند من لا أصالة له ، لأنه بلا جذور إن الأصالة وفاء بالعهد نحو التاريخ القومى ، ما دام لهذا التاريخ قدرة على إضاءة الحال والإسهام فى خلق المستقبل . فدراسة تاريخ الأمة ليست هى الحفر على دفائن المقابر ، بل بناء يتجدد . التراث الحى هو الذاكرة الجماعية التى يستوحى منها الشعب قيمه .

النتيجة العامة لمجموع ما سبق هى : وجوب تأصيل المعاصرة وتعصير الأصالة/ تكييفها داخل الصراع ضد التخلف .

محمد عزيز الحبابى
عضو المجمع
المراسل من المغرب



جولة مع تراثنا اللغوى وبعض من محفوظه

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

إذا قلنا (تراثنا اللغوى) فقـد يعنى ذلك تلك الثروة اللغوية اللفظية التى وصلت إلينا عن طريق المعجمات اللغوية اللفظية التى انتهت إلينا ، بدءا من كتاب (العين) للخليل ابن أحمد ت سنة ١٨٠ هـ ، ومرورا بكتاب البارع لأبى على القالى ت ٣٥٦ هـ ، فالتهذيب للأزهرى ت سنة ٣٧٠ هـ ، فالمحكم لابن سيده ت سنة ٤٥٨ هـ ، فالجمهرة لابن دريد ت سنة ٣٢١هـ ، فالمجمل لابن فارس ت ٣٩٥هـ ، فالصحاح للجوهرى ت فى حدود ٤٠٠ هـ فالتكملة والذيل والصلة ، والعباب للصاغانى ت ٦٥٠ هـ ، فلسان العرب لابن منظور الأفريقى المصرى ت ٧١١ هـ ، فالقاموس المحيط للفيروزابادى ت ٨١٧ هـ . فتاج العروس للزبيدى ت ١٢٠٥ هـ ، فالمعيار لميرزا محمد على الشيرازى ت بعد ١٢٧٣ هـ ، فأقرب الموارد للشرتونى ت سنة ١٩١٢ م . فالبستان للشيخ عبد الله البستانى ت ١٩٣٠ م ، وانتهاء بالمعجمين الوسيط والوجيز لمجمع اللغة العربية القاهرى ، فالمعجم الكبير الذى تعمل لجنته فى جمع مادته وإعداده ، وندعو الله أن يبارك فى أعمارنا جميعا لنراه ، أو يراه أبناؤنا وحفدتنا فى جزئه الأخير .

نعم ! فقد يعنى (التراث اللغوى) كل هذه المعجمات وأشباهها من عشرات المصنفات المعجمية اللغوية التى لم نذكرها ، ولا أظن المجال يتسع لذكرها هنا . ولكن فى الحق أنه كانت هناك قبل حركة تدوين اللغة عن طريق « المعجمات اللفظية » حركة أخرى قام بها الرواة منذ بداية القرن الثانى الهجرى لرواية أخبار العرب وأشعارهم وعلومهم ومأثور أقوالهم وخطبهم . فكان ذلك بداية لجمع اللغة العربية بمأثوراتها المختلفة فى الشعر والنثر على السواء .

والحق أن حركة الرواية والجمع هذه تعد الباكورة الأولى للرصيد اللغوى الضخم الذى ظل ينتقل إلينا متضخما ، بدءاً من العين والجمهرة والصحاح ، حتى بلـغ تلك الحصيلة الهائلة التى رصدتها بالتدوين معجمات ضخمة انصبت فى (لسان العرب) أولا ، و (فى القاموس المحيط) ثانيا ، وفى

(*) ألقى البحث فى الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ١٠ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٦ من مارس ١٩٨٢ م .

(تاج العروس) بعد ذلك. ومن الإنصاف أن نعد (الرواة) من جماعة اللغويين الذين حفظوا لنا التراث اللغوى، بل الحق أنهم يأتون على قمة اللغويين، لأنهم هم الذين هيأوا لهم مادة عظيمة للتدوين اللفظى فى المعجمات. وماهذه المجموعات الصغيرة التى يشتمل كل منها على ألفاظ موضوع بعينه إلا النواة الأولى للتصنيف اللغوى المتخصص الموضوع، لا على أساس أحرف معينة كحروف الحلق، أو على أساس ترتيب حروف الكلمة من بدايتها أو من نهايتها، بل على أساس موضوعى معنوى بحت. فقد ألف الأصمعى ت ٢١٤ هـ رسائل أو مجموعات صغيرة فى موضوعات مختلفة كانت لها تلك الرسائل شبه معجمات موضوعية. وهل ننسى من كتب الأصمعى فى هذا الباب: كتاب الخيل، وكتاب الشاء، وكتاب الإبل، وكتاب النخل والكرم؟ وله فى هذا المجال بضعة عشر كتابا طبعت فى بيروت أو فى فينا منذ قرن من الزمان. فكتاب النخل –مثلا– ليس فى موضوع زراعته ومواسمه وعلاج أمراضه، ولكنه يمد القارىء برصيد لغوى فى أسماء النخل وصغاره وأجزائه من علق وسعف، وكرب، وكرانيف، وطلع، وجمار وغيرها. وكذلك بقية هذه الكتب، تتصل بألفاظ موضوعاتها، ولاتتصل بدراسة الموضوعات ذاتها. وتعد بداية الأصمعى ونظرائه من الرواة الأولين فى مثل هذه الرسائل اللغوية بداية تصنيف المعجمات الموضوعية التى مازالت تنمو وتتطور، وتتضخم، حتى بلغت كتاب (التلخيص فى أسماء الأشياء) لأبى هلال العسكرى المطبوع فى دمشق بعناية مجمع الشام شقيق مجمعنا، وانتهت إلى كتاب (المخصص) لابن سيده، ويعد أضخم وأوسع معجم للمعانى والموضوعات. وقد رزق (المخصص) حظا غير قليل حين هذبه اثنان من خيار سلفنا فى دار العلوم، وكان أحدهما عضوا بمعجمنا هذا، وأسمياه (الإفصاح) فوفقا فى التلخيص والتهذيب، وزادا على ابن سيده بالمراجعة والمقابلة والتحقيق. وفرق مابين المعجمات اللغوية ومعجمات المعانى والموضوعات، كالمخصص والإفصاح – أننا فى الأولى نبحث عن معنى لفظة موجودة تحتاج إلى شرح غريبها، أما فى الثانية فنحن نبحث عن لفظ حين يحضرنا معنى مراد.

ويتصل بموضوع تراثنا اللغوى – وإن كان لا يدخل فى باب المعجمات اللغوية – كتب (النوادر) فى اللغة. وتشتمل على ما ندر استعماله من الألفاظ ودلالاتها. وعند صاحب (اللسان) أن نوادر الكلام هى ما شذ وخرج من الجمهور، وقد وضع اللغويون قاعدة فى معنى النادر، وتقنين مرتبته فى الفصاحة. وعبر عن ذلك ابن هشام بقوله: (اعلم أنهم يستعملون: غالبا، وكثيرا، ونادرًا، وقليلا، ومطردا، ومهما يكن من خلاف بين رجال

اللغة على تحديد معنى « النادر» فإن كتب (النوادر) كثيرة أوفت على الخمسين كتابا ابتداء من أبي عمرو بن العلاء ، ت ١٥٤ ﻫ ومرورا بالكسائي ت ١٨٩ ﻫ،وابن الأعرابي ت ٢٣١ﻫ ، وابن جني ت ٣٩٢ﻫ ، والقالي صاحب الأمالي ت ٣٥٦ ﻫ ، وانتهاء بصاعد الأندلسي ت ٤١٠ ﻫ،وقد رزق كتاب النوادر لأبي مسحل حظا عظيما حين أصدره مجمع دمشق في جزئين كبيرين بتحقيق الدكتور عزة حسن .

واتجه في الوقت نفسه جماعة من اللغويين الرواة إلى تحديد (الفروق) الدقيقة بين معاني الألفاظ ، مع اختلاف الألفاظ تبعا لاختلاف المعاني الواردة على شيء واحد، كالفرق بين البشرة والأدمة في جلد الأنسان، فالبشرة لظاهر الجلد. والأدمة لباطنه، وكالفرق بين الوفرة واللمة ، فالوفرة الشعرة إلى شحمة الأذن ، فإذا ألمت بالمنكب فهي لمة ، وكالفرق في الضروغ ، فالثدي للمرأة ، والضرع لكل ذات ظلف، والخلف لكل ذات خف، والطبي للسباع وذوات الحافر. وكان الأصمعي من أقدم المصنفين في كتب الفروق ، وكتابه مطبوع بالنمسا. ثم جاء ابن قتيبة ت٢٧٦ ﻫ فأودع كتابه (أدب الكاتب) أبوابا في الفروق، كالفروق في خلق الإنسان ، وفي الأفواه وفي ريش الجناح ، وفي قوائم الحيوان ، وفي الأصوات وغيرها. وجاء أبو هلال العسكري فصنف كتابه (الفروق اللغوية) ويقع في ثلاثين بابا .

وقيض الله للغة جماعة من الحفظة والخزنة ، فقيدوا شوارد الألفاظ والتعبيرات في مصنفات لا تدخل في باب المعجمات ، حتى يجعلوها سهلة التناول والتداول ، خدمة للأدباء، والكتاب والشعراء ، وليقلوها إلى مجال الاستعمال في الكتابة والخطـابة ، بتبويبها وفقا للمعاني السائرة ، والأمور الدائرة ، مع إصابة اللفظ للمعنى حتى يكون على قدره لا يخطئه بزيادة أو نقصان . كقولهم في معنى (البرء): أفاق من الغشي ، وصح من العلة ، وصحا من السكر ، واندمل من الجرح ، وكقولهم في ضروب المشي : الرجل يسعى ، والصبي يدرج ، والشيخ يدلف ، والفرس يجري ، والغراب يحجل ، والحية تنساب ، والعقـرب تدب . كالذى فعلـه الثعالبي ت ٤٢٩ ﻫ في كتابه (فقه اللغة وسـر العـربية). وقريب من هـذا الغرض ما صنعه عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني ت ٣٢٦ ﻫ ، فقد لاحظ أن كتاب عصره لا يستطيعون تغيير معنى بغير لفظة لضيق وسعهم ، وفقر محصولهم ، فصنف كتاب (الألفاظ الكتابية) ليمد المنشئين والمترسلين بفيض من المترادف والمتوارد في جمل وجيزة تسعف الطالب بما يريده من اللفظ بأيسر

طريق، وأدنى لمح، مع غض النظر عن الفروق الدقيقة بين المترادفات : كقوله (شفيت صدر فلان من عدوه ، وبردت غليله ونقعت غلته وشفيت حرقته ، وأوريت حرته) وكقوله فى "باب مصالحة الزمان ، ومهادنة الأيام (سامح لهم الدهر، وتغافل عليهم الزمان، وسالمتهم الأيام ، وساعدتهم الأعوام ، وهادنتهم صروف الزمان ، وعدلت عنهم الليالى ، وتنكبتهم ، وتعدتهم ، وتخطتهم)

وجاء اللغوى الشيخ إبراهيم اليازجى من أهل زماننا هذا، فأعجبه كتاب الهمذانى ، ووافقته طريقته ، فزاد عليه ، ووسع فيه . وكثر فى أبوابه ، حتى استوى له من ذلك كتاب كبير فى جزئين ، أسماه (نجعة الرائد ، وشرعة الوارد) وقد لقى من الرواج والإقبال عليه ما أكد حاجة الكتاب فى ذلك الزمان ، "إلى فيض من الإنشاء والبيان .

ولفت النظر عند بعض علمائنا وحفظة تراثنا اللغوى القدامى ورود كثرة كاثرة من الألفاظ العربية التى تقع على الشئ وضده ، والحق أن وقوع (الأضداد) فى اللغة شىء حير الباحثين ، وذهبوا فى تعليله مذاهب شتى . ولكنهم عدوه فى الواقع اللغوى . واتخذ الشعوبيون من هذه الظاهرة فى اللغة سببا للزراية على العرب ورميهم بنقصان الحكمة وقلة البلاغة ، والميل إلى الالتباس والتلبيس فى الكلام .

ولكن هذه الأحكام الجائرة على وقوع التضاد فى لغة الضاد لم تمنع اللغويين من تصنيف كتب فيه ، تكون ثروة قيمة فى تراثنا اللغوى . وبدأ التأليف فى (الأضداد) منذ بداية القرن الثالث الهجرى على يد (قطرب) ت ٢٠٦ هـ ، وتبعه جماعة على رأسهم الأصمعى ، والتوزى ت ٢٣٣ هـ ، وابن السكيت ت ٢٤٤ هـ وأبو حاتم السجستانى ت ٢٥٥ هـ وابن الأنبارى ت ٣٢٨ هـ ، وأبو الطيب عبد الواحد اللغوى ت ٣٥١ هـ ، وآخرهم الصاغانى ٦٥٠ هـ، وهو صاحب (التكملة والذيل والصلة) التى نشرها مجمعنا القاهرى فى ستة أجزاء كبار على يد جماعة من محققينا الأفاضل .

وقد تأتى (الأضداد) فى المعجمات اللغوية العامة ، كالجمهرة ، والصحاح، واللسان والقاموس المحيط ، فيكتب المعنيان المتضادان ويذكر بعدهما كلمة : «ضد» . ولكن إفراد هذه الأضداد بكتب مستقلة قائمة بذاتها هو شىء فيه مزيد اهتمام وتخصيص. وإذا كان اللغويون قد رتبوا الأضداد فى كتبهم الخاصة وفقا للمعانى والموضوعات ، فأن بعض من صنفوا فى الأضداد رتبوا كتبهم على حروف المعجم ترتيبا هجائيا . وكان أول من اتبع هذه الطريقة المعجمية المنظمة أبو الطيب عبد الواحد الحلبى اللغوى فى كتابه المشهور : (الأضداد فى كلام العرب) ، وإن كان لم يلتزمها التزاما

دقيقا فى الكتاب كله . ولعل مثالا واحدا صغيرا من أمثلة أضداد عبد الواحد يوضح لنا طريقته فى النقل عمن سبقوه من علماء اللغة . قال فى أول باب التاء : (قال أبو حاتم: التبيع الذى يتبع المرأة حيث كانت، يتعشقها . والمرأة المتبوعة أيضا تبيع . وفى القرآن العظيم : « ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » . قال : أظنه : فاعلا . والله أعلم . وقال « قطرب » : التبيع المتبع والتبيع المتبع . وقال التوزى : التبيع التابع ، والتبيع المتبوع) .

ومن موضوعات التراث اللغوى التى لاتدخل فى المعجمات اللغوية ، ولكنها تدخل فى اختلاف المعانى باختلاف أبنية الكلام ، موضوعات اختلاف أبنية الألفاظ واختلاف المعانى تبعا لذلك . وقد أفردت لها كتب مستقلة محررة فى كلام مرسل ، أو فى أراجيز تحصرها وتضبط بناءها ، كالذى فعله ابن مالك النحوى ت ٦٧٢ ﻫ فى كتابه المسمى (الأعلام، بمثلث الكلام) ، وهو كله أرجوزة لغوية . ومن قوله فى تثليث الجيم ، من لفظة (جراء) :

شبيبة الجارية (الجراء)
لكن جروا جمعه (جراء)

وفائق فى الجرأة (الجراء)
ألحق بالعجيب والعجاب

ومن قوله فى تثليث الجيم من لفظة (جرة) :

واحدة من الجرار (جرة)
وكل ذى كرش له انسب (جرة)

ومن مصائد الظباء (الجرة)
يعنى بها قوم ذوو اكتساب

ويجرنا الحديث عن مثلث الكلام فى تراثنا اللغوى إلى الحديث عن نوعى المثنى الجارين على الحقيقة والتغليب . فذلك موضوع لغوى مفيد طريف أفرد له المحبى — صاحب خلاصة الأثر والمتوفى سنة ١١١١ ﻫ — كتابا لغويا جليلا أسماه : (جنى الجنتين ، فى تمييز نوعى المثنيين) ، وراعى فى هذا الجمع بين التثنية على الحقيقة والتثنية على التغليب ، لكمال الارتباط بين الاثنين ، وإن كانا — فى الأكثر — يعدان من المتباينين . ومن كلامه فى المثنى على الحقيقة (الأخبثان : الغائط والبول . يقال : خبث الشىء خبثا ، وخباثة خلاف طاب فى المعنيين . قال : شىء خبيث أى نجس أو كريه الطعم والرائحة هذا هو الأصل ، ثم استعمل فى كل حرام . وفى القاموس: الأخبثان : البخر والسهر ، أو السهر والضجر أيضا . وفى لسان العرب عن : الأخبثان : القىء والسلاح[1] .

ومن كلام المحبى فى المثنى على التغليب : (الباكران : الصبح والمساء ، غلب الصبح

(١) السلاح بضم السين : السلح والنجو الرقيق .

لأنه هو الباكر فى الحقيقة، والأبوان : الأب والأم . والقمران : الشمس والقمر ، غلب لفظ القمر لخفته بالتذكير ، وإن كان الشمس أنور ، وهى أصل لنور القمر) .

ومن التعليقات والتعقيبات اللطيفة التى صادفتنا فى هذا الكتاب بخط العلامة اللغوى أحمد تيمور باشا ماكتبه بيده تعقيبا على كلمة « الأخبثان » التى سبق ذكرها : (قلت : والأخبثان : القلب واللسان من الإنسان . حكى أن لقمان كان أول نجابته أن أعطاه سيده شاة وقال له : اذبحها وائتنى بأطيب مافيها، فأتاه منها بالقلب واللسان . ثم أعطاه شاة أخرى وقال له : اذبحها وائتنى بأخبث مافيها ، فأتاه أيضا بالقلب واللسان . فسأله سيده عن ذلك فقال له : إنه لا أطيب منهما إذا طاب الجسد ، ولا أخبث منهما إذا خبث) .

وقد أثرى بعض حفظة تراثنا اللغوى خزانة هذا التراث العظيم بكتب وضعوها فى (الأمثال)قيدوابها شوارد اللغة،لاعن طريق معجمات لغوية للألفاظ ، ولكن عن طريق رصد الأمثال العربية ، وتبويبها وترتيبها بواحد من طرق الترتيب المحتملة ، كالترتيب وفقا لأوائل الكلمات وحروف الهجاء ، أوالترتيب على حسب أبواب المعانى والموضوعات . وقد اتبع (الميدانى) ت ٥١٨ هـ طريقة الترتيب على حروف الهجاء ، على حين اتبع الإمام الحافظ أبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤ هـ طريقة تبويب الأمثال على الأبواب التى جعلها سبعين ومائتى باب على سبعين ومائتى معنى من المعانى الدائرة بين الناس ، وأدخل فى كل باب مايمكن أن يندرج تحته من الأمثال ، فاستوى له من ذلك ستة وثمانون وثلاثمائة وألف مثل ، فسر غريب ألفاظها وجلا غامض أسمائها ، وشرحها شرحا واضحا لاخفاء فيه . ولم يكن الإمام القاسم بن سلام السابق إلى الجمع اللغوى لأمثال العرب ، فقد سبقه إلى ذلك أربعة من رجال اللغة ، هم الأصمعى وأبو زيد الأنصارى ت ٢١٥ هـ ، وأبو عبيدة معمر ابن المثنى ت ٢٠٩ هـ ، والمفضل صاحب المفضليات ت ١٦٨ هـ ، فأفاد منهم ، ونقل عنهم أكثر ماجاء فى كتبهم من الأمثال ، كما أفاد من لغويين لم يؤلفوا فى أمثال العرب ، كالفراء ، والكسائى ، وأبى عمرو الشيبانى ، وابن الكلبى ، ويحيى بن المبارك المتوفى سنة ٢٠٢ هـ وغيرهم .

بقى أن نقول إن جماعة من قدماء اللغويين ومحدثيهم قد بذلوا جهدهم فى صيانة تراثنا اللغوى بتنقيته وتخليته مما طرأ عليه من لحن وأوهام وأخطاء . وهذا الجهد السلبى غير الإيجابى هو عمل مقدر مشكور ، وسعى موفق مبرور ، فلولا هؤلاء الراصدون للحن العوام وأخطاء الاستعمال لفشا اللحن فى لغتنا الشريفة فشوا عظيما .

ومن السابقين فى هذا المجال : الكسائى ت ١٨٩ هـ ، وابن السكيت ت ٢٢٤ هـ فى

كتابه (إصلاح المنطق)، وأبو حنيفة الدينورى ت ٢٩٠ هـ فى كتابه (لحن العامة)، وابن خالويه ت ٣٧٠ هـ فى كتابه المشهور: (ليس فى كلام العرب)، والزبيدى ت ٣٧٩ هـ - فى كتابه (لحن العوام)، وأبو هلال العسكرى ت ٣٩٥هـ فى كتابه (لحن الخاصة)، والحريرى صاحب كتاب المقامات فى (درة الغواص)، وابن الجوزى ت ٥٩٧ هـ فى (تقويم اللسان) والخفاجى ت ١٠٦٩ هـ فى كتابه (شفاء الغليل)، وابن كمال باشا ٩٤٠ هـ فى كتابه (التنبيه على غلط الخامل والنبيه). ومن المحدثين الذين ألفوا فى هذا الميدان: الشيخ إبراهيم اليازجى فى (لغة الجرائد)، وأسعد داغر فى (تذكرة الكاتب)، ومحمد العدنانى فى (معجم الأخطاء الشائعة).

سادتى، زملائى! تحقيقا للمثل العربى القائل: رب ضارة نافعة، فإن عدم الفهم لمعانى ألفاظ اللغة، وكثرة وقوع اللحن حتى ممن لايتصور وقوع اللحن منهم هو الذى دعا إلى الاهتمام بالتأليف فى كتب اللحن وإصلاح المنطق أولا ثم المعجمات بعد ذلك. والشر قد ينتج الخير.. ولعل من طريف حكايات اللحن ماوقع من «أحمد بن عمار» صاحب الأمر فى خلافة المعتصم العباسى، وكان المعتصم أميا، على غير ماكان عليه أخواه الأمين والمأمون، فورد على الخليفة كتاب من أحد الولاة وفيه هذه العبارة: (ومطرنا مطرا كثر عنه الكلأ)، فقال المعتصم لابن عمار: ماالكلأ؟ فقال: لا أدرى، فقال المعتصم: إنا لله وإنا إليه راجعون خليفة أمى؟ وكاتب أمى!! وكانت هذه الحادثة سببا فى عزل ابن عمار، وتولية محمد بن عبد الملك الزيات مكانه...

ومن الطريف أيضا أنه كان يقوم دائما الأخذ والرد والشد والجذب بين أصحاب ذلك اللون الأخير من كتب التصحيح اللغوى أو التخطئ اللغوى على السواء، لتعصب كل واحد لرأيه، واعتداده بنفسه.

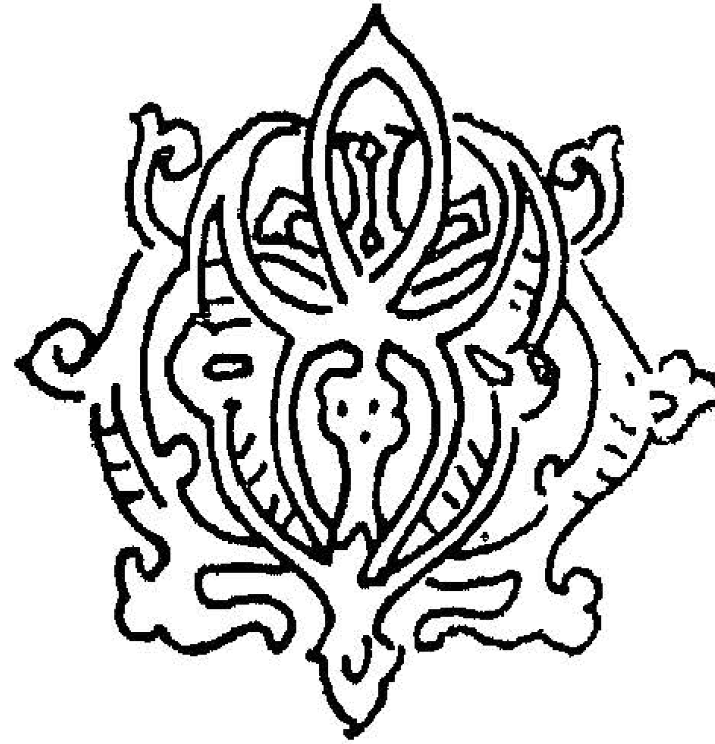
فقد رأينا (الشهاب الخفاجى) فى القديم يرد بكتابه (شرح درة الغواص) على الحريرى ويخالفه فى كثير مما قاله أو أنكره، بل قد يصوب له فى لغة متعالية. كما رأينا فى الحديث اللغوى (أمين ظاهر خير الله) يرد على الأب أنستاس مارى الكرملى - العضو السابق بمجمعنا القاهرى هذا - فى كتاب قائم بذاته عنوانه: (علم الأب الكرملى، أو المحجة البيضاء، فى صحة نعت الجموع بفعلاء) فيقسو عليه، ويسخر منه بمثل قوله فى أحد مواطن الكتاب: (مامن عالم معاصر للأب الكرملى إلاصوب الكرملى إلى صدره سهامه، وأصلت فوق رأسه حسامه. ويالها من سهام لاتصيب مرمى وأعجب به من حسام من الأسرب - يعنى معدن الرصاص - يتكسر فى يد الجبار!)

وحين كثرت هذه المشاحنات والمشادات اللغوية القاسية بين المشتغلين باللغة العربية فى عصرنا الحديث ، أصاب وابلها بعض الأفاضل من أمثال الشيخ إبراهيم اليازجى العفيف اللسان ، الذى انسحب منها ظافرا بكرامته ، فائزا من الغنيمة بالانسحاب ، قائلا فى أدب كريم ، وخلق عظيم :

ليس الوقيعة من شأنى ، فإن عرضت
أعرضت عنها بوجه بالحياء ندى
إنى أضنّ بعرضى أن يلم به
غيرى ، فهل أتولى خرقه بيدى؟

وهكذا يكون العلم مع الأخلاق

محمد عبد الغنى حسن
عضو مجمع اللغـــة العربية



نقد الشعر عند صاحب المثل السائر

للدكتور عبد الله الطيب

سأحاول فى هذه الكلمة القصيرة أن أعرض أهم ماتناوله صاحب المثل السائر فى من القضايا المتعلقة بنقد الشعر :

أول هذه القضايا ، ضرورة معرفة النحو والصرف واللغة . وهذه القضية جلية لا تحتاج إلى كبير تفصيل .

ثانياً : مسألة العمق الشعرى الذى لايتوصل إليه بشرح المعانى ومعرفة وجوه الإعراب ، ولكن لابد مع ذلك من التغلغل إلى ما اشتمل عليه الشعر من أسرار الفصاحة والبلاغة . قال فى أوائل مقدمته : ومن ها هنا غلط مفسرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية وتبين مواضع الإعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة ا . هـ . ص ٤ من المثل السائر ، طبع بولاق سنة ١٢٨٣ هـ .

أحسب أن ابن الأثير أراد بقوله : « غلط مفسرو الأشعار » أن هذا هو الغالب على أساليبهم ، ولا يخفى أن مفسرى الأشعار قد كان مما يهمهم أمر الفصاحة والبلاغة كما كان يهمهم أمر النحو واللغة . وقد كان اختلافهم فى تفسير الألفاظ وظواهر المعانى فى كثير من الأحوال فرعا من تناولهم لجوانب الفصاحة والبلاغة ، من ذلك مثلا ما أخذوه على امرئ القيس حيث قال :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت
تعرض أثناء الوشاح المفصل

فقالوا إن الثريا لاتتعرض. وأورد أبو العباس المبرد هذا البيت فى باب التشبيه يستشهد به على حسنه .

والذى يوقف عنده من كلام ابن الأثير فطنته إلى أن ظاهر المعنى واللفظ فى الأشعار إنما يمثل جانبا من كلها ودلالتها . وأسرار الفصاحة والبلاغة هى التى يكمن فيها جوهر الدلالة الشعرية . على أن ابن الأثير قد نبه فى أول شروعه فى المقدمة أن أسرار الفصاحة والبلاغة نفسها مدارها على الذوق السليم . وأن بيان مواضع الفصاحة والبلاغة مما يستعين به الذوق السليم ويعين على تنميته . قال : « واعلم أيها الناظر فى كتابى أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب — وإن كان

(*) ألقى البحث فى الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين ، فى ١٠ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ الموافق ٦ من مارس ١٩٨٢ م .

فيما يلقيه إليك أستاذاً وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك هذا ". فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعا ،! وأهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخبر عيانا ، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً ، وكل جارحة منك قَلْباً ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فإن حمل النصال ، غير مباشرة القتال .

وإنما يبلغ الإنسان غايته
ماكل ماشية بالرحل شملال ا.هـ»

(ص ٣ من المثل السائر) .

ثالثا : مسألة الابتداع والسرقة والأخذ فى الشعر . ومع أن النقاد الأولين قد فصلوا فى هذا الباب كل التفصيل ، يوشك ابن الأثير أن يكون قد انفرد من بينهم بالفطنة إلى فرق ما يكون ابتداعاً حقا وما يكون سرقة وما يكون من باب توارد الخواطر أو الأخذ المألوف .

وقد تعرض ابن الأثير فى أول كتابه لضرورة معرفة كلام العرب القدماء والاطــلاع على أخبـــار أيامهم ووقائعهم ونبه على أهمية الاطلاع على الأشعار لأن ذلك يعين على الابتكار . قال: (ص ١٨) وأما النوع الرابع وهو الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور فإن فى ذلك فوائد جمة لأنه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته فى ذلك ، فإن هذه الأشياء ممـا تشحذ القريحة ، وتذكى الفطنة ، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفاً بها تصير المعانى التى ذكرت وتعب فى استخراجها كالشيء الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد ، وأيضا فإنه إذا كان مطلعا على المعانى المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه . ومن المعلوم أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة فإن بعضها لا يكون عاليا على بعض أو منحطا عنه إلا بشيء يسير ، وكثيرا ما تتساوى القرائح والأفكار فى الإتيان بالمعانى ، حتى إن بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ ثم يأتى الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول وهذا الذى يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر ا . هـ .

هنا يكاد ابن الأثير يلتقى مع بعض مدارسنا المعاصرة فى أن اتساع الثقافة وبروز ذلك فى صناعة الشعر مما يعين على جعل المعانى أعمق ، بالذى نضيفه إليها من عنصر الرمز المـــأخوذ من ضروب الإشارة ، والاقتباس . وتأمل قول ابن الأثير « فإن فى ذلك فوائد جمة» ثم عدد من هذه الفوائد

فقال : «لأنه يعلم أغراض الناس ونتائج أفكارهم ومقاصد كل فريق منهم وإلى أين ترامت صنعته من ذلك فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة... إلى آخر ماقاله»، فمعرفة المقاصد التى يشحذ بها الذهن داخلة فى صميم الرمز . وقد تعلم خبر المعرى إذ ذكروا أنه دافع فى مجلس الشريف – وكان هذا قد طعن فى المتنبى – عن المتنبى باستحسان لاميته : «لك يا منازل فى القلوب منازل» ففطن الشريف إلى أنه عنى قوله :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص

فهى الشهادة لى بأنى كامل

فأمر بسحبه وإخراجه من مجلسه فيما زعموا فانظر كيف صارت كلمات الغزل :

لك يا منازل فى القلوب منازل

أقفرت أنت وهن منك أواهل

فمع الفطنة والتأمل رمزاً للطعن والتجريح والنقص والكمال

وكأن هذا الجانب من بروز سعة الاطلاع والنظر فى كلام الأولين والرمز به هو الذى جعل ابن الأثير يقدم أبا تمام . على أن ابن الأثير رحمه الله كان ذا لباقة وحسن تأتّ فى طريقة عرض ما يعرضه على قارئيه ، فقد استهل مقدمة كلامه بمدح الآمدى مدحا يظن به أنه سيتبع مذهبه اتباعا . وتقديمه أبا تمـــام خلاف صريح كما ترى . ثم مع تقديمه أبا تمام تنضح أسطاره بتفضيل أبى الطيب والميل ميلا شديدا إليه ، وربما صرح بذلك تصريحا فى أكثر من موضع .

على أن ظاهر كلام ابن الأثير هذا ، وهو فى مقدمته التى بين فيها أصول مذهبه ، ربما استنتجنا منه أنه ينكر السرقة وهى مما ألح عليه نقاد العرب إلحاحا ، وعن قدمائهم أخذوه ، وقد فطن ابن الأثير إلى هذا الجانب ، ففصل الحديث وأتقنه فى الباب الذى جعله للسرقات وقد وعد فى مقدمته به حيث قال : «وسيأتى لذلك باب مفرد فى آخر كتابنا هذا إن شاء الله تعالى» ا . هـ ص ١٨ .

قال : (ص ٦ — ٤٦٨) «واعلم أن الفائدة من هذا النوع (يعنى السرقات الشعرية ومعرفتها) أنك تعلم أين تضع يدك فى أخذ المعانى إذ لايستغنى الآخر عن الاستعارة من الأول . لكن لا ينبغى لك أن تعجل فى سبك اللفظ على المعنى المسروق فتنادى على نفسك بالسرقة ، فكثيرا ما رأينا من عجل فى ذلك فعثر ، وتعالى فيه البديهة فعقر ، والأصل المعتمد عليه فى هذا الباب التورية والاختفاء ، بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب وأظرف من عنقاء مغرب فى الإغراب . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول : إن لأحد من المتأخرين معنى مبتدعا ، فإن أول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية ، وإنه لم يبق معنى من المعانى إلا وقد طرق مرارا ،

وهذا القول وإن دخل فى حيز الإمكان إلا أنه لا يلتفت إليه لأن الشعر من الأمور المتناقلة ، والذى نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعنّ لها من الحاجات ، ولم يزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرئ القيس وهو قبل الإسلام بمئة سنة زائداً فناقصاً ، فقصّد القصائد ، وهو أول من قصد ، ولو لم يكن له معنى اختص به سوى أنه أول من قصد القصائد لكان فى ذلك كفاية وأى فضيلة أكبر من هذه الفضيلة . ثم تتابع المقصدون واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت ، وانفتح للشعراء هذا الباب فى التقصيد وكثرت المعانى المقولة بسببه ، ولم يزل الأمر ينمى ويزيد ويؤتى بالمعانى الغريبة واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية وما بعدها إلى الدولة الحمدانية ، فعظم الشعر وكثرت أساليبه ، وتشعبت طرقه وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين ، وهم أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى وأبو الطيب المتنبى ، فإذا قيل إن المعانى المبتدعة سبق إليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته ، والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ، إلا أن من المعانى ما يتساوى الشعراء فيه ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأوّل قبل آخر ، لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول كقولهم فى الغزل :

عفت الديار وما عفت
آثارهن من القلوب

وكقولهم «إن الطيف يجود بما يبخل به صاحبه ، وإن الواشى لو علم بمزار الطيف لساءه» ، وكقولهم فى المديح : إن عطاءه كالبحر وكالسحاب وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد ، وأنه يجود ابتداء من غير مسألة وأشباه ذلك ، وكقولهم فى المراثى : إن هذا الرزء أوسل حادث ، وإنه استوى فيه الأباعد والأقارب ، وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة ، وإن بعد هذا الذاهب لا يعد للمنية ذنب. وأشباه ذلك ، وكذلك يجرى الأمر فى غير ما أشرت إليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة ، وتستوى فى إيرادها ، ومثل ذلك لا يطلق على الآخر فيه اسم السرقة من الأوّل ، وإنما يطلق اسم السرقة فى معنى مخصوص كقول أبى تمام :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

فإن هنا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام ، وكان لابتداعه سبب ، والحكاية فيه مشهورة ، وهى أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم

قصيدته السينية التي مطلعها «ما في وقوفك ساعة من باس» انتهى إلى قوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم
في حلم أحنف في ذكاء إياس

فقال الحكيم الكندي : أي فخر في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذراً عن تشبيهه إياه بعمرو وحاتم وإياس ، وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه ، فمن أتى من بعد بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه يكون سارقاً له ، و كذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي في عضد الدولة وولديه :

وأنت الشمس تبهر كل عين
فكيف وقد بدت معها اثنتان

فعاشا عيشة القمرين يحيا
بضوئهما ولا يتحاسدان

ولا ملكا سوى ملك الأعادي
ولاورثا سوى من يقتلان

وكان ابنا عدوّ كاثراه
له ياءيْ حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبي الطيب . وهو الذي ابتدعه، أي أن زيادة أولاد عدوك كزيادة التصغير فإنها زيادة نقص، وما ينبغي أن يقال إن ابن الرومي ابتدع هذا المعنى الذي هو :

يشكي المحب ويلقى الدهر شاكيه
كالقوس تصمي الرمايا وهي مرنان

فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مبتدع لابن الرومي وليس كذلك ولكنه مأخوذ من المثل المضروب ، وهو قولهم: يلدغ ويصمي ويضرب ذلك لمن يبتدئ بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومي قد ابتدع معاني أخر غير ما ذكرته ، وليس الغرض أن يؤتى على جميع ما جاء به هو ولا غيره من المعاني المبتدعة ، بل الغرض أن يبين المبتدع من غيره ، والذي عندي في السرقات أنه متى أورد الآخر شيئا من ألفاظ الأول في معنى من المعاني ولو لفظة واحدة فإن ذلك من أدل الدليل على سرقته ا ه .

أكثر الأمثلة التي ضربها ابن الأثير لما يتساوى فيه الشعراء من المعاني غير جيدة ، إذ هي مأخوذة من أشعار وأقاويل مأثورة بأعيانها كقول النابغة :

فما الفرات إذا جاشت غواربه
ترمي أواذيّه العبرين بالزبد

يوماً بأجود منه سيب نافلة
ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وكقول الآخر يرثي قيس بن عاصم المنقري :

عليك سلام الله قيس بن عاصم
ورحمته ما شاء أن يترحما

وما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما

غير أن الغرض الذي رمى إليه واضح ، وهو أن من المعاني ما يكثر دورانه

فلا يصير به سابق أحق من لاحق .
وتمثيله بقولهم فى المديح «إن عطاءه كالبحر وكالسحاب» أدخل فى باب المتبذل والمنقول منه فى هذا الباب . والبيت الذى تمثل به أول الأمر :

عفت الديار وما عفت

آثارهن من القلوب

أدل على مراده ، وكان أجدر به لو تحرى له نظائر ، وجل من لا يزل .
هذا وقد نبه على أمور من الأهمية بمكان كبير ، منها أن الشكل موضع يقع فيه الابتداع . وقد زعم أن امرأ القيس لو لم يكن له إلا أنه قصّد القصيد ففتح بذلك لمن بعده بابا لكان ذلك له كافيا فى فضيلة السبق . وقد يؤخذ على ابن الأثير نسبة اختراع شكل القصيدة إلى امرئ القيس والمشهور أن السابق فى هذا المضمار هو المهلهل ، وامرؤ القيس جود هلهلة خاله وأحكمها . ولعل ابن الأثير عنى هذا . وليس بخارج مما قدمناه من أنه إحسان وإبداع فى باب الشكل .

ومنها الظرافة البلاغية كتعليل أبى تمام الذى ساقه مثلا ، وكتشبيه أبى الطيب للزيادة الناقصة بياءى «أنيسيان» فى التصغير ، وليس قول ابن الرومى :

يشكى المحب ويلقى الدهر شاكيه .

كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

ببعيد من مداهما فى باب الظرافة البلاغية والذى أنكره عليه ابن الأثير مردود لأن المعنى الذى قصد إليه ابن الرومى هو الذى فى عجز بيته لا فى صدره ، ومحل البراعة والظرافة البلاغية فيه أن العيون ، وهى التى تقتل بالعشق ، يشبهها الشعراء بالسهام ، وقديما وصف الشعراء القوس بأنها إذا رمى بها الرامى أرنت كأنها ثكلى ، قال الشماخ :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت

ترنم ثكلى هيجتها الجنائز

فأقل ما ينعت به ابن الرومى أنه كشف هذا المعنى ، وذلك له فى باب البيان فضل بلا ريب . والخلاصة من كلام ابن الأثير ، وهى التى عليها المعول أنه بعد أن جعل الشكل مما يتناوله الاختراع ، جعل الصياغة — إذ الظرافة البلاغية إنما هى داخلة فى حيز تفاصيل الصياغة — مما يتناوله الاختراع ثم نبه على أن السرقة إنما تقع فى الصياغات وبهذا يكون وفّى الجواب عن مسألة إنكار السرقة التى عسى أن تستنتج من أوائل كلامه .

وقد فصل الحديث فى السرقة وبوبه .
وقد ضمن أول بحثه فى موضوع الابتداع وصفا عاما للسرقة أنها موراة خفية ، أخفى من سفاد الغراب كما زعم ، ولعل هذا التشبيه أن يقع من أذواقنا موقعا نابيا الآن ، ولا يخفى أنه أخذ نعت السرقة

بالتورية من أبيات أبي تمام فى داليته الوافرية يمدح أحمد بن أبي دؤاد ، وهى مما يدخل فى صميم النقد :

إليك بعثت أبكار المعانى
يليها سائق عجل وحادى

جوائز عن ذنابى القوم حيرى
هوادى للجمام وللهوادى

شداد الأمر سالمة النواحى
من الإقواء فيها والسناد

منزهة عن السرق المورّى
مكرمة عن المعنى المعاد

لها فى الهاجس القدح المعلى
وفى نظم القوافى والعماد

والعماد أى عماد الشعر إن جعلته مفردا وإن جعلته جمعا فهو جمع لعمود الشعر فمن أبي تمام أخذ الآمدى هذه العبارة المنسوبة إليه وهى أقدم منه ومن أبي تمام على الأرجح فى ما حكى الجاحظ عن خالد بن صفوان أنه قال : « عمود الجمال » يعنى الصفات التى بها يتم الجمال ويكمل . والله تعالى أعلم .

وقد ترى أنه ختم كلمته عن الاختراع برأيه أن السرقات إنما تقع فى مجاله وهو مجال الصياغات ، ثم أخذ فى تبيين السرقات فجعلها خمسة أقسام ، النسخ والسلخ والمسخ وأخذ المعنى مع الزيادة عليه وعكس المعنى إلى ضده . وقد جاء ابن الأثير فى هذا الباب الأخير الذى عقده للسرقات بأشياء تعد من روائعه حقا ، مثل حديثه عن الشعراء الثلاثة : أبي تمام والبحترى وأبي الطيب ، فقال عن أبي تمام : « أما أبو تمام فإنه رب معان وصيقل ألباب وأذهان فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام » (ص ٤٧٠) ، وقال عن أبي الطيب : « أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطيه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء » وآخر كلامه هنا ينقض أوله ، وكأنه كان أميل إلى تقديم أبي الطيب على أبي تمام ثم مع ذلك مضطربا فيه مترددا (ص ٤٧٠ — ٤٧١) ، وقال عن البحترى : « وأما أبو عبادة فإنه أحسن سبك اللفظ على المعنى المراد أن يشعر فغنّى ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق فبينا يكون فى شظف نجد إذ تشبث بريف العراق » (ص ٤٧٠) وكأن قول ابن الأثير : « أراد أن يشعر فغنى » تمكين منه للبحترى فى الشاعرية بدليل قوله : « وسئل أبو الطيب عنه وعن أبي تمام وعن نفسه فقال : « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى » . ولعمرى

إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية » ا هـ . ص (٤٧٠–٤٧١) والغناء قوى العلاقة بالشعر ، وفى كتاب سيبويه أن الشعر إنما وضع للغناء والترنم . على أنه لا يستبعد ، إن صحت هذه الرواية من أبى الطيب ، أن يكون قد قصد إلى تفضيل نفسه وحبيب على أبى عبادة لاقتران الشعر بالحكمة وفى الحديث: « إن من الشعر لحكمة » ، وعسى أن تكون هذه الرواية مما افتعل على أبى الطيب لتثبيت تهمة دعوى النبوة عليه ، للمعروف من اقتران الحكمة بالنبوة ، قال تعالى : « ولوطا آتيناه حكماً وعلما » (الأنبياء ٧٤) وقال تعالى فى خبر المسيح عليه السلام : « وإذ علمتك الكتاب و الحكمة والتوراة والإنجيل » (المائدة ١١٠) . وقال تعالى فى خبر سيدنا يحي عليه السلام : « وآتيناه الحكم صبيا » (مريم ١٢) وفى خبر لقمان : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » (لقمان ، ١٢٢) .

ونظر ابن الأثير فى قوله: فأدرك بذلك بعد المرام مع قربه إلى الأفهام ، إلى قول البحترى فى ابن الزيات :

لتفننت فى الكتابة حتى
عطل الناس فن عبد الحميد

من معان لو ضمنتها القوافى
هجنت شعر جرول ولبيد

حزن مستعمل الكلام اختياراً
وتجنبن ظلمة التعقيد

وركبن اللفظ القريب فأد
ركن به غاية المراد البعيد

وأبيات البحترى هذه هى أيضا مما يدخل فى صميم النقد . وللشعراء سبق ودقة فى أبواب كثيرة من النقد مما ينبغى أن يتنبه إليه الباحثون فى هذا الباب .

هذا ويؤخذ على ابن الأثير فى معالجته للسرقات أنه أغفل المبدأ الذى بنى عليه كينونتها وأجاب به على مفكرى وجودها بحجة أن المعانى متساوية مشتركة فلم يسلم له إلا باب قسمته الأول وهو النسخ وقد أدخل بعضه فيا وسمه باسم وقع الحافر على الحافر (ص ٤٧٢) واستشهد بقول امرئ القيس :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقول طرفة :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ويجوز أن يكون قول امرئ القيس قد اشتهر وسار فا أراد طرفة إلا تضمينه

وتحسين صناعته بذلك التضمين . ويجوز أن يكون قولهم :

وقوفاً بها صحبي ...

مما صار من طريقة كلامهم ، يأخذ به شاعرهم ، ويغير من لفظه بحسب ما يتطلبه وزنه ورويه ، ويكون على هذا غير داخل حقا فى الذى سماه هو النسخ ، لأن هذا من السرقات ، وقد فرض فى السرقات الخفاء والتورية ، ولعله لو كان قد جعل ما استشهد به من حديث أبى نواس فى باب النسخ لكان ذلك أصوب ، وهو قوله (ص ٤٧٣) : « ومما كنت أستحسنه من شعر أبى نواس قوله من قصيدته التى أولها :
دع عنك لومى فإن اللوم إغراء :

دارتْ على فِتْيةٍ ذلّ الزمان لهم
فما يصيبهم إلا بما شاءوا

وهذا من عالى الشعر ثم وقفت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج على هذا البيت فى أصوات معبد وهو :

لهفى على فتية ذل الزمان لهم
فما أصابهم إلا بماشاءوا » ا . هـ

على أنه يجوز أن يكون أبونواس قد أراد التضمين ، وهو من أسلوبه وكان واسع الحفظ ، ولعل ابن الأثير قد أراد نحوا من هذا المعنى حيث علق على ما تقدم بعد البيت الذى هو من أصوات معبد بقوله : « وما أعلم كيف هذا » ولا ريب يجرى مجرى التضمين لا النسخ قول أبى تمام :

محاسن أصناف المغنين جمة
وما قصبات السبق إلا لمعبد

لأن هذا كان قولا سائرا .

وقد وقع ابن الأثير فى الذى نبه على تجنب الأخذ به ، حيث تتبع تشابه المعانى وبنى عليه سائر الأصناف التى جعلها للسرقات ، ولو قد كان عوّل على الصياغة لكان مذهبه أسلم ، والعجب له كيف غفل عن هذا ، ولا ريب أنه كان يعلم أن البحترى اتهم أبانواس فى بيته :

ولم أدر من هم غير ما شهدت به
بشرقى ساباط الديار البسابس

بالأخذ من الهذلى فى قوله :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه
ولكنه قد سلّ عن ماجد محض

لأن حذو الكلام واحد .

وعلى هذا يقاس أخذ أبى نواس من الأعشى حيث قال :

وداونى بالتى كانت هى الداء

فإنه ولدها من : وكأس تداويت منها بها .

والتشابه هاهنا فى الصياغة أدل من كل شىء .

على أن ابن الأثير ، فى تتبعه لتشابه المعانى ، قد وفق إلى موازنات رفيعة داخلة حقا فى حيز ما قدمه من أصل الصياغة والشكل والخفاء والتورية ، ولعل أجود ذلك جميعه الموازنة التى عقدها بين صفة البحترى لأسد الفتح بن خاقان وصفة أبى الطيب لأسد بدر بن عمار، وقد خلص فيها إلى تفضيل أبى الطيب ، ولو قد سار على مذهبه فى النقد لفضل البحترى لالتزامه بنعت المبارزة ، إذ أبو الطيب اهتم بالأسد ولا ريب أن أبا الطيب أشعر شعرا هاهنا وإن كان البحترى أصفى ديباجة ومن عجب الأمر أن ابن الأثير قد فضل أبا الطيب أيضا على أبى تمام فى الموازنة التى عقدها بين رثاء هذا لولدين صغيرين ورثاء ذاك لطفل صغير. قال : (ص٤٨٧) « وأبو تمام وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع »، وليس فى هذه المقالة لأبى تمام وناصريه عزاء ؛ إذ قد أعطى الجائزة لأبى الطيب كما ترى . وكأن ابن الأثير ما فضل جريرا وصاحبيه على شعراء الجاهلية إلا ليتخلص إلى الذى خلص إليه من تفضيل الثلاثة الذين جعلهم لات الشعر وعزاه ومناته عليهم ثم يجعل أبا الطيب خاتم الشعراء أجمعين ، وما أكثر المواضع التى قطع بتقدمه فيها على غيره بلا تردد ، كقوله مثلا (ص ٣١١) : « وسأذكر الموضع الذى حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الأبيات بعضها ببعض وهى من محاسن ما يؤتى به فى معنى الوداع ولم يأت لغيره مثلها إلخ » . وقال بعد أن أثنى على أبى الطيب الثناء الحسن فى تخلصه : (ص ٤٢٠) والشعراء متفاوتون فى هذا الباب وقد يقصر عنه الشاعر المفلق المشهور بالإجادة فى إيراد الألفاظ واختيار المعانى كالبحترى فإن مكانه فى الشعر لا يجهل ، وشعره هو السهل الممتنع الذى تراه كالشمس قريبا ضوؤها بعيدا مكانها وكالقناة لينا مسها خشنا سنانها، وهو على الحقيقة قينة الشعراء فى الإطراب ، وعنقاؤهم فى الإغراب ، ومع هذا لم يوفق فى التخلص من الغزل إلى المديح إلخ » .

وكأنه قد كان من معاصرى ابن الأثير الذين كان يعبأ بهم عصبة فيهم عن أبى الطيب انحراف وبهم ميل إلى تقديم صاحبيه عليه الأول فالثانى، وكان هو على خلاف رأيهم فى القول بتقديم أبى الطيب وهذا جلىّ من كثرة استشهاده بشعره وإطرائه له ، فأسر هذا القول وأظهر أنه على مذهبهم مداراة لهم أو مجاملة كقوله قبل أن يقطع بتفضيل أبى الطيب فى رثائه الطفل الصغير على أبى تمام وقد مهد بأنه يرى ذلك (ص٤٨٧) : « أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه لامع فضيلة القول وتقدمه » . وكأنه يوهم بهذا أن أصحاب هذه المقالة غير الذين هم موضع مجاملته ومداراته ، فتأمل . هذا ومما يؤخذ على ابن الأثير أيضا تنبيهه على ضرورة الحفظ، لأن ذلك

يعين على جودة النقد وتمييز مواضع الاختلاس والسرق وما إلى ذلك ، ثم هو قدحث بعد ذلك على الاقتصار على الشعراء الثلاثة ومن بعد على ثلاثة العهد الأموى وقلل من شأن فحول الجاهلية — ويوشك القارئ له أن يخلص إلى أنه لم يكن حقا عظيم المحصول من معرفة شعر القدماء ، ولولا ما نعلم من أن طريقة الدرس ومنهجه على ذلك الزمان كانت تأخذ الطالب بمعرفة الأصول كمفضليات الضبي وحماسة الطائي ، ودواوين الأولين ، لكنا صَغَوْنا إلى القول بهذا الرأى ، ولعل الفتنة بأبى الطيب هى التى دفعته إلى ما قطع به من تفضيل جرير وأصحابه على امرئ القيس وأصحابه ثم تفضيل ثلاثة العصر العباسى عليهم جميعا والله تعالى أعلم .

هذا والمسألة الرابعة التى اهتم بها ابن الأثير وهى من كبريات مسائل نقد الشعر مسألة لغة الشعر والنظم فى مقابلة لغة النثر . وقد تعرض ابن الأثير لهذا الباب فى معرض حديثه عن الوحشى من الكلام . وقد فتح باب الحديث بزعم منه جازم أن من الألفاظ قباحا يعرف قبحها بالضرورة وحسانا كذلك . ولا شك أن ابن الأثير قد صدر فى رأيه هذا عن طبيعة الضعف واللين التى كانت غالبة على عصره . وقد توفى رحمه الله سنه ٦٣٧ هـ أى قبل نحو من عشرين سنة من سقوط بغداد فى أيدى التتار وقد ذكر المؤرخون أن جيش الخلافة كان أفره خيلا وأثقل دروعا وأكثر سلاحا من جيش هولاكو ، ومع ذلك لم يثبت هؤلاء المدججون إلا قليلا أمام رماة التتار الحفاف العدة والعتاد .

وقد أنكر على « تأبط شرا » قوله ، وهو من أبيات ديوان الحماسة :

يظل بموماة ويمسى بغيرها
جحيشا ويعرورى ظهور المهالك

قال (ص ٩٨) : «فإن لفظة جحيش من الألفاظ المنكرة القبيحة ويالله العجب ، أليس أنها بمعنى فريد ، وفريد لفظة حسنة رائقة ، ولو وضعت فى هذا البيت موضع جحيش لما اختل شىء من وزنه ، فتأبط شرا ملوم من وجهين فى هذا الموضع ، أحدهما : أنه استعمل القبيح والآخر : أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها » . ا . هـ وهذا من أخطاء ابن الأثير التى مردها إلى ما سبقت الإشارة إليه من غلبة نوع من الانحلال واللين على طبائع أهل عصره وأذواقهم . ولو قد وضعنا كلمة فريد هاهنا موضع جحيش لنبت كل النبو . وذلك أن فى قوله : « جحيشا » حيوية وتصويرا ، إذ قد نظر فى اختياره هذه الكلمة إلى المعهود فى الأشعار وفى البيئة الجاهلية البدوية ؛ من

نعت الحمار الوحشي بالحذر والغيرة والانفراد منصلتاً بأتنه فى القفار ، يتقدمها يربأ أمامها المراقب ، أو يتعقبها وهو يسوقها السوق المفرط الشديد . وقد نعت رؤبة الحمار الوحشى فى أرجوزته القافية :

* وقاتم الأعماق خاوى المخترق *

ولما أراد مدح أبى مسلم صاحب الدولة ببعض الرجز ، أعرض عن ذلك وطلب منه أن ينشده القافية ، فلما صار فيها إلى قوله :

* إذا تتلاهن صلصال الصعق *

* معتزم التجليح ملاخ الملق *

* يرمى الجلاميد بجلمود مدق *

قال له أبومسلم : « أنا ذلك الجلمود المدق» .

ومما يقوى معنى الحيوية الذى فى قوله :

جحيشاً ويعرورى ظهور المهالك .

. أن الشاعر احتفظ بمعنى الحمار الوحشى فى سائر البيت ، فجعل المهالك بمنزلة الرواحل ، وجعل جحيشه هذا يعروريها أى يركب عليها عريا بلا سروج ، وجعل لها ظهوراً كما ترى ، وقد نقل صورته من الجحش الوحشى النفور المنفرد الكثير التلفت ، إلى الباسل البئيس الذى يثب على ظهور المهالك يمتطيها عريا بلا سروج ، فجعل المهالك بمنزلة الأتن التى يحدوها الحمار الوحشى ، ويقدر عليها وهو يتتلاها « يرمى الجلاميد بجلمود مدق » . وقوله : « يظل بموماه ويمسى بغيرها » مأخوذ أخذا من صورة وحوش الصحراء .

وقد كان أبو تمام ناقدا نافذ البصر فى الشعر لايتقيد فى تمييز جيده من رديئه بما كان هو عليه من مذهب النظم . وقد اختار أبيات تأبط شرا هذه واحتفظ بجحيشها ولم يغيره إلى فريد . وليس الأمر هاهنا إصابة ظاهر رنة الوزن، ولكن أن يصيب الشاعر جوهر المعنى فى الصورة والحيوية والإيقاع جميعا .

ثم بعد أن ذكر كلمات تجرى عنده مجرى « جحيش » فى القبيح قال : (ص ٩٩) « والعرب إذن لاتلام على استعمال الغريب الحسن من الألفاظ ، وإنما تلام على الغريب القبيح . وأما الحضرى فإنه يلام على استعمال القسمين معاً وهو فى أحدهما أشد ملامة من الآخر ؛ على أن هذا الموضع يحتاج إلى قيد آخر ، وذلك شئ استخرجته أنا دون غيرى » : . . . كان رحمه الله كثير التزكية لنفسه ، وقد جرّ هذا عليه كثرة الاستشهاد فى باب النثر بأمثلة من إنشائه لوخلا كتابه منها كان أفضل له . . . . قال:

وذلك شيء استخرجته أنا دون غيرى فإنى وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله فى الشعر ولايسوغ فى الخطب والمكاتبات وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهى إلى ما أوردته من الأمثلة.إلى آخر ماقاله .

فقدجعل هاهنا للشعر طبيعة قبول أو طبيعة استعداد وتهيؤ لقبول الغريب الذى سماه حسنا دون النثر . ومما مثل به فى هذا الباب لفظ شرنبثة فى قول الفرزدق :

شرنبثة شمطاء من يرتمى بها
يُشبه ولو بين الخماسى والطفل

وقول البحترى « مشمخرة » فى السينية :

مشمخرة تعلو له شرفات
رفعت فى رؤوس رضوى وقدس

قال (ص ٩٩) : « فإن لفظة مشمخر لا يحسن استعمالها فى الخطب والمكاتبات ولا بأس بها هاهنا فى الشعر وقد وردت فى خطب الشيخ الخطيب ابن نباتة كقوله فى خطبة يذكر أهوال القيامة فقال : «اقمطر وبالها واشمخر نكالها فما طابت ولا ساغت » . . .
ولا يخفى أن هذا من ابن الأثير اقتيال بلا حجة ، إذ لا يخفى أن قول ابن نباتة « اقمطر » أخذه من قوله تعالى : « يوما عبوسا قمطريرا » واشمخر ملائمة لاقمطر فى الجرس وصورة هول المعنى .

هذا وإنما رتب ابن الأثير قضية الفصل بين أساليب الشعر والنثر ، وإن كان قد جاء بذلك متقدما على أصل جاء به من بعد حيث فرق بين حال الألفاظ وهى مفردة وحالها وهى مركبة وذلك قوله : (ص ١١٤) « وأما إذا صارت مركبة فإن لتركيبها حكما آخر ، وذلك أنه يحدث عنه فى فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة . »
ولعمرى لوكان ابن الأثير تمسك بهذا الأصل وأضرب عما افترضه من القبح الأصيل والحسن الأصيل فى الكلمات لكان أجود وأصح . وعليه يستقيم ماصور به ألفاظ أبى تمام (ص ١٠٦) «كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلأموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد » وألفاظ البحترى حيث قال (ص ١٠٦) « وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى » إذ هى إنما استفادت هذه الصور فى خياله من أساليب تأليفها ، وأحسب أن ابن الأثير قد أخذ تمثيله هاهنا من بعض ماجاء به ابن رشيق فى هذا الباب ، على تقدير التسليم أن كتاب العمدة كان معروفاً بالمشرق ، وليس ذلك ببعيد، لقوة ما كان يصله الحجُّ وبُعْد هِمَم العلماء فى تحصيل الإجازات والأسانيد بين أطراف بلاد الإسلام .

وقد فرّع ابن الأثير من قضيته التى قال بها من قبح الألفاظ وحسنها ثم أثر التراكيب وضروب التأليف على ذلك ، فصلا فى السجع . وكان يميل إليه ويرى أنه أعلى درجات نظام الكلام المنثور . وقد اشترط فيه شروطا كاد يقترب به فيها من الشعر ، إذ ألزم صاحب السجع أن يجتنب البرد والغثاثة وعرف البرد والغثاثة « أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع

نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ومايشترط لها من الحسن ولا إلى تركيبها ومايشترط له من الحسن وهو فى الذى يأتى به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الكرسف أو ينظم عقدا من الخزف الملون » ، ثم إنه اشترط مع هذا مراعاة المعنى وهذا يستفاد ضمنا من سابقة اشتراطه ألا يصرف النظر إلى السجع من غير نظر إلى مفردات الألفاظ إلخ (راجع ١١٦ – ١١٧) .

وقد احتج ابن الأثير لتفضيل السجع بأسلوب القرآن ، وغفل عن أن أسلوب القرآن ليس بزخرفة من نقش أثواب كرسف أو نظم عقد من خزف ملون ، ولكنه شديد الأسر ، فحل الإيقاع ، وقد أنكر ابن الباقلانى أنه سجع أو من المسجوع جملة واحدة .

هذا والمسألة الخامسة ، وسنختم بها هذه الكلمة الموجزة إن شاء الله تعالى ، من أهم المسائل ، ولاسيا قضية مضمونها بالنسبة إلى نقدنا المعاصر وضروب أشعارنا المعاصرة وشتى المشكلات المتصلة أوالمتعلقة بها ؛ وهى مسألة الإطالة فى الشعر . قال ، وهو فى آخر كتابه (ص ٥٠٣) : « إن الشاعر إذا أراد أن يشرح أموراً متعددة ذوات معان مختلفة فى شعره واحتاج إلى إطالة ، بأن ينظم مثى بيت أو ثلاثمئة أو أكثر من ذلك ، فإنه لايجيد فى الجميع ولافى الكثير منه ، بل يجيد فى جزء قليل ، والكثير من ذلك ردىءغير مرضى ؛ والكاتب لايؤتى من ذلك بل يطيل فى الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر ، وتكون مشتملة على ثلاثمئة سطر أو أربعمئة أو خمسمة وهو مجيد فى ذلك كله وهذا لا نزاع فيه لأننا رأيناه وسمعناه وقلناه ، وعلى هذا فإنى وجدت العجم يفضلون العرب فى هذه النكتة المشار إليها ، فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى آخره شعرا وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل «الفردوسى» فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لايوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » . اﻫ

القضية التى شرع بها وهى أن الإطالة يكون معها الإسفاف قائمة مسلم بها فى جميع أودية البيان ، النظم والنثر والخطب والمشافهات والرسائل وهلم جرا . والفرق بين الشعر وغير الشعر خاصة فى هذا الباب فرق درجة « كَمٍّ » ودرجة « كَيْفٍ » . وأحسب أن ابن الأثير تأثر ههنا بمقدمة المرزوقى لشرحه كتاب « الحماسة » فقد تعرض فيها لفضل الكاتب على الشاعر . وقطع ابن الأثير بأن الكاتب مما تتأتى له الجودة مع

الإطالة ، وتزكيته نفسه فى مضمار ذلك ، غير مسلم به ؛ وكان أصوب لو نبه على ضيق مجال الشعر العربى على النحو الذى نبه به ابن المعتز حيث قال :

إن ذا الشعر فيه ضيق مجال
ليس كل الكلام ماشاء قالا
يكتفى فيه بالإشارة والوحـ
ـى ويحتال قائلوه احتيالا

وقد قال البحترى :

والشعر لمح تكفى إشارته
وليس بالنثر طولت خطبه

وكون الشعر لمحاً ، فرق « كيف » بينه وبين النثر ، وكونه صناعة ذات أوزان وقواف وإيقاع يحدث فرقاً فى « الكم » .

وتبقى بعد مسألة أسلوب العرب وأسلوب العجم فىهذا الباب . وسجع العربية لو وقع فى لغة من لغات العجم لعدّ شعراً فها هنا اختلاف بين العربية وغيرها فى نفس صناعة الشعر يجب لفت النظر إليه . ومن العجب أن ابن الأثير شبه « شاه نامه » فى باب الفصاحة عند الفرس بالقرآن فى باب الفصاحة عند العرب ، وهو يعلم أن القرآن فى العربية ليس بشعر ، وليس المُبْعِد له عن الشعر أنه ليس بموزون مقفى فحسب . ولكن يبعده عن الشعر فى المكان الأول أنه لاتفاوت فيه ولا اختلاف وأن الناسخ والمنسوخ فيه مرتبان على التدرج فى التشريع والتخفيف وفى الشعر التفاوت والاختلاف ؛ لأنه يصدر عن انفعالات قلوب البشر ، وقلوب البشر تتقلب ، يغضب الشاعر فيهجو وينشرح صدره فيمدح وقس على ذلك ، قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » .

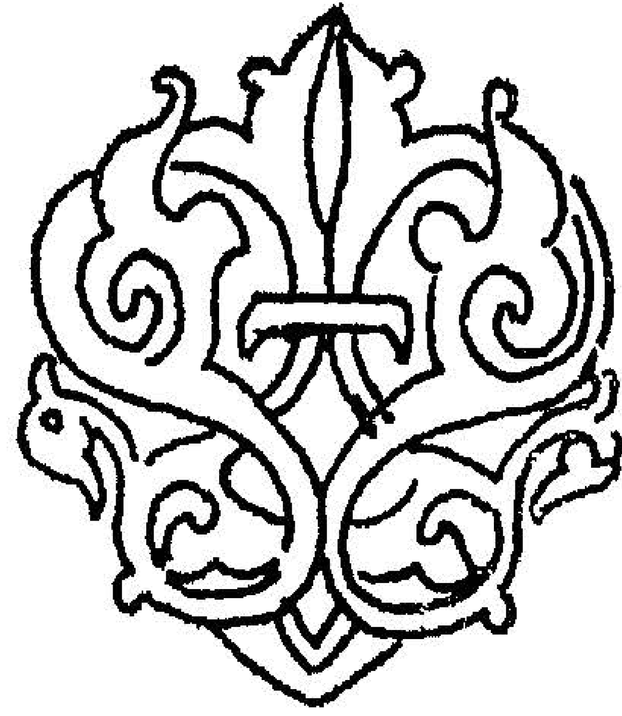
ومع أن صناعة العجم شِعْرَهم تمكنهم من الإطالة فيه ، لايسلم مع ذلك شاعرهم من الهبوط والإسفاف فى مواضع ، حتى إنما تسند إليه الفصاحة والتبريز من أجل مواضع الإجادة التى يصيبها ، فيكون نعت منظومته كلها بالجودة وبالفصاحة من باب التغليب وإطلاق الجزء على الكل . وهذا المعنى قد فطن له الناقد الإنجليزى كلردج ، وعلله فى فصل له مشهور متداول من كتابه « بيوغرافيا ليتراريا أى الترجمة الأدبية » وهو كتاب متعدد الموضوعات فيه مذكرات واستطراد بعد استطراد ، وخوض فى أنواع من الأقاويل تكون أحيانا غير مرتبطات ببعض ونظرات فى النقد ثاقبة . وقد كان ممن يقول بأن للشعر لغة غير لغة النثر ، واحتج بأن لغة الكتابة فى النثر غير لغة المحادثة وذلك لمايقع فيها من أناة الصنعة ، وهذا عنصر أقوى فى الشعر والفصل المشهور الذى تعرض فيه لمسألة مايعترى النظم بالضرورة من عنصر اللاشعر هو الرابع عشر فى أول المجلد الثانى من طبعة لندن (١٩٠٧ م) لكتابه المشار إليه آنفا ، وقد فرق فيه بين المنظومة والشعر بحجة أن الشعر إبداع مصدره فى الخيال ، والإبداع نادر بالضرورة والمنظومة

لا يمكن أن تكون كلها إبداعاً . والحجة التى لجأ إليها كلردج فلسفية دينية السنخ يمكن رد أصولها إلى كلام أبى بكر بن الباقلانى فى إعجاز القرآن . وإذا صرفنا النظر عن الجانب الدينى اللاهوتى فى كلام كلردج (راجع كتابه المجلد ١ ص ٢٠٢) فإن خلاصته أن المنظومات الطوال يدخلها الضعف واللاشعر . وعلى هذا تسقط الحجة التى تنظر إلى مطولات النظم الأعجمى بنوع من الافتتان .

ورحم الله نصر الله بن الأثير . فإن أقل مايثنى عليه به فى كتابه «المثل السائر» سلاسة أساوبه ووضوح الفكرة عنده . وقد كان مثله الأعلى فى صناعات النثر والنظم أن يكون الشعر ساخنا ولهذا نجد ميله إلى المتنبى ظاهرا ، وأن يكون النثر مسيطرا فيه المعنى على اللفظ مع العناية بهذا وحسن اختياره ، وطريقة سجعه وتدفقه فى شتى أبواب كتابه تشهد بالتزامه بهذا المثل الأعلى الذى ارتضاه وأما تزكيته نفسه فلعل الرجل قد كان له خصوم يعارضهم والله أعلم ، هذا وعسى أن نكون وفيناه فى هذه الكلمة الموجزة بعض حقه . ونختم بما ختم به رحمه الله كتابه من الصلاة على النبى وعلى آله وصحبه والتسليم تسليما كثيرا ، والحمد لله سبحانه وتعالى فى المبدأ والختام .

عبد الله الطيب

عضو المجمع من السودان



(*) طبع كتاب Biographai literana سنة ١٨١٧ م ثم كانت طبعته الأولى بعد ذلك سنة ١٩٠٧ والفصول النقدية الهامة المفيدة التى يرجع إليها فيه هى ١٣ ، ١٤ ، ١٨ وتكثر الإشارة إلى هذه الفصول فى كتب النقاد الانجليز ونقول ، على طريقه ابن الأثير ، قد رجعنا إليها وإلى كثير مما كتبوا والله المستعان .

من طرف القرآن الكريم
للدكتور تمام حسان

القرآن لا تنقضى عجائبه سواء من حيث الشكل أو المضمون ، والقرآن نص معجز سواء من حيث الشكل أو المضمون . ولقد تصدى العلماء قديما وحديثا للكشف عن ذخائر القرآن وفوائد جواهره ومعارج تفوقه فجاؤا من ذلك بالكثير ولكنهم تركوا من ذلك أكثر من الكثير ينتظر من الغواصين طول الأنفاس ومن الكشافين قوة الأضواء ومن الباحثين نفوذ البصيرة . ولم يعد البحث عن دور الكتاب الكريم وقفا على العرب ولا على المسلمين فلقد نرى فى أيامنا هذه ونسمع المنصفين من الغربيين يكشفون عن صدق المضمون القرآنى فى أمور تعتبر من دقائق العلم الحديث وآخر من تصدى لذلك منهم الباحث الفرنسى وريس بوكاى الذى أشاد بما راعه من التطابق بين مضمون النص القرآنى وبين الثابت من حقائق العلم الحديث سواء فى علم الأجنة أو فى الفلك أو فى غيرهما من العلوم .

وأما من حيث الشكل فقد علمنا أن القرآن تحدى العرب أن يأتوا بسورة من مثله وأن يدعوا من استطاعوا من دون الله فلم تستطع روائع الخطباء ولا سجع الكهان ولا شياطين الشعر أن تدنو من القرآن لا بسبب الصرفة كما زعم بعض المعتزلة (فنحن نعلم أن بعض الناس حاول أن يأتى بمثل القرآن) ولكن بسبب امتناع النص القرآنى نفسه على من حاول محاكاة وتقليدا . ولقد نشأت العلوم اللغوية فى التراث العربى فى رحاب القرآن وللاعانة على حسن فهمه ولكنها بنت ملاحظاتها على كلام العرب ولم تجر استقراءها على القرآن نفسه ، فلما اكتملت فى أيدى العلماء حقائق تلك العلوم وقواعدها عرضوها على النص القرآنى فانسجمت مع بعضه وقصرت دون بلوغ البعض الآخر وظل القرآن فوق النحو وفوق البلاغة وفوق غيرهما من علوم العربية وإن أعانت هذه العلوم على فهمه . ظل القرآن فوق هذه العلوم يتحدى قواعدها وحقائقها كما تحدى الفصحاء من مقاويل العرب من قبل فأصبح التحدى القرآنى منتصرا فى مجالى النظرية والتطبيق على سواء .

ومن المعروف أن السياق اللغوى يعتمد فى فهمه على الخضوع لأنماط تركيبية معنية

ومن هنا جاءت الكلم أنوعا لكل منها موقع خاص فى الكلام ولكل موقع إعراب يناسبه ولكل كلمة اختصاص بما يدخل عليها أو امتناع على ما يتنافى معها ولا بد لأجزاء الجملة من روابط تربط بعضها ببعض وهلم جرا . فلا يجوز أن تأتى الكلم متجاورة كيفما لها التجاوز فيقال مثلا (على جلس الكرسى الرجل) إذ لا بد من اخضاع توالى الكلمات لشروط النمط التركيبى فيقال : «جلس الرجل على الكرسى » . والمعروف أن لكل لغة انسانية مجموعة من الأنماط قلت أو كثرت وترتبط الافادة بهذه الأنماط فإذا عرفنا أن نمط الجملة هو « الوضع » الذى تكون عليه من حيث الشروط النحوية التركيبية المتقدم ذكرها أدركنا ما يقصده النحاة من قولهم : « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » أى المفيد بحكم النمط المحدد نحوياً .

والقرآن فوق هذه الأنماط يعلو عليها ويتحداها ويصل إلى المعنى فيبلغ غاية الإفادة ولو بدون «الوضع» ولأمر ما قال القراء : « القراءة سنة متبعة » وقصدوا بذلك أنها لا يجوز إخضاعها « للوضع » النحوى بما يشتمل عليه من قواعد وقيود وشروط . ولعل هذا يعد جانبا هاما من جوانب الإعجاز القرآنى أفاض القدماء فى شرحه ولكنهم لم يهتدوا إلى عدّه فى وجوه الاعجاز . وسنحاول فيما يلى أن نلقى بنصيبنا من الضوء على بعض الطرق التى انفرد بها القرآن فى صياغة الجملة العربية دون التزام منه « بالوضع » النمطى الذى اشترطه النحاة للوصول إلى الإفادة ، كما نحاول كذلك أن نأتى بظواهر أسلوبية معينة تتجاوز العلاقات النحوية إلى الوسائل البلاغية وأرجو أن نتمكن عند النظر فى هذه الطرق وتلك الظواهر من رؤية كيفية امتياز الشكل القرآنى بميزاته الخاصة وسيكون كلامنا عن البنية والتركيب والأسلوب

أولا — البنية :

الكلمة العربية من حيث بنيتها قسمان : تركيبية ومعجمية . فأما التركيبية فإنها تتناقض مع التعريف الذى وصفه النحاة للكلمة اذ قالوا «الكلمة ما دل على معنى مفرد » ولأن الكلمة التركيبية — كما يدل اسمها — لا معنى لها إلا فى السياق . فإذا دلّت « فى » على الظرفية فقد عبرت عن علاقة بين كلمتين فى السياق إحداهما ظرف والأخرى مظروف . وإذا عبرت الواو عن العطف فمعناها هو العلاقة بين المعطوف عليه والمعطوف ، ومعنى « الا» علاقة بين المستثنى منه والمستثنى ومعنى « إن » الشرطية علاقة ما بين الشرط والجواب ومن الكلمات التركيبية الحروف والضمائر والموصولات والإشارات وجوامد الظروف الخ ، وواضح أن هذه المعانى هى وظائف وليست من قبيل المعانى المفردة . لأن المعانى المفردة هى معانى الكلمة المعجمية إذ يدل لفظ « قلم » مثلا على شيء مادى وليس على وظيفة نحوية . وللقرآن طريقة خاصة فى التصرف فى بنية هذين

النوعين من الكلمات إما بالقلب أو التعديل أو الزيادة أو الحذف أو الفصل أو إهدار الاختصاص ونحو ذلك . وفيما يلى شواهد على هذه الطريقة :

(أ) القلب :

قال تعالى : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » والمعروف أن قواعد النحو تضع الضمير بين « ها » التنبيه واسم الإشارة فتقول : هأنذا وها أنت ذا وهأنتم أولاء . وفى نص القرآن ذاته « هأنتم أولاء تحبونهم » وكذلك « هأنتم أولاء جادلتم فيما لكم به علم » ولكن التركيب الأول حدث فيه قلب للرتبة فتقدم الضمير على « ها » التنبيه فلصقت « ها » باسم الإشارة أولاء .

(ب) التعديل :

قد يعمد القرآن إلى تعديل صورة الكلمة فيضع بكه فى مكان مكة وميكال بدل ميكائيل وسينين لسيناء والياسين لإلياس وكبار لكبير وعجاب لعجيب ويهدى ليهتدى ويخصمون ليختصمون وكذاب — لتكذيب وهلم جرا . وقد يكون بعض ذلك لمراعاة الفاصلة ولكن بعضه الآخر لا تفسير له إلا أن القرآن فوق اللغة .

ثانيا — التركيب :

وفيه الزيادة والحذف والفصل والاختصاص ونحوها :

فحوى القول بالزيادة أن النحويين حين حددوا معالم « الوضع » (أى النمط) حددوه على أساس عناصر معينة ليس منها هذا الذى يعرف بأنه « زائد » وبذلك يصبح معنى لفظ « زائد » أنه هذا ليس من جملة العناصر التى يشتمل عليها « الوضع » الذى ربط النحويون به الإفادة . ولكن البلاغيين يجعلون لهذا الزائد « وظيفة » تقوية المعنى إذ يقولون : « زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى » . فالزائد عند النحويين مؤكد عند البلاغيين أى أن « ما زيد بقائم » هى أؤكد من « ما زيد قائم » ولقد حصر النحويون وعرف البلاغيون مواطن الزيادة وحددوا أماكنها وشروطها حتى كادوا يخلقون لها أنماطا فرعية . ولكن القرآن فوق كل ذلك إذ يجعل لنفسه حرية التصرف فى الزيادة على نحو لا يعترف بأنماط النحويين وحدودهم . ولك أن تتأمل طرق الزيادة فيما يلى :

١ — « فبما رحمة من الله لنت لهم » .

٢ — « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » .

٣ — « أتتركون فيما هٰهنا آمنين » .

وفى هذه الشواهد الثلاثة زيادة « ما » بعد حرف الجر بينه وبين مجروره وهى طريقة قرآنية . وربما كانت الزيادة فى الشاهد الثالث مشتملة على حرف الجر بالإضافة إلى « ما » .

٤ — « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » .

٥ — « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات » .

٦ — « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

ومن الواضح أن الزائد فى هذه الشواهد لفظ « لا » الذى قبل السيئة والنور والحرور والأموات ، وأقسم ، وهذه زيادة لم توضع لها أنماط نحوية ولكن القرآن فوق النحو لأنه سنة متبعة .

٧ — « وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين »

٨ — « وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين » .

٩ — « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » ..

١٠ — « وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست » .

وزيادة الواو واضحة قبل لام التعليل فى كل هذه الشواهد وليس هذا الموضع مما عده النحاة من مواضع الزيادة ولكن القرآن له طرقه التى لم يتسع لها النحو .

(ا) زيادة الضمير :

١١ — « وأسروا النجوى الذين ظلموا » .

١٢ — « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون »

١٣ — « أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم بالآخرة هم الأخسرون » .

وقد نسب النحاة أشباه الشاهد الأول إلى لغة بعض القبائل (فقعس ودبير) ولكن الواضح أن الواو هنا زائدة وكذلك أحد الضميرين فى كل من الشاهدين الآخرين ولا تبويب لذلك فى النحو .

(ب) حذف الحرف :

وفحوى القول بالحذف أن عنصراً من عناصر التركيب وجب ذكره بحسب « الوضع » أو القيد أو القاعدة ولكنه لم يذكر فى الاستعمال ومن ثم قيل إنه محذوف وشرط حذفه وجود ما يدل عليه ، لأن القاعدة المنهجية العامة تقول : « لا حذف إلا بدليل » ، ولأن الحذف بلا دليل يؤدى إلى اللبس . وهناك حروف أوجب النحو العربى ذكرها فى مواضعها منها :

(١) همزة الاستفهام وقد أوجب النحو ذكرها لأن التراث العربى تراث ينتقل بالكتابة من جيل إلى جيل ، والكتابة العربية خالية من علامات الترقيم ومن ثم تخلو من رمز يدل على الاستفهام ، ولهذا جعلت الهمزة فى أول الجملة الاستفهامية فى مقام علامة الاستفهام التى توجد فى آخر الجملة المكتوبة .

(٢) الفاء الواقعة فى جواب الشرط عند مالا يصلح الجواب أن يكون شرطاً لأن معظم صور الجملة فى هذه الحالة ملبسة ، والقاعدة

المنهجية التى عبر عنها ابن مالك تقول : « وإن يشكل خفيف لبس أو يجتنب » انظر مثلا إلى جملة « من عمل صالحاً فلنفسه » وتصور حذف الفاء فسترى عندئذ أن الجار والمجرور يصلح للنعت كذلك .

(٣) « قد » قبل الماضى فى جملة الحال لمنع القياس معنى الواو التى قبل قد بالعطف فى نحو : « قال وقد رفع صوته : كيف حالك ؟ » . فحذف « قد » هنا يؤدى إلى اللبس .

(٤) حرف الجر يتكرر عند العطف على ما جر به منعاً لالتباس العطف بمعنى آخر كالقسم فى حالتى الياء والواو مثلا ، وبخاصة إذا كان المكان غير صالح لنزع الخافض .

ولكن القرآن يحذف ولا يلبس ، وهذا مما اختص به القرآن . انظر مثلا الشواهد الآتية لحذف الحرف (وسترى الحرف المحذوف مثبتاً بين قوسين فى سياق الشاهد) :

١ — « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى (ف) ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك » فحذف فاء الجواب .

٢ — « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم (ف) قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا ... » .

أو « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت : لا أجد ما أحملكم على (ف) تولوا ... » .

ففاء العطف محذوفه فى أحد الموضعين .

٣ — « قال (أ) ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين » :

٤ — « (أ) وتلك نعمة تمنّها علىَّ أن عبَّدت بنى إسرائيل » .

٥ — « (أ) مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ك (مثل) من هو خالد فى النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم » .

٦ — « إن ربك هو أعلم (ب) من ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

٧ — « قال ربى أعلم (ب) من جاء بالهدى و (ب) من هو فى ضلال مبين » .

٨ — « قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما (أن) لهم آلهة » .

٩ — « لاتركضوا وأرجعوا إلى ما أترفتم فيه و (إلى) مساكنكم » .

١٠ — « وآخرون مرجون لأمر الله إما (أن) يعذبهم وإما (أن) يتوب عليهم » .

١١ — « قالوا و (قد) أقبلوا عليهم ماذا تفقدون » .

(ج) حذف الكلمة :

والمقصود بالكلمة هنا أن تكون مبتدأ أو خبراً أو عاملا أو متعلقاً للظرف والمجرور

أو موصوف أو صفة أو غير ذلك . وكما وضعنا الحرف المحذوف بين قوسين عندما عرضنا الشواهد على حذف الحرف سنضع الكلمة المحذوفة بين قوسين فى شواهد حذف الكلمة على نحو ما يلى :

١ ــ « (سنن) سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » .

٢ ــ « كهيعص (هذا) ذكر رحمة ربك عبده زكريا » .

٣ ــ « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وما تزداد (هو) عالم الغيب والشهادة»

٤ ــ « ذلك عيسى بن مريم (أقول) قول الحق الذى فيه يمترون » .

٥ ــ « (نزلناه) تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى » .

٦ ــ« واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء (نجعلها) آية أخرى » .

٧ ــ « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب (ترى) صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

٨ ــ « (بلدتكم) بلدة طيبة و (ربكم) رب غفور » .

٩ ــ « (تستكبرون) استكباراً فى الأرض و (تمكرون) مكر السىء » .

١٠ ــ « فمن عفى له من أخيه شىء فـ(سبيله) اتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان »

١١ ــ « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فـ (حكمه) عدة من أيام أخر » .

١٢ ــ « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فـ (فريضتهن) نصف ما فرضتم » .

١٣ ــ « كذلك يضرب الله (مثل) الحق والباطل » .

١٤ ــ « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب و (آيات) أخر متشابهات » .

١٥ ــ « فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا (غلاماً) صالحاً لنكونن من الشاكرين»

(د) حذف شطر الجملة :

وهنا أيضاً يلزم أن يكون هناك دليل للحذف ولكن القرآن يتحدى هذه القاعدة أحياناً وهو ما يزال بمنأى عن اللبس لسهولة استخراج المحذوف بالقرائن الحالية حين تعز القرائن الحالية . وفيما يلى طائفة من الجمل التى حذف شطرها نجعلها شواهد على هذه الظاهرة :

١ ــ « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين (يخدعون أنفسهم) أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » .

٢ ــ « والذين آمنوا وعملوا الصالحات (سنخفف عنهم) لانكلف نفساً إلا وسعها » .

٣ — « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه (غفر لهم) ثم تاب عليهم ليتوبوا » .

٤ — « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم (لا يضروه شيئاً) وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

٥ — « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة (ناج من العذاب) وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » .

٦ — « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه (خير أمن قسا قلبه) فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » .

٧ — « (أذلك الكافر) أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » .

٨ — « أو آباؤنا الأولون (مبعوثون) » .

٩ — « حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم (تباينتم) منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » .

١٠ — « فإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية (فافعل) ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

١١ — « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون (لكان خيراً لهم) إنما الصدقات للفقراء والمساكين . . . » .

١٢ — « ولولا أن تأتيهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين (لأصبناهم بعذاب) فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى . . . » .

١٣ — « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (أعرضوا) وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضون » .

١٤ — « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم منهم معرة بغير علم (ما كففنا أيديكم عنهم) ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » .

١٥ — « أئذا متنا وكنا تراباً (إننا لمبعوثون) ذلك رجع بعيد » .

١٦ — « ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم (لأصابكم بفعلكم عذاب أليم) إن الذين جاؤا بالأفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم . . .

١٧ - « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم (ما زكى منكم من أحد أبداً) يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم » .

(هـ) حذف كلام يقتضيه المعنى :

والمقصود بالكلام الذى يقتضيه المعنى كلام لا يمكن أن يتصل ما بعده بما قبله إلا بواسطة تقديره لأن مضمونه يعد تمهيداً منطقياً لما يأتى بعده بحيث لا يستغنى عنه فهم المعنى وإن استغنى عنه سياق النص . ويكثر هذا النوع من الحذف فى أسلوب القرآن فى سياق سرد الأحداث وفى القصص . ولو أننا وازنا بين المحذوف من النص وبين نظيره فى الأدب المسرحى العادى لوجدنا هذا المقابل فى المسرحية قولا أو حركة معينة أو عملا بعينه يراه المشاهد فيستغنى به عن الكلام . ولكن النص القرآنى يستغنى عن المحذوف دون الاستعانة بما ينوب عنه ومع ذلك يظل مفهوماً فهماً تاماً . ولنا أن ننظر فيما يلى :

١ -« ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم و (يقولون لهم) ذوقوا عذاب الحريق ... »

٢ - « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم (يقال لهم) هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

٣ - « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض (وتساءلوا) هل يراكم من أحد ثم انصرفوا .... » .

٤ - « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين (وعادت إلى مراودته فأبى عليها) قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ... »

٥ - « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين (فأدخلوه السجن) ودخل معه السجن فتيان (رأى كل منهما فى المنام رؤيا قصها على يوسف) قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه » .

٦ - « وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون (إلى يوسف فأرسلوه إليه فلما أتاه قال) يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان ... » .

٧ -« ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون (وعاد الفتى إلى الملك فأخبره بما قال يوسف فعجب الملك لما سمع) وقال الملك ائتونى به (فأرسلوا إليه رسولا) فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم (فدعا الملك بهن فأحضرن أمامه) قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف ... » .

٨ ــ «قال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى (فأتوه به فأقبل عليه يكلمه ويسمع منه) فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم (فأجابه الملك إلى ما طلب) وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ...... » .

٩ ــ « ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون (فلما رجعوا إليه وأخبروه بذلك) قال (ليس الأمر كما زعمتم) بل سولت لكم أنفسكم أمراً ...... » .

١٠ ــ « يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون (فذهبوا يتحسسون من أخويهم حتى إذا بلغوا قصر العزيز استأذنوا فأذن لهم) فلما دخلوا عليه قالوا » .

١١ ــ « وعرضوا على ربك صفاً (فقال لهم) لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » .

١٢ ــ « فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياًمنسياً (ثم ولدته فنظرت فإذا هو غلام فلم يخفف ذلك من حزنها) فناداها من تحتها ألا تحزنى » .

١٣ ــ « قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى وألق مافى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى (فأطمان قلبه وألقى بمافى يمينه وألقوا مافى أيمانهم فابتلعت عصاه حبالهم وعصيهم) فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى » .

١٤ ــ « لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين (فلما حضر الهدهد دنا من سليمان) فمكث غير بعيد .... » .

١٥ ــ « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات (غير السموات) وبرزوا لله الواحد القهار » .

١٦ ــ « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد (يقولان) لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وقال قرينه هذا ما لدى عتيد (فقال للسائق والشهيد) ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد » ...

(و) الفصل :

والمقصود به أحد أمرين : الفصل بين أمرين يختص أحدهما بالآخر والفصل بين الجمل المتتابعة مع إمكان وصلها بعطف أو نحوه فمن ذلك الفصل بين الموصوف وصفته وقد وضع الفاصل بين قوسين نحو :

١ ــ « يسبح لله (مافى السموات ومافى الأرض) الملك القدوس العزيز الحكيم » .

٢ ــ « يوم يأتى أمر ربك لا ينفع نفساً (إيمانها) لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » .

٣ — « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى (لتأتينكم) عالم الغيب » .

٤ — « قالت رسلهم أفى الله (شك) فاطر السموات والأرض ... » .

٥ — « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض (ومغاربها) التى باركنا فيها » ...

أو بين المعطوف والمعطوف عليه نحو :

٦ — « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين (إحساناً) وبذى القربى . . . » .

٧ — « إذ الأغلال (فى أعناقهم) والسلاسل يسحبون . . . » .

٨ — « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى حتى يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا (ولا مستأنسين لحديث) » .

أو بين الفعل ومفعوله بأجنبى نحو :

٩ — « أفلم يروا (كم أهلكنا قبلهم من القرون) أنهم إليهم لا يرجعون » .

١٠ — « قال : آتونى (أفرغ عليه) قطراً » .

أوبين الأداة ومدخولها نحو :

١١ — « فلولا (إن كنتم غير مدينين) ترجعونها إن كنتم صادقين » .

(ز) الاختصاص وهو نوع من التضام النحوى :

وهذا النوع من الترخص القرآنى فى الاختصاص من أوضح الأدلة على أن القرآن أوسع من النحو وأن النحاة حين ألقوا بثقلهم على الشعر العربى فجعلوه مجال استقرائهم ومعين شواهدهم إنما اعتمدوا على شكل من أشكال التعبير مكبل فى أغلال الوزن والقافية فلا بد أن يحكم الوزن على الجملة الشعرية بالإيجاز وعلى الكلمة الشعرية بقيود فنية متعددة ومن ثم لم يكن للشعر العربى ما للقرآن من الحرية فى مجال التعبير وتلك حرية لا يحد من انطلاقها قيد حتى ولو كان الفاصلة لأن الفاصلة القرآنية لا تتسم بالالتزام على نحو ما تتسم القافية الشعرية . فإذا كان ذلك كذلك فلنا أن ننظر فى الشواهد التالية لنرى مظهر الحرية والتحدى ثم البعد عن اللبس فى بناء الجملة القرآنية :

١ — المعروف أن « لو » تدخل على الفعل الماضى مباشرة أو لكونه خبراً لأن وأن جوابها إذا احتاج إلى رابط اكتفى باللام ومع ذلك نجد فى القرآن : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق » فدخلت « لو » على الضمير واشتمل جوابها على « إذاً » .

٢ — « والمقرر فى جواب لو أن يكون فعلا ماضياً كذلك ولكننا نجد فى القرآن : « ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير » فنرى الجواب جملة اسمية .

٣ — من المعروف أيضاً أن الموصولات فيها من العموم ما يأذن لبعضها (مثل من وما) أن ينقل من الموصولية إلى معنى الشرط فيستعمل أداة للشرط وتلزم الفاء فى جوابه إذا لم يصلح هذا الجواب أن يكون شرطاً . أما ما لا يتحول إلى الشرطية فهى الموصولات فإنه إذا وقع مبتدأ فكانت له الصدارة فى الجملة اكتسبت من معنى العموم وموقع الصدارة شبهاً بمن وما اللتين انتقلتا إلى الشرطية فصح فى خبره أن يقترن بالفاء كما يقترن جواب الشرط . وقد قدم النحاة لنا من ذلك مثالا يقول : « الذى يأتينى فله درهم » ولكن القرآن إذ يشتمل على شواهد من هذا القبيل يضيف إلى هذا التركيب توسعاً آخر فى مجالين : الأول : إنه قد يجعل الموصول اسماً لأن ويبقى على الفاء فى الخبر . والثانى : أنه قد يسحب هذه الخصائص على « ال » الموصولة فيجعلها كبقية الموصولات الاسمية. ويتضح كل ذلك فيما يلى :

أولا — الفاء فى خبر الموصول المبتدا :

* « والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم » .

* « والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم » .

ثانيا — الفاء فى خبر ان التى اسمها موصول:

* « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم » .

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » .

ثالثا — الفاء فى خبر الوصف المقترن بـال الموصولة :

* « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

* « والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة » .

٤ — وفى النحو أن النكرة توصف بالنكرة كما توصف المعرفة بالمعرفة ولكن القرآن يتحدى قواعد النحاة فى الشواهد الآتية التى وصفت فيها النكرة بالاسم الموصول وهو معرفة :

* « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله إلهاً آخر » .

* « هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » .

* « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل . . . » .

* « ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده » .

٥ ــ عطف المتغايرين :

للعطف فى صناعة النحو شروط تأتى من الاعتراف بالمشاركة بين المتعاطفين فى الخصائص ومن هنا يعطف الاسم على الاسم والفعل على الفعل ثم فى نطاق الفعل يعطف الماضى على الماضى ويعطف الحاضر على الحاضر وكذلك المستقبل على المستقبل . هذا فى النحو . أما فى القرآن فقد يعطف المتخالفان ويظل المعنى مع ذلك واضحاً واللبس مأموناً وينكشف الجانب الجمالى فى هذا العطف الذى يتحدى النحو والنحاة . من ذلك :

* « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » .

* « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » .

* « يوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله» .

* « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » .

٦ ــ تشويش الرتبة :

ليس فى النحو ما يأذن بعكس رتبة محفوظة ولكن القرآن يبدى من الحرية فى ترتيب الكلام ما لا مثيل له فى نص عربى آخر ومع ذلك يتضح المعنى ويؤمن اللبس ويتحقق الجمال . ومن شواهد هذه الظاهرة ما يلى :

* توسط الخبر المقترن بضمير الفصل بين « لكن » واسمها فى قوله تعالى : « لكن هو الله ربى » لكن ربى هو الله .

* تقدم الحال الجملة على الفعل وصاحب الحال فى قوله تعالى : « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » . وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ويصنع الفلك .

* تقديم نائب المفعول المطلق على المفعول به وصفته الظرف وتقديم ذلك كله على الفاعل فى قوله تعالى :

« أئفكاً آلهة دون الله تريدون » * أتريدون آلهة دون الله إفكاً .

* تأخير « لا » المؤكدة للنفى عن موضعها من الكلام كما فى قوله تعالى: « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء . . . » وما يستوى الأعمى والبصير ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسىء .

* تقديم الخبر الجار والمجرور ثم الحال على المبتدأ صاحب الحال فى قوله تعالى :

« فله جزاء الحسنى » فالحسنى له جزاء .

هذا نموذج مما يوجد فى القرآن من الظواهر التركيبية التى يصعب إحصاؤها فى المجلدات الطوال فما بالك بعجالة مثل هذا البحث قصد بها أن تكون على سبيل الإشارة فحسب ، وليس يتسع المقام للكلام فى ظواهر أخرى كمجىء الخبر جملة إنشائية وجعل الظرف

مضافاً إليه والترخص فى المطابقات ومزج الكلمة فى غيرها وتداخل الشرط فى الشرط وكذلك الشرط فى الخبر وعدم تعليق الجار والمجرور إلى غير ذلك من الظواهر التركيبية التى تمسك عن الكلام فيها طلباً للاختصار والاقتصار .

ثالثا ـ الأسلوب :

فى تناولى لأسلوب القرآن سيكون من همى أن أكشف عن بعض طرق القرآن للوصول إلى المعنى إما بإجراء يتصل بالمعانى الوظيفية لعناصر الكلام وإما بطريقة رد القرآن على المزاعم التى يزعمها الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين حتى من بعد ما جاءتهم البينة . وسأعرض لشواهد مختصرة على هذين النوعين على الترتيب وأقتصر عليهما فقط :

١ ـ التصرف فى المعانى الوظيفية :

سأعرض هنا لوسيلة القرآن للتعبير عن التكثير والتأكيد والتفصيل والتضمين والقطع والإشارة ونحو ذلك على النحو التالى :

التكثير :

يستعمل القرآن للتكثير طرقاً تشيع فى غيره كاستعمال « كم » نحو :

* « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » .

* « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين » .

وقد يستعمل الإبهام وسيلة من وسائل التعبير عن التكثير نحو :

* « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب »

ولكن القرآن يستعمل وسيلة أخرى يكاد يختص بها وهى « كأين » نحو :

* « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا . . . » .

* « وكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها . . . » .

* « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » .

التأكيد :

وما أكثر طرق التأكيد فى القرآن ولكننى سأحصر كلامى فى الطرق القرآنية التى لا تكاد تجدها فى غير القرآن وأهم ما لفت نظرى من ذلك التأكيد بالحرف ، ومن ذلك :

* الاستفتاح بفاء استئنافية لا تربط ما بعدها بشىء قبلها فى قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

* التأكيد بالفاء وثم وبتكرار اللفظ جميعاً فى قوله تعالى : « أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » .

التفصيل :

ويلفت النظر من ذلك أن يكون التفصيل إبدالا مما سبق كما فى قوله تعالى :

* « حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً » .

* أو أن يقع التفصيل موقع الحال كما فى قوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » .

التضمين :

وفى القرآن من هذه الظاهرة الشيء الكثير ولكننى سأختار ثلاثة شواهد يتضح بها التضمين كما يلى :

* قال تعالى : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » ومن الواضح أن حرف الجر «على» ليس مما يدخل على الفعل « استحب » ولكن الفعل هنا ضمن معنى « فضلوا » فدخل عليه حرف الجر .

*قال تعالى : « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » والمعروف أن المفعول الثانى للفعل « اتخذ » إذا جاء وصفاً فلا بد أن يكون قد نقل إلى الاسمية كأن نقول : « اتخذت فلاناً حارساً أو صديقاً أو خليلا أو ردءاً أو وزيراً . . . إلخ » أما أن يبقى على الوصفية فهذا لا يتفق مع إرادة الإفادة . وواضح أن « مهجوراً » غير منقول إلى الاسمية لأنه لا يدل على مسمى وإنما هو وصف باق على الوصفية فلم يبق إلا أن يكون القرآن قد ضمن « اتخذوا » معنى « صيروا » أو « جعلوا » فيستقيم المعنى .

* قال تعالى : « فتبسم ضاحكاً من قولها . . . » وقد نصب لفظ « ضاحكاً » على الحال وتعلق به الجار والمجرور . ولقد كان من الممكن أن يكون المعنى « فتبسم ساخراً » من قولها على زعم أن « ضحك منه » قد تدل على « سخر منه » أو « سخر به » ولكن سليمان لم يكن يسخر من النملة وإنما كان يعجب من قولها . ولما لم يكن فى اللغة « ضحك منه » بمعنى « عجب منه » فإن هذا المعنى لا ينسب إلى الآية إلا على سبيل التضمين أى تضمين « ضاحكاً » معنى « عاجباً » .

قطع المفعول :

ومعنى ذلك أن يعمد النص إلى مفعول فيقطعه عن سياقه بتسليط غير فعله عليه كما فى قوله تعالى : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم » أى « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرة ورزقاً كريماً » .

تقليب الأشارة :

وسأسوق من ذلك شاهدين أحدهما يشار فيه إلى متأخر فى الكلام قبل ذكره مع العلم أن الإشارة تكون للحاضر لا للآجل . والثانى

يشتمل على إشارة معنى مستخلص لم يصرح بلفظ ، فالأول :

* قوله تعالى : « ذلك جزاء أعـــداء الله النار » .

والثانى قوله تعالى : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » لأن المشار إليه هنا هو الصبر المستخلص من « صبر » والغفران المفهوم من « غفر » .

٢ – الرد على المزاعم :

وطريقة القرآن فى الرد على مزاعم الكافرين لا تخرج عن واحدة مما يأتى :

(أ) الاعتـــذار .

(ب) التنزيه .

(ج) الدعـــاء .

(د) التعجيز .

(هـ) التكذيب .

(و) الوعيـــد .

(ز) التعليق .

(ح) الإجابة :

١ – بسؤال .

٢ – بأمر بالسؤال .

٣ – بجواب .

٤ – بأمر بالجواب .

(ط) المزج بين اثنتين أو أكثر من هذه الطرق .

وفيما يلى الاستشهاد على ذلك :

(أ) الاعتـــذار :

* « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه
قل إنمـا أنت منذر
ولكل قوم هاد » .

* « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه
قل إنما أمرت أن أعبدالله ولاأشرك به
إليه أدعو وإليه مآب » .

(ب) التنزيـــه :

* « وقالوا اتخذ الله ولداً
سبحانه
بل له ما فى السموات والأرض
كل له قانتون » .

* « وقالوا اتخذ الله ولداً
سبحانه
بل عباد مكرمون
لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» .

(ج) الدعاء :

* « وقالت اليهود يد الله مغلولة
غلت أيديهم
ولعنوا بمـا قالوا » .

* « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً
ويتربص بكم الدوائر
عليهم دائرة السوء
والله سميع عليم » .

* « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا
صرف الله قلوبهم بأنهم قوم
لا يفقهون » .

(د) التعجيز :

* « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى
تلك أمانيهم
قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ».

* « أم يقولون افتراه
قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات
وادعوا من استطعتم من دون الله إن
كنتم صادقين » .

* أم اتخذو من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم .
هذا ذكر من معى وذكر من قبلى
بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم
معرضون » .

(هـ) التكـذيب :

* « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون
ألا إنهم هم المفسدون
ولكن لا يشعرون » .

* « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء
ألا إنهم هم السفهاء
ولكن لا يعلمون » .

* « يحلفون بالله ما قالوا
ولقد قالوا كلمة الكفر
وكفروا بعد إسلامهم
وهموا بما لم ينالوا » .

* « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم
وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء
إنهم لكاذبون » .

(و) الوعيـد :

* « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم
فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به
يستهزئون » .

* « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء
سيجزيهم وصفهم
إنه حكيم عليم » .

* « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم
قل استهزئوا
إن الله مخرج ما كنتم تحذرون » .

(ز) التعليـق :

* « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء
فقد سألوا موسى أكبر من ذلك
فقالوا أرنا الله جهرة » .

* « وقالوا لولا أنزل عليه ملك
ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر
ثم لا ينظرون
ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا
عليهم ما يلبسون » .

* « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول
أيكم زادته هذه إيماناً
فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً
وهم يستبشرون
وأما الذين كفروا فزادتهم رجساً
إلى رجسهم
وماتوا وهم كافرون » .

* « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان
خيراً ما سبقونا إليه وإذا لم يهتدوا به
فسيقولون هذا إفك قديم
ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة
وهذا كتاب مصدق
لساناً عربياً
لينذر الذين ظلموا
وبشرى للمحسنين » .

(ح) الاجابة :

١ ـ بسؤال :

* « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا
بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا
أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً
ولا يهتدون » .

* « ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً
معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون

فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه
ووفيت كل نفس ما كسبت
وهم لا يظلمون » .

* « فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقال
هذا إلهكم وإله موسى فنسى
أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا
ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً » .

* « وقالوا لولا يأتنا بآية من ربه
أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى »

٢ ـ بالأمر والسؤال :

* « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة
قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف
الله عهده
أم تقولون على الله ما لا تعلمون » .

* « قل من يرزقكم من السماء والأرض
أمن يملك السمع والأبصار
ومن يخرج الحي من الميت
فسيقولون الله !
قل أفلا تتقون
فذلكم الله ربكم الحق
فماذا بعد الحق إلا الضلال
فأنى تصرفون » .

٣ ـ الجواب :

* « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث
الله من يموت
بلى !
وعداً عليه حقاً
ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

* « أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه
بلى قادرين على أن نسوى بنانه » .

٤ ـ **الأمر بالجواب :**

* « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله
وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى
سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر
قل نار جهنم أشد حراً
لو كانوا يعلمون » .

* « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه
قل إن الله قادر على أن ينزل آية
ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

* « وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا
لمبعوثون خلقاً جديداً
قل كونوا حجارة أو حديداً
أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم » .

(ط) المزج بين اثنتين او اكثر من هذه الطرق :

* « ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت
أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا
رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين فلما
جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل
ما أوتى موسى
أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل
وقالوا سحران تظاهرا وإنا بكل كافرون
قل فأتوا بكتاب من عند الله هو
أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين
فإن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون
أهواءهم
ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى
من الله
إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

* « وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من
أرضنا
أولم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه
ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا
ولكن أكثرهم لا يعلمون
وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها
فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم
إلا قليلا وكنا نحن الوارثين
وما كان ربك لیهلك القرى حتى
يبعث فى أهلها رسولا يتلو عليهم
آياتنا
وما كنا بمهلكى القرى إلا وأهلها
ظالمون » .

* « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم
نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما
جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً
استكباراً فى الأرض ومكر السىء
ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله
فهل ينظرون إلا سنة الأولين
ولن تجد لسنة الله تبديلا
ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

* « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل
من القريتين عظيم
أهم يقسمون رحمة ربك

نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة
الدنيا
ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات
ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً
ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة
إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين ولا يستثنون
أفنجعل المسلمين كالمجرمين
ما لكم
كيف تحكمون
أم لكم كتاب فيه تدرسون إن لكم
فيه لما تخيرون
سلهم أيهم بذلك زعيم
أم لهم شركاء
فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين
فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون
وأملى لهم
إن كيدى متين
أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون
أم عندهم الغيب فهم يكتبون
فاصبر لحكم ربك
ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى
وهو مكظوم » .

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين
لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا
أو بدله
قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى
إن أتبع إلا ما يوحى إلى
إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب
يوم عظيم
قل لو شاء الله ما تلوته عليكم
ولا أدراكم به
فقد لبثت فيكم عمراً من قبل
أفلا تعقلون » .

« بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو
شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون
ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها
أفهم يؤمنون
وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم
فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون
وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام
وما كانوا خالدين
ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء
وأهلكنا المسرفين
لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم
أفلا تعقلون » .

هذا بعض من طرق القرآن فى التعبير الحر وفى التحدى المعجز ظهر بها أن القرآن نص عربى ولكنه يهيمن على اللغة ولا تهيمن عليه اللغة ويتسع للنحو ولا يتسع له النحو أفلا يجب بعد هذا أن نعترف بصحة قول من قال : « القرآن لا تنقضى عجائبه » ؟

تمام حسان
عضو المجمع

عوائل الأعيان
فى غابر العصور والأزمان
للدكتور رودلف زلهايم

من منا لم يعد خلال مطالعاته وأبحاثه إلى أمهات كتب التراجم الإسلامية الثرة، ومن منا لم يلاحظ أن كثيراً ممن ذكر فيها من الرجال والنساء ليسوا دوماً أشخاصاً متفرقة بل إنهم ينتمون غالبا إلى عوائل معينة، أخرجت العديد من رجال العلم والدولة. ومما يجدر التنويه به من كتب التراجم الضخمة التى صنفت مثلا بعد عصر التتار، وهى لعمرى غيض من فيض:

كتاب « الدرر الكامنة فى عيان المئة الثامنة » لابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢/١٤٤٩) وهو يضم ماينوف عن ٥٠٠٠ ترجمة، وكتاب « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » لابن تغرى بردى (ت ٨٧٤–١٤٧٠) وفيه حوالى ٢٨٠٠ ترجمة لأعلام القرن السابع إلى التاسع الهجرى / ١٣–١٥م، وكذلك كتاب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » للسخاوى (ت ٩٠٢–١٤٩٧)، ويشمل حوالى ١٢٠٠٠ ترجمة، وكتاب « الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة » للغزى (ت ١٠٦١–١٦٥١)، وفيه حوالى ١٥٠٠ ترجمة، وأخيراً وليس آخراً: كتاب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى (ت ١١١١ – ١٦٩٩)، وقد ترجم فيه لما يقارب من ١٣٠٠ رجل وامرأة.

إن هذه المصنفات وأمثالها لتمكننا من التعرف على عوائل كاملة، عاشت فى القاهرة مثلا، أو فى دمشق وحلب أو فى بروسه أو فى القسطنطينية، بل وتمكننا من تتبع وإرجاع أصولها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أحياناً، وملاحقة فروعها إلى عصرنا الحاضر، كما تساعدنا على تبين وقائع وتواريخ حياة بعض أفرادها وأعمالهم ومهنهم. وليس غريباً أن يصبح بوسعنا اليوم تعميق مواد هذه المصنفات المدهشة والإضافة إليها.

كلنا يدرك ضخامة المادة المخطوطة التى خلفتها لنا العصور الإسلامية الغابرة

(*) لقد سقطت على الخبير، فلقد تفضل صديقى الأستاذ حسام الصغير وأخرج هذه المحاضرة فى حلة عربية أصيلة، فله الشكر على جهوده وأفضاله الجزيلة.

وكلنا يعلم أيضا أن مفهرسى وواصفى هذه الوثائق الثرة يكتفون غالبا — وخصوصاً فى أيامنا هذه — بإثبات اسم مؤلف المخطوطة وعنوانها ، ولا يلتفتون إلى التقييدات المتناثرة عادة فى أول المخطوطة وآخرها أو على بطائنها وغلافها أو على جزازات محفوظة فى داخلها . مع أن هذه التقييدات البسيطة العابرة تستحق منا أقصى الاهتمام فهى التى تؤكد لنا غالبا المادة المعروضة فى كتب التراجم والتاريخ ، وقد تعدلها وتوسعها ، وتغنى بذلك معلوماتنا التاريخية عن الماضى وأهله ، وتكشف عن حياتهم اليومية وعن أعمالهم وإنجازاتهم ومشاكلهم وحاجاتهم كما أنها تمتاز بمصاحبتها للوقائع وشهودها للأحداث والأفكار ، فهى صادقة بقولها ، لم تتأثر بتفكير مصنف ، ولم تحرف بتداع خاطىء أو برواية راوٍ وتصحيف ناسخ وسنسوق فيما يلى بعض الأمثلة الموضحة لما قلناه(١) .

لقد عثرنا مثلا فى عداد كنز المخطوطات العربية المحفوظة فى مكتبة برلين الغربية على رسالة من أربع أوراق ، تبحث فى الخرقة الصوفية لمصنفها تاج الدين بن حمويه الجوينى(٢) . من هذه الرسالة ، أو بالأصح : من إجازة مكتوبة فى آخرها. أفدنا أن حفيد حفيد المصنف من قبل الأم شهاب الدين الساوجى — ذكره ابن حجر العسقلانى دون إشارة إلى تواريخ حياته — قد درسها يوم الثلاثاء الخامس عشر من ذى القعدة سنة ٧٤٧هـ/٢٧ شباط ١٣٤٧م ، أى قبل حلول الطاعون بعامين ، فى دار الإمام شمس الدين الحسينى فى قبة الطواويس فى مدينة دمشق وكان شهاب الدين قد سمعها فى صباه على عم أمه وحفيد المصنف الشيخ يوسف ، يوم الجمعة فى العشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٩٧ — ٤ نيسان ١٢٩٨ ، فى دمشق على جبل قاسيون ، وذلك بحضور أمه سفرى وشقيقها محمد وأختيها سارة وآمنة. فإن

---

(١) لقد اقتبسنا هذه الأمثلة من كتابنا حول المخطوطات العربية ، والذى صدر جزؤه الأول فى مدينة فيسبادن سنة ١٩٧٦ ، بعنوان Arabische Handschriften. Materialien zur arabischend Literaturgeschichte . وإننا لا نهدف فى هذا المقال إلا إلى عرض مخطط أولى مجمل ، لذا فإننا لن نتعرض إلى ما يحتويه كتابنا من مواد مستقاة من مخطوطات عربية لم تنشر . وموثقة بشواهد وأنساب متممة لها ، وسنكتفى بالإحالة إليها وإثبات ما انتهينا إليه من مادة جديدة بعد صدوره .

(٢) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ — ٨١ — ٨٨ والرسم ٥ ؛ وانظر كذلك البحث الممتاز للمستشرق الألمانى H. L. Gottschalk وعنوانه Die Aulad Saih as-suyuh (Banu Hamawiya) فى مجلة Wiener Zeitschrift fuer die Kunde des Morgenlandes ، ٥٣ / ١٩٥٧ / ٨٧ والذى فاتنا — للأسف الاستفادة منه آنذاك ؛ وانظر كذلك مقاله فى " دائرة المعارف الإسلامية Encyclopaedia of Islam ١ — ١٩٥٨ — ٧٦٥ ومايليها (مادة : أولاد الشيخ) ؛ وكذلك كتابه al-Malik al-Kamil von Egypten und seine Zeit. Eine Studie zur Geschichte Vorderasiens und Egyptens in der ersten Haelfte des 7./13. Jahrhunderts الصادر فى مدينة فيسبادن ١٩٥٨ ؛ وانظر أيضاً : العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبى (أسرة شيخ الشيوخ) لحامد زيان غانم ، القاهرة ١٩٧٨ .

رجعنا إلى ابن حجر العسقلانى ، لوجدناه يجهل هؤلاء الإخوة الأربعة ويجهل والدهم ولكنه يعرف أخاه ، أى عمهم يوسف ، الذى كان شيخ شيوخ السميساطية في دمشق ، وتوفى فيها فى ربيع الأول سنة ٧٠١هتشرين الثانى ١٣٠١م . أما جده تاج الدين ، مصنف رسالتنا المذكورة فقد كان تلميذاً للمؤرخ الشيخ ابن عساكر (ت ٥٧١ — ١١٧٦) . ورحل إلى بلاد المغرب فى السابع والعشرين من عمره ، وأقام هناك ست سنين ، كما قدم مصر وعاد إلى مسقط رأسه فى دمشق عام ٦٠٠ — ١٢٠٤ فتولى فيها منصب مفتى المسلمين ، إلى أن توفى فى الخامس من صفر عام ٦٤٢—١٣ تموز ١٢٤٤ ، ودفن فى اليوم التالى بمقبرة الصوفية ظاهر باب النصر ، ولقد كان متأهلا بابنة حفيد حفيد الصوفى الشهير القشيرى (ت ٤٦٥هـ — ١٠٧٢م) .

إن مصنف رسالتنا تاج الدين وأعقابه الذين تلقوا عنه تلك الرسالة ، يشكلون فرعا من عائلة ابن حمويه الجوينى . التى كانت تتوطن شمال إيران ، ثم ارتحلت إلى مصر وبلاد الشام . أما جدهم الأعلى حمويه فهو تبعاً لمخطوطة طهرانية — من سلالة الصحابى أبى أيوب الأنصارى (ت ٥٢-٦٧٢) . وإن ما انتهى إلينا من أعلام تدعى بابن حمويه الجوينى — وعددهم حوالى الثلاثين إلى الآن فهم من أعقاب أولاده الثلاثة : محمد وعلى وعبد الصمد . وإن مصنف رسالتنا تاج الدين لهو من نسل أعقاب الابن الأول الإمام محمد بن حمويه .ولقد ولد محمدهذا فى خركن (جوين) من ضواحى نيسابور فى خراسان وقرأ الفقه والأصول على إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى (ت ٤٧٨—١٠٨٥) وبنى خانقاه ببحير آباد إلى جانب داره . وأوقف عليها أوقافا . وتوفى هذا المفسر والمحدث والفقيه ، بعد أن ذاع تصوفه فى الآفاق ، فى الأول من ربيع الأول سنة ٥٣٠ / ٩ كانون الأول ١١٣٥ ، وأعقب عليا ، الذى تسنى له أن يسمع فى مدينة طوس على الإمام الغزالى (ت ٥٠٥ — ١١١١) ، ولما توفى فى نيسابورسنة ٥٣٩ — ١١٤٤ ، نقل جثمانه إلى بحير آباد فى جوين ودفن هناك إلى جوار والده . أما حفيده عمر — أحد أبناء على — فقد رحل إلى دمشق . حيث ولاه الأمير نور الدين زنكى مشيخة الشيوخ ، كما وكله برعاية الأوقاف ، وتوفى عام ٥٧٧ — ١١٨١ وله أربع وستون عاماً وأعقب صدر الدين ومؤلف رسالتنا تاج الدين . ولقد ولد صدر الدين فى جوين عام ٥٤٣ —١١٤٩ وقدم الشام مع والده ، وتأهل فيها للمرة الأولى بابنة الفقيه قطب الدين النيسابورى (ت ٥٨٧ — ١١٨٢) ، ثم رحل بعد فترة إلى القاهرة ، حيث درس بمشهد الإمام الحسين بن على وبقبة الإمام الشافعى . ولقد سيره السلطان الأيوبى الكامل (حكم ٦١٥/ ١٢١٨ —٦٣٥ — ١٢٣٨) رسولا إلى بغداد

ليستنجـد بالخليفة العباسى الناصـر (حكم ٥٧٥ / ١١٨٠ – ٦٢٢ / ١٢٢٥) على الإفرنج : عندما استولوا على دمياط وباتوا يهددون دلتا النيل ، ولكنه توفى فى الموصل فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦١٧ – ٢٦ آب ١٢٢٠ . ولقد أضحت تربة زوجه فى مقبرة القرافة بالقاهرة المثوى الأخير لأعقابه ، وفيها نجد شتى العلماء ومنهم من بلغ فى ميدان السياسة شأوا بعيداً كفخر الدين يوسف مثلا ، الذى برز شأنه على شأن إخوته الثلاثة ، ولقد ولد فى دمشق سنة ٥٨٢/ ١١٨٦ ، ودرس فيها وفى بغداد وارتفع قدره فى البلاد ، وتقلد أرفع المناصب وخير شاهد لنا على ذلك ، أن السلطان الكامل انتدبه لمفاوضة الإمبراطور الألمانى فريدرك الثانى(حكم ١٢١٢–١٢٥٠).فنجح فخر الدين فى مهمته ، وتوصل معه فى أواخر شباط ١٢٢٩ إلى اتفاق فريد ينظم أمور القدس ومكانتها ولقد حظى فخر الدين بتقدير واحترام الأمبراطور الألمانى – الذى اشتهر بغزارة علمه وأدبه – ويتضح ذلك من المناقشات والمراسلات التى دارت بينهما.ولقد تزعزعت مكانة فخر الدين بموت السلطان الكامل وتولى ابنه الغلام الغرير الظنون مقاليد الحكم فى القاهرة – ولقد تردد السلطان الجديد حينا ، ثم اتهمه بالخيانة العظمى وألقى به فى غياهب السجن، ولكن الفتى الشجاع الوفى(١)تحمل السجن والتعذيب ثلاث سنين بعزم ووقار. ولما عاجل الموت معذبه ، وأطلق سراحه ، تولى قيادة الجيش لقتال الصليبيين على أبواب دمياط والمنصورة (٦٤٧/١٢٤٩–١٢٥٠) . وفى فجر الرابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧ / ٨ شباط ١٢٥٠ فاجأ الصليبيون أو بتعبير أدق : جماعة الداوية (الاسبتارية) معسكره وهو فى الحمام ، فركب فرسه وساق لينظم قتالهم ، فحملوا عليه ، وفر مماليكه وأجناده ، وظل الأمير والعالم الشاعر يدافع عن نفسه ، حتى أثخنته الجراح وأودت به السيوف والرماح .

وكان ممن بقى فى جوين من أفراد عائلة ابن حمويه ، الصوفى الشهير وتلميذ نجم الدين الكبرى الشيخ سعد الدين . ولقد نزح إلى أقاربه فى دمشق حينا من الدهر هربا من هجوم التتار ، ولكنه عاد إلى خراسان لما ضاق به الحال ، واجتمع به جماعة من التتار : وتوفى فى عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة سنة ٦٥٠/١١ شباط ١٢٥٣ ، فدفن فى قبر جد جده محمد . ولقد أعقب صدر الدين إبراهيم ، وكان شيخا صوفياً طال ترحاله ، وتأهل بابنة المؤرخ الفارسى الشهير ووالى التتار علاء الدين الجوينى وأسلم غازان شاه على يده . وتوفى فى العراق فى الخامس من محـرم سنة ٧٢٢ / ٢٤

(١) كما دعاه المؤرخون الغربيون : vir strenuus et fidelissimus

كانون الثانى ١٣٢٢ . ولقد وجدنا لذريته بقيةفى خراسان فى القرن العاشر الهجرى١٦م.

حوالى منتصف القرن السابع الهجرى ١٣م تعالى صليل أسلحة المسلمين والصليبيين فى شرقى دلتا النيل ، وسقط الملك الإفرنسى لويس التاسع مع جيشه أسيراً فى أيدى المسلمين بالقرب من المنصورة فى السادس من نيسان سنة ١٢٥٠ . وفى هذا الأوان ألقى عصا الترحال فى القاهرة ، فقيه مالكى يدعى بابن أبى جمرة[1] . كان أصله من الأندلس ، وعلى وجه التحديد من مدينة مرسية . حيث أقامت عائلته — كما تفيد المصادر — أكثر من ثلاثة عشر جيلا ، وأخرجت العديد من المحدثين والفقهاء واللغويين . ولعل هزيمة المسلمين فى الأندلس ، فى الشمال الشرقى من قرطبة أدت إلى نزوح عائلته عبر مضيق جبل طارق حيث تابعت طريقها إلى مصر ، إننا لا ندرى ذلك ، ولكننا نعلم أن مدينة مرسية قد سقطت فى أيدى النصارى عام١٢٤١م ، وأن نشوة النصر والتعصب الدينى الأعمى دفعهم إلى إحراق المكتبات العامة والخاصة وإهدار مالا يعوض من ذخائر التراث النفيسة ، والوثائق الفريدة حول بلاد أوربا وشعوبها .

لقد عاش ابن أبى جمرة فى القاهرة حياة عالم متعبد متنسك ، وتوافدت عليه الناس شرقا وغربا للانتفاع بعلمه وبركته ، فانقطع فى زاويته يدرس كتب الحديث وفى مقدمتها صحيح البخارى ، حتى بشرحه له المسمى بهجة النفوس وتحليها بما لها وعليها . كما درس غيرها من مصنفاته . ولما توفى ابن أبى جمرة سنة ٦٩٥ — ١٢٩٦ دفن فى زاويته ، التى لا تزال قائمة ومعروفة إلى يومنا هذا ، وهى تقع حذاء الجبل المقطم على طرف القرافة ، وبالقرب من مدفن المؤرخ ابن سيد الناس (ت ٧٣٤ / ١٣٣٤) الذى جرى ترميمه فى السنوات الأخيرة بعد أن نالت منه معاول السنين .

إن حوش ابن أبى جمرة لعلى شكل مستطيل محاط بجدار منخفض ، يقارب طول ضلعه الأمامى عشرة أمتار ، والجانبى خمسة عشر متراً ، وهو لا يخلو من قبور قريبة العهد . أما ضريح الشيخ فهو إزاء ضلعه الخلفى ويشكل قبة مربعة القاعدة ، طول ضلعها أربعة أمتار تقريبا ، وينخفض مدخل القبر نفسه عدة درجات عن ثرى الحوش ، مما يدل على ارتفاع الثرى على كر الدهور . ولا غرو فى ذلك ، فكتب التراجم العربية تفيد أن الحوش قد وارى بعضا من ذرية الشيخ ومن المعتقدين بكراماته ، ومن المترددين على مقامه للبركة والدعاء وتلاوة القرآن أيام الجمع والأعياد . ولقد طمر التراب زاويته ، فلم يعد يبدو منها ومن محرابها سوى القسم الأعلى المدبب الرشيق . والحوش

---

(١) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ٦٣ — ٦٩ وكذلك الرسم ٤

إجمالا مرتب ونظيف ، فإما هبطنا إلى قبر الشيخ ، رأينا مقامه خلف الباب ، يجلله غطاء حريرى أخضر ، طرزت عليه الكلمات التالية : هذا مقام سيدى عبد الله بن أبى جمرة الأندلسى سلطان المشرق والمغرب المتوفى ٦٩٩هـ (والصحيح ٦٩٥/١٢٩٦) . وقد يتساءل المرء فى عجب ودهشة ، كيف تمكن هذا الحوش المتواضع المبنى من حجر وطين أن يصمد لمعاول الفناء طوال سبعة قرون . والجواب عن ذلك يكمن فى طبيعة المصرى وإجلاله لحرمة الماضى ، ولكن ليس ذلك فحسب ، فلقد كان شيخنا فى اعتقاد الناس ولياً من أولياء الله ، كما بزغ من أسلافه عديد من الفقهاء والقضاة ، وبوسعنا أن نتتبع أخبارهم إلى عهدهم فى مدينة مرسية ، وقبلها إلى مدينة دمشق ، حيث كان أحدهم ، وهو عبد الجبار ، مولى للخليفة الأموى مروان (حكم ٦٤/٦٨٤ — ٦٥—٦٨٥هـ) بل وإننا نعرف جده الذى عاصر النبى صلى الله عليه وسلم. ويبدو أن ذرية الشيخ قد تتابعت عن طريق ابنته الشيخة الصالحة أم الخير ، والتى دفنت فى حوشه ، كما دفن فيه آخرون . ومنهم من كان من أعيان القاهرة وإن كتب تراجم القرن العاشر الهجرى- ١٦م لم تغفل عن ذكر من دعى بابن أبى جمرة من معاصريها . وإن الحوش[1] الذى ارتفع ثراه ، كما ذكرنا ، متراً ونصفا تقريباً ، ليطمر فى حناياه كثيراً من أحجار القبور ، ولكن من سيزعج الموتى فى قبورهم ليحصل على بضع من أسماء الأعلام وطرف من أخبارهم .

إن تقييد تملك لمحمد بن أحمد بن محمد ابن عثمان بن المُنَجَّا[2] على وجه مخطوطة نفيسة

---

(١) حوش ابن أبى جمرة مذكور فى الخرائط القاهرية : Index to Mohammedan Monuments, appearing on the special 1 : 5000 scale maps of Cairo الصادرة فى القاهرة سنة ١٩٥١ ، خريطة ٢ ك ١٣ ؛ وكذلك لدى Louis Massignon فى مقاله La cité des morts au Caire (Qarafa-Darb al-Ahmar) المنشور فى مجلة المعهد الإفرنسى للآثار الشرقية Bulletin de L'Institut Francais d'Archélogie Orientale ٥٧/١٩٥٨/ ٢٥ — ٧٩ لوحة ١ Opera minora ٣ — ١ ، بيروت ١٩٦٣ ، وذلك فى ٣/٢٣٣—٢٨٥ لوحة (١٧) .

لقد قصدت وصديقى الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب هذا الحوش فى ١٦ آذار ١٩٧٨ واهتدينا إليه دون عناء ، بمساعدة قيم جامع الإمام الشافعى . ومما يستحق الذكر لدلالته الكبيرة فى سياق مقالنا ، أننا سألنا القيم أولا عن موضع قبر المؤرخ ابن سيد الناس ، فلم يعرفه ، بل قال بأنه يعرف مثلا : قبر ابن عطاء الله السكندرى وابن الهمام وابن أبى جمرة .أى بتعبير آخر : قبور الأولياء .

(٢) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ٥٤ — ٦١ وكذلك الرسم ٣ ؛ وقارن مقال J. E. Gilbert وعنوانه Institutionalization of Muslim scholarship and Professionalization of the ulama in medieval Damascus الصادر فى مجلة Studia Islameica ٥٢ / ١٩٨٠ / ٦٧ — ٨٨ .

مؤرخة فى عام ٥٨٠ / ١١٨٤ ، يسوقنا إلى مدينة من أقدم مدن التاريخ وجنة تجرى فيها المياه العذبة النميرة ، إلى مدينة دمشق فى غضون القرن الثامن الهجرى — ١٤ م . أما مالك المخطوطة فكان — كما يفيدنا ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ / ١٤٤٩) — من أعيان دمشق وناظراً للجامع الأموى . وكان فى حورته خزانة غنية بكتب مدونة بخط مصنفيها ، لم يضن على الناس بها ، وخصوصا على العلماء . وهكذا فقد نظر فيها ابن حجر العسقلانى عندما تلقى العلم فى دمشق على يد العالمة أم الحسن فاطمة ابنة مالك مخطوطتنا ابن المنجا (ت ٨٠٣ / ١٤٠٠) . وإننا نكاد نعرف خمسين فرداً من عائلة العلماء أبناء المنجا منذ أواخر القرن السادس إلى القرن العاشر الهجرى — ١٢ — ١٦ م ؛ ومن بينهم تسع نساء — عدا أم الحسن المذكورة — عُرفن بتدريسهن أو بروايتهن للتراث أو لحضورهن حلقات العلم . ولا غرابة فى هذا الأمر . فكلنا يدرك قيمة العلم فى الإسلام . ويعى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »(١) ولقد أخرجت عائلة ابن المنجا كثيراً من القضاة الحنابلة وقضاة القضاة ، والأساتذة وشيوخ الطريقة ؛ ومن التجار وموظفى الدولة ؛ واختصت بتربة بظاهر مدينة دمشق فى الصالحية على سفح جبل قاسيون وراء جامع المظفرى ؛ ولعل الأيام تظهر هذه التربة المندرسة . أو جزءا من بقاياها على الأقل . ولقد كان فى الجامع

---

(١) لايزال هذا الحديث منقوشاً فوق مدخل المدرسة التى بناها ألغ بك فى بخارى سنة ٨٢٠ / ١٤١٧ ، وكان مشجعاً للعلم والفنون وحفيداً لغازى العالم تيمورلنك وانظر من أجل هذا الحديث ٣ : سنن ابن ماجة ١ — ٢ ، القاهرة ١٣٧٢ / ١٩٥٢ — ١٣٧٣ / ١٩٥٣ ، رقم ٢٢٤ ؛ الرحلة فى طلب الحديث للخطيب البغدادى ، بيروت ١٣٩٥ / ١٩٧٥ ، ص ٧٢ ومايليها ؛ وكتاب Muhammedanische Studien للمستشرق الكبير I. Goldziher ، الصادر فى جزئين فى مدينة Halle/Saale ١٨٨٩ — ١٨٩٠ ، ٢/٣٠٥ حاشية ٥ ، وكذلك مقال Abdul ali وعنوانه The inspiration Islam gave to cultivation of knowledge and learning فى مجلة Islamic Culture ٥٣ / ١٩٧٩ / ١٧٩ — ١٨٦ . وانظر من أجل عالمات الإسلام . ، مقال A. Nègre وعنوانه Les femmes savantes chez Dahabi فى مجلة Bulletin d'Etudes Orientales ١٩٧٨/٣٠ (١٩٨٠) / ٧٥—٨٣ ؛ وكذلك كتاب Wiebke Walther وعنوانه Die Frau im Islam الصادر فى ليبزج ١٩٨٠ . وراجع من أجل ألغ بك محاضرتنا وعنوانها Licht aus dem Orient. Morgenlaendische Skizzen vor abendlaendischem Hintergrund والتى طبعت فى كتاب Araber und Deutsche. Begegnugen in einem Jahrtausend بإعداد F. H. Kochwasser و H. R. Reomer فى مدينتى توبنجن وبازل ١٩٧٤ ، ص ٥٣ = نور من الشرق . رسوم شرقية على خلفية غربية . فى كتاب ألمانيا والعالم العربى ، ترجمة مصطفى ماهر وكمال رضوان ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٦٠ ومايليها .

الأموى زاوية تدعى بالمنجائية نسبة إلى موقفها ، وهو أحد أعمام والد الشيخ محمد ، مالك مخطوطتنا المذكور وكان متضلعاً بعلوم الدين . ولقد فتح بعض أفراد هذه العائلة بيوتهم أجيالا عديدة خدمة التحصيل وتدريس القرآن والحديث والفقه وغيرها من العلوم . كما كان لهم فضل إنشاء حمام عمومى وجامع فى مدينة دمشق . ولا غرابة فى هذا كله ، فما هذه العائلة إلا حلقه فى سلسلة تقاليد الأوقاف الإسلامية العريقة ، التى تستحق منا الإكبار والإجلال . .

ولننتقل الآن إلى الحديث عن عائلة أخرى ولتكن عائلة ابن البيلونى(١). بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية عام ١٤٥٣م ،واتخذوها عاصمة لإمبراطوريتهم المتوسعة فى جميع الجهات ، شرعت جحافلهم تزحف شرقاً ، متخطية حدود البحر الأسود ، وناشرة القلق فى تلك المناطق الممتدة حتى بحر الخزر (قزوين) ، ولقد جرّ هذا على سكان البلاد شدة وضيقاً جديدا ، بعد أن عانوا طويلا من الغزوات المتكررة ، التى قامت بها جيوش تيمورلنك (ت ١٤٠٥ م) .وهكذا فقد فضل بعضهم النزوح عن وطنه الجميل فى مرتفعات القفقاس الشرقية ، والبحث عن وطن جديد يسوده الهدوء والأمان . وكان بين النازحين غرباً صبى يدعى ابن البيلونى ، استقرت عائلته فى مدينة حلب ، وكتب له أن تتجاوز شهرته العلمية يوماً حدود بلده الجديد . كان والده شيخا حافظاً ، ولكننا لم نعثر له على أثر فى كتب التراجم . أما اسم عائلته ، فلعله يعود إلى جد كان يصنع ويبيع البيلون(٢)— وهو الصابون— فى وطنه باب الأبواب (دربند) فى داغستان لقد حظى الصبى ابن البيلونى بتلقى العلوم الإسلامية على يد كبار عصره فى حلب ومكة ، وبتزيين ثبته بأسمائهم وإجازاتهم بخطوطهم . وغالباً ما حصل على تقييدات شخصية عن سيرتهم وسيرة أساتذتهم وشيوخهم ؛ وهذا فخر وشرف له . وزاد فيه رفعة إلباسه طاقية الصوفيين ومصافحته بعد سماعه الحديث المسلسل بالمصافحة وبلباس الخرقة . وهكذا شب الصبى اللاجىء وغدا شيخاً متضلعاً فى شتى مجالات العلوم الإسلامية . ولما توفى سنة ٩٢٩ / ١٥٢٣ ، صلى عليه الإمام زين الدين الشماع ، وحدث أن سمع بعد دفنه جماعة مع الشيخ الكيزوانى يقرأون على قبره شيئاً من النظم ، فشاط به الغضب لهذه البدعة .

ولقد خلف ابن البيلونى ولدين سماهما محمداً على اسمه ، باختلاف فى الكنية — وليس هذا بغريب ، فإننا نجده لدى عوائل أخرى— وكذلك بنتاً اسمها خديجة (ت ٩٣٠/

---

(١) انظر كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ١٩٢ – ١٩٥ وكذلك الرسم ١٢

(٢) لعل أصلها الكلمة اليونانية balaneion ومعناها : الاغتسال بماء حار وحمام عمومى .

١٥٢٤) ؛ فساروا جميعاً على نهج والدهم ، ونالوا نصيبهم من الشهرة والتقدير فى مدينة حلب . ولقد حظى أكبر ولديه أبو البركات بإجلال قاضيها له ، كما كان يدرس أحياناً بعض شخصيات المجتمع العامة ، وتوفى فى منبج عام ٩٣٥هـ/١٥٢٩م قبل بلوغ الأربعين من عمره . أما أصغرهما أبو اليسر إمام الحجازية بالجامع الأموى فى حلب فكان غاية فى التواضع خلقاً ومظهراً ، وكان لا يترفع عن عمل مهما كان ، بل يقدم على حمل أطباق العجين إلى الخباز على عاتقه ، ومات مطعوناً سنة ٩٦٢ / ١٥٥٥ . وكان فى حياته قد احتضن ابن أخيه محموداً (ولد ٩٣٣ / ١٥٢٦) بعد أن عاجلت المنية والده واهتم بتربيته وتعليمه ، وهكذا حفظ الصبى القرآن جرياً على تقاليد ذاك الأوان ، ثم لازم تلميذ والده المؤرخ والمترجم الشيخ رضى الدين ابن الحنبلى ، وقرأ عليه الكتب المدرسية المعهودة آنذاك فى الصرف والنحو والبلاغة والقراءات والفقه والمنطق والحديث كما قرأ رسائل فى الأخلاق والنجوم والرياضيات وإلى ما هنالك ، وكذلك أشعار شيخه ومؤلفاته. وأجاز له شيخه رواية جميع ما تجوز له وعنه روايته . ولقد جدّ محمود فى طلب مزيد من الإجازات من علماء حلب ، ومن شيوخ دمشق والقاهرة ومكة عند تأديته لفريضة الحج . وغدا شيخاً لا يستهان بعلمه . ولما ثقل سمعه وضعف بصره ، تخلى عن وظائفه وانقطع فى منارة ، لم يكن يغادرها إلا للاغتسال ، ولكنه كان يحرص على الاشتغال بمصالح عياله ، بل وحماية الحمام فى صومعته بكف الجوارح عنها . وكان الناس يثنون عليه وينسبون إليه الصلاح . وتوفى فى الثالث والسبعين من عمره فى القاهرة حيث أتاها فى طريقه إلى الحج ، فدفن فى آخر شوال عام ١٠٠٦هـ — ٤ حزيران ١٥٩٨م بالمقبرة المعروفة بالقرافة بالقرب من الجامع الأزهر عند مدفن شيوخه — المجيزين له . وبهذه المناسبة ، فلقد وصلت إلينا مخطوطة صغيرة بخط يده ، محفوظة فى مكتبة برلين ، فيها تراجم جده وأبيه وعمه وعمته الشيخة الصالحة القارئة والمتفقهة خديجة (ت ٩٣٠ — ١٥٢٤) ، وكذلك ترجمته إلى العقد الرابع من عمره[١] وهى جميعها منقولة من كتاب در الحبب فى تاريخ أعيان

(١) لقد حققنا نص المخطوطة ونشرناه بعنوان Die Gelehrtenfamilie Ibn am-Bailunt فى الكتاب التذكارى Die islamiche Welt zwischen Mittelalter und Neu- zeit. Festschrift fuer H. R. Roemer zum 65 Geburtstag باعداد U. Haarmann و P. Bachmann فى مدينة بيروت ١٩٧٩ ، ص ٥٦٢ — ٥٨٢ . ومن أجل ما دونه التاجر الألمانى الذى قضى سبع سنين فى مدينة حلب ، كما عهدها أبناء البيلونى ، انظر كتاب A. Tietze وعنوانه Sieben Jahre in Aleppo (1656-1663), ein Abschnitt aus den "Reiss-Beschreibungen" des Wolfgang Aigen صدر فى فيينا ١٩٨٠ ، سلسلة Beihefte zur Wiener Zeitschrift fure die Kunde des Morgenlandes .

حلب لشيخه رضى الدين ابن الحنبلى (ت ٩٧١ / ١٥٦٣) . ولقد أضاف ابنه الفقيه محمد فتح الله (ت ١٠٤٢ — ١٦٣٢) ، أشهر أبناء البيلونى فى جيله ، حاشية إلى ترجمة والده فى هذه الوثيقة الصغيرة . ولقد أنجب الفقيه ولداً سماه محمداً (ت ١٠٨٥ — ١٦٧٤) وصار قاضياً مثله ، وهو الذى ندين له فى أوروبا بفضل معرفتنا المبكرة لكتاب تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لمصنفه الرحالة ابن بطوطة الطنجى (ت ٧٧٩ — ١٣٧٧) . فلقد وصل إلينا مختصره لذلك الكتاب ، فترجم إلى الإنكليزية فى لندن سنة ١٨٢٩ م . وأخيراً فقد انتهى إلى سمعنا ، أنه لا يزال فى مدينة حلب قوم يدعون بابن البيلونى ، ولا شك أنهم من أعقاب هذه العائلة الكبيرة .

لقد برز أبناء البيلونى — كما رأينا — من غيب التاريخ فى غضون القرن التاسع الهجرى وكذلك برز أبناء القوصونى[1] ، ولكن ليس فى باب الأبواب (دربند) على ضفاف بحر الخزر (قزوين) ، بل فى القاهرة على ضفاف النيل . ففيها عاش الطبيب عبد الوهاب ابن صدقة (ت ٨٣٥ / ١٤٣١) المدعو بالقوصونى نسبة إلى جامع قوصون[2] . فلعله كان يقيم فى حيه . وتفيد المراجع أن عبد الوهاب قد أعقب من زوجه . وهى أخت رئيس الجراحة فى القاهرة جمال الدين بن عبد الحق (ت ٨٩١ / ١٤٨٦) .

ورغم وفاته المبكرة فقد نال ابنه محمد قسطاً وافراً من العلم ، ودرس الطب ، فحذق فى ممارسة هذه الصناعة ، وحمد الناس علمه وعلاجه ، فاشتهر وانتبه البلاط إليه ، فاتخذه السلطان الأشرف قانصوه الغورى (حكم ٩٠٦ / ١٥٠١ — ٩٢٢ / ١٥١٦) طبيباً خاصاً له . ولقد حفظ لنا الدهر من مؤلفاته الطبية مخطوطة فاخرة فى السموم . كتبها لخزانة السلطان عام ٩١٢ — ١٥٠٦ ، وهى الآن فى حوزة دار الكتب الوطنية فى القاهرة وتوفى محمد فى السابع عشر من ربيع الأول سنة ٩١٧ — ١٤ حزيران ١٥١١ ، وهو فى الحادى والسبعين من عمره ، وخلف ولداً خلفه اسما وصناعة ، ولم يقصر عنه علماً ومكانة ، كما جمع — تبعاً للمصادر — بين حسن الشكل والخلق والنباهة والفصاحة . ولقد أسره العثمانيون مع أتباع السلطان الأشرف قانصوه الغورى بعد موقعة حلب ، فتمكن من الهرب . وعفا عنه السلطان العثمانى سليم الأول (حكم ٩١٨ / ١٥١٢—٩٢٦ / ١٥٢٠) فى معسكره

(١) انظر كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ٢٠٢ — ٢١٣ وكذلك الرسم ١٣

(٢) راجع كتاب Aegypten und der Sudan. Handbuch fuer Reisende لمصنفه K. Baedeker صدر فى مدينة ليبزج . ١٩٢٨ (ط ٨) ص ٦٥ لقد بنى هذا الجامع القائم إلى يومنا هذا سنة ٧٣٠ / ١٣٣٠) . بأمر الأمير سيف الدين قوصون بن عبد الله الساقى الناصرى (قتل ٧٤٢ / ١٣٤٢) وكان أمير الألف وزوج ابنة السلطان محمد الناصر (حكم ٧٠٩ — ١٣١٠ — ٧٤١ — ١٣٤١) .

فى مصر فى الرابع عشر من ذى الحجة عام ٨/٩٢٢ كانون الثانى ١٥١٧ ، أى قبل فتح القاهرة بثلاثة أسابيع تقريباً ، فى الثامن من محرم سنة ٩٢٣ / ٣١ كانون الثانى ١٥١٧ ومن المعروف أن السلطان سليم الأول قد غادر القاهرة بعد ثمانية أشهر عائداً إلى القسطنطينية ، ومصطحبا لكثير من العلماء والإداريين والمعماريين وأصحاب المهن اليدوية . ولا بد أن صاحبنا محملاً القوصونى كان فى عدادهم ، فلقد وجدنا تقييداً له يدل على تملكه لإحدى المخطوطات الأدبية ، مؤرخاً فى الديار التركية سنة ١٥١٨/٩٢٤ . كما أن التقرير الطبي لوفاة السلطان الخالد سليم الأول يتضمن توقيعه المؤرخ فى التاسع من شوال سنة ٢٢/٩٢٦ أيلول ١٥٢٠ . ويبدو أن السلطان سليمان القانونى ، الذى خلف سليم الأول على عرش السلطنة العثمانية ، قد أذن لمحمد القوصونى بالعودة إلى وطنه . ومهما يكن فقد توفى صاحبنا فى مدينة رشيد فى الحادى عشر من صفر سنة ٩٣١ / ٨ كانون الأول ١٥٢٤ .

ولقد نهج ابنه محمد سبيل والده وجده فى ممارسة صناعة الطب وبلغتنا عن حياته أخبار موثوقة ، كتبها زميل له كان على صلة به ودارت بينهما مراسلات وملاطفات ، كما وصلت إلينا تسعة كتب من مصنفاته العلمية .

ولقد ولد ثالث المحمدين هذا فى القاهرة سنة ٩٢٠ / ١٥١٤ ، وفقد والده وهو ابن عشر سنين ، ولكنه كان ذكياً مجداً فى طلب العلم ، فلا غرو أن غدا طبيباً تلهج ألسنة الناس بذكره والثناء عليه . ولما بلغ الرابع والثلاثين من عمره ، استدعى لمعالجة الأمير بايزيد ، والى قرمان فى الأناضول ، فذهب إليه — حتماً إلى مقره فى قونية — ووفق فى علاجه ، فطلبه والد الأمير السلطان العثمانى الشهير سليمان (حكم ٩٢٦ / ١٥٢٠ — ٩٧٤ / ١٥٦٦) فى العام التالى — وكان فى حملة ضد بلاد الفرس — ليعالجه من النقرس ، وعزل لأجله طبيبه اليهودى هامون زاده ، وجعله مكانه . ولاشك أنه قد رافق السلطان إلى القسطنطينية بعد انتهاء حملته فى أواخر سنة ٩٥٦ / ١٥٤٩ ، إذ لما جاء مترجمه وزميله من عهده القاهرى إلى عاصمة العثمانيين للمرة الثانية سنة ٩٦٥ / ١٥٥٦ ، اجتمع به وأخبرنا فى ترجمته ، أنه رآه فى عظمة وجاه ، متولياً رئاسة الحكماء ؛ وقد سأل فى الحج مراراً ، فلم يأذن له السلطان ، لأنه بات لايصبر عنه ساعة واحدة ولما توفى السلطان سليمان ، عظمه السلطان سليم الثانى (حكم ٩٧٤ / ١٥٦٦ — ٩٨٢ / ١٥٧٤) من بعده ، ولم يقو على فراقه أيضاً . ولكن قيسونى زاده — اسمه بالتركية — توفى بعد سنتين ، وهو فى الرابع والخمسين من عمره . وذلك فى صفر عام ٩٧٦ / تموز ١٥٦٨ .

ومن بين أعيان القرن الحادى عشر الهجرى / ١٧ م تطالعنا أسماء ثلاثة علماء

يدعون بالقوصونى ، كان أحدهم أكبر أطباء القاهرة ، ولقد وصل إلينا من خزانته العديد من المخطوطات التى خطها بيده ، ولكن لاسبيل لنا لتبين أسباب قرابتهم .

لن نتمكن فى نطاق هذا المقال من الحديث عن عائلة المحبوبى[١] ، التى أظهرت العديد من فقهاء الحنفية ، ولعبت دوراً هاماً فى بخارى بين القرن السادس والثامن الهجرى — ١٢ — ١٤ م ، وذكرت أخبارها الوثيقة وأنسابها العريقة فى تاريخ مقبرة مدينة بخارى مثلا ، والذى دُوّن فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى — ١٥ م . ولن نتمكن كذلك من الحديث عن عائلة الأستروشنى[٢] ، والتى تطالعنا مثلا فى مدرسة قلعة زندنه فى شمال بخارى أو عن عائلة الحمصى الرازى[٣] فى القرنين السابع والثامن الهجرى — ١٣ — ١٤ م . وأصلها من الرى — وتدعى اليوم بطهران — وبرزت لدى الإلخانيين فى السلطانية ، أو عن عائلة التركمانى[٤] التى بزغ منها العديد من الرياضيين والفلكيين فى القاهرة ، وكذلك فى مدينة سراى عاصمة خانات آلتون أوردو ، والتى تقع على ذراع من نهر الفولجا بالقرب من البحر الأسود (بالقرب من المدينة المعاصرة فولجوجراد) ؛ أو عن عائلة ابن الوردى[٥] ، وأصلها من معرة النعمان فى الشام ، وتطالعنا فى القرن الثامن والتاسع الهجرى / ١٤ — ١٥م فى مدينة حلب بصورة رئيسية ؛ ولكننا نود أن نتعرض أخيراً لعائلة ابن الفنارى[٦] المتفرعة .

لقد عاش أبناء الفنارى فى ظلال العثمانيين فى مدينتى بروسه والقسطنطينية وغيرهما ، وإننا لانعلم أصلهم علم اليقين ، فبعض المصادر التركية المتأخرة تنص على قدومهم من بلاد ماوراء النهر ، وعلى نسبتهم إلى مكان هناك — لانجد له أثراً فى المراجع — أو إلى قرية مزعزمة بالقرب من مدينة بروسه . وتفيد بعض النصوص العربية المتقدمة ، أن أقدم أفراد العائلة — واسمه حمزة — كان يصنع الفنارات[٧] ، وأنه أهدى فناراً لملك الروم — أى للسلطان العثمانى — فلقب بعدها بالفنارى . أما ابنه شمس الدين محمد (ولد ٧٥١ —

(١) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ — ١١٤ — ١٢٥ وكذلك الرسم ٧
(٢) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٣٠ — ١٣٤ وكذلك الرسم ٨
(٣) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٤٠ — ١٤٧ — وكذلك الرسم ٩
(٤) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٦٩ — ١٧١ وكذلك الرسم ١٠
(٥) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٧٦ — ١٨٦ وكذلك الرسم ١١
(٦) راجع كتابنا المذكور ١ / ٣٢٢ — ٣٣٢ وكذلك الرسم ١٨
(٧) الفنار : من الكلمة اليونانية Phanarion .

١٣٥٠م) — أى ابن الفنارى — فقد حصل العلم فى الأناضول وفى مصر ، وعاش فى مدينة بروسه ، واشتهر بفتاويه ، فلم يتوان السلطان العثمانى بايزيد (حكم ٧٩١— ١٣٨٩— ٨٠٥ — ١٤٠٣) — وكان يكبره بثلاث سنوات — عن الاستعانه برأيه فى عاصمته بروسه[1] ، كما استدعاه سلطان مصر المؤيد (حكم ٨١٥ — ١٤١٢— ٨٢٤— ١٤٢١) ليناظر جمعا من علماء القاهرة . ولقد در كل هذا الشرف على الشيخ الشهير أموالا جمة ، ولكنه أدى إلى انشغاله عن كتابة ماكان يطمح إليه ، فخلف فى خزانته الحافلة بما ينوف عن عشرة آلاف مجلد ، العديد من كتب الفقه والمنطق والبلاغة والعقائد ، ولم يتسن له إتمام تصنيفه . وكان من عادته أن يجود على عبيده وخدمه بأفخر أنواع الملابس والفراء ، وأن يتواضع فى لباسه وطعامه وشرابه ، كما كان يصر على كسب عيشه بعرق جبينه ، ليبقى حراً لاتأخذه فى قول الحق — ولو للسلطان — لومة لائم ، ولكن ضيق وقته لم يتح له مجالا واسعاً للتكسب من تجارته فى بيع الحرير . ولقد توفى بعد عودته من الحج عام ٨٣٤ — ١٤٣١ ، ودفن فى بروسه إزاء الجامع الذى بناه له السلطان . كما دفن هناك من بعده العديد من أفراد ذريته وآخرهم — على قدر علمنا — إبراهيم أفندى والذى دفن عام ١١٣١ / ١٧١٨ حذاء شاه محمد (ت ١٠٥١ / ١٦٤١) ، وهو عقب حفيد حفيد ابن الفنارى ، وكان شيخاً درس فى مدارس متعددة فى بروسه والقسطنطينية ومغنيسية ، وقاضياً فى قونية وصوفية والمدينة المنورة ومن ثم فى بروسه . ولقد اتخذت عائلة ابن الفنارى منذ وفاة ابن حفيده محمد مدفنا ثانياً فى القسطنطينية جوار جامع أبى أيوب الأنصارى (ت ٥٢ / ٦٧٢) . ولقد انتهى محمد المذكور (ت ٩٥٤/ ١٥٤٧) إلى منصب شيخ الإسلام ، وهى أعلى مرتبة دون وزير الوزراء ، وحباه عدله بإجلال وتقدير الجميع فى الدولة العثمانية وهى فى أوج توسعها وعظمتها . كما اشتغل بالعلم وخلد اسمه فى شروحه لكتب الفقه والبلاغة وغيرها . أما أخوه الأكبر محمد شاه (ت ٩٢٩/ ١٥٢٢) فقد حظى منذ ولادته بمنحة شرف من الدولة كرامة لأبيه الشيخ الجواب وقاضى العسكر علاء الدين على (ت ٩٠٣ / ١٤٩٧) ، ولم تذهب هذه النعمة سدى ، فقد غدا محمد شيخاً وقاضياً فى بروسه والقسطنطينية وأدرنة ، وقاضياً بالعسكر فى البلاد العربية والأناضول والولايات التركية فى أوربا كل هذا رغم قصر أجله ، فقد توفى وهو فى السادس والأربعين من عمره . ودفن فى تربة والد جده ابن الفنارى فى بروسه . ولقد تزوجت ابنة عمهما بأمير بحر تمركز

(١) لقد اتخذ العثمانيون من القسطنطينية عاصمة لهم بعد فتحها سنة ١٤٥٣ م .

بأسطوله فى الميناء الشهير جاليبولى ، وأنجبت عبيد الله ، الذى ساقته الأقدار إلى منصب القضاء فى مدينة حلب . ولما توفى سنة ٩٣٦/ ١٥٢٩ خلف وراءه خزانة عامرة . ولقد ضم أحد أقاربه قسما منها إلى مكتبات بعض أبناء الفنارى ، أو إلى أجزاء منها ، ووهبها لابن أخيه عندما فجع بوالديه فى صغره وإننا لا نعلم مصير هذا الصبى ولا مصير أبناء الفنارى الأخر ، فكتب التراجم بدأت تضمحل فى ذاك الزمان . ولقد حان الأوان للتنقيب فى سجلات البلاد الإسلامية الحافلة لاستنطاقها عن أخبار جديدة حول هذه العائلة وأمثالها من عوائل الأعيان(١) .

لقد استللنا ما ذكرناه من محيط شاسع لا يسبر غوره ، ونضضناه فجاء عرضاً موجزاً لسير بعض العوائل الإسلامية ، ومعبراً عن شتى اللونيات التاريخية — الحضارية . ولا شك أن بوسعنا تعميم هذه الملاحظات والأقوال فى كثير من نواحيها . ولنأخذ مثالا للتدليل على ذلك ، وليكن عائلة ابن حمويه الجوينى فلقد رأينا أن رسالة تاج الدين فى الخرقة الصوفية قد تدارستها العائلة رجالا ونساء وأولاداً جيلا بعد جيل . وهذا لم يكن استثناء نادراً ، بل كان شائعاً فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى ، وهو يوضح نظرة الناس الفريدة إلى التراث ، وموقفهم من كتبه الدينية ، فى مثالنا هذا ، كما يجلو للناظر أن التحصيل لم يكن وقفاً على طائفة من العلماء ، بل كان يعم طبقات الناس المختلفة ، تبعا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم ولو بالصين »(٢) .

كما يبين للناظر من جانب آخر ، أن هذا التحصيل كان ادخاريا — أو بتعبير آخر — ساكناً محافظا ، وتشتد هذه الملاحظة كلما اقتربنا من العصور الحديثة ، حيث يزداد التخصص ، وتضيق مناهج التعليم . وأبلغ دليل ملحوظ على ذلك هو الإفراط فى تصنيف الشروح وشروح الشروح والحواشى ومع أن هذه المصنفات تتحلى رغم إسهابها بمستوى رفيع فى المناظرات العلمية ، وتنم عن حدة فى النظر ، ودقة فى الكشف عن اللونيات المختلفة فى العلوم الأساسية كالنحو ، والبلاغة مثلا . فإن القارئ يستشف منها ضياع الكلية ، وفقدان طاقة الابتداع والتغيير الحيوية . ولقد أدى ذلك كله إلى سير التحصيل فى جميع المعاهد المنتشرة وفق نظام مدرسى ضيق ، وإلى شيوع الملخصات والمبسطات واحتلالها مكان الصدارة فى برامج التعليم .

---

(١) قارن مثلا سلسلة الوثائق التى تنشرها الجمعية التاريخية التركية فى مجلتها الصادرة فى أنقرة Belgeler, Tiurk Tarih Belgeler Dergisi وأحدثها المجلد ١٠ ، العدد ١٢ / ١٩٨١ وفيه : Halil Inalcik, Osmanli dare, Sosyal ve Ekonomik Tarihiyle Ilgili Belgeler : Buras Kadi Sicillerinden Secmeler ؛ وكذلك مجلد الوثائق الذى نشره حديثاً محمد محمد أمين فى القاهرة ١٩٨١ بعنوان : فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك (٢٣٩ — ٩٢٢ هـ / ٨٥٣ — ١٥١٦ م) مع نشر وتحقيق تسعة نماذج ، (المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة) .

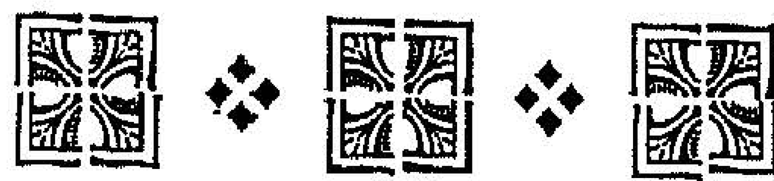
(٢) راجع الحديث فى كتاب الرحلة فى طلب الحديث للخطيب البغدادى ، ص ٧٢ وما يليها ؛ وانظر كتاب Das meer der seele. mensch, welt und gott in den Geschichten des Fariduddin Attar لمصنفه المستشرق الألمانى الكبير Hellmut Ritter صدر فى مدينة ليدن ١٩٧٨ (ط ٢) ، ص ٢٨٤

ولقد ساعدت الدولة العثمانية بشعوبها المتعددة وبإدارتها المهيمنة على تأصيل هذا الوضع ، لأنها كانت تحرص بالدرجة الأولى على سرعة تخرج المتعلمين ، لتوظيفهم فى مرافق الدولة ، ونقلهم من مكان إلى آخر تبعاً للحاجة — ألسنا نعانى من هذه المشاكل فى عهدنا ومجتمعنا الحاضر ؟ وكمثال على هذا التطور يمكننا أن نشير إلى عائلة العلماء أبناء الفنارى ابتداء من القرن التاسع الهجرى — ١٥ م ، فثبت [مؤلفاتهم لا يحتوى إلا على شروح وحواش . لقد كانوا فى عصرهم أساتذة معروفين درّسوا فى شتى المعاهد العلمية فى بروسة والقسطنطينية وغيرهما ، كما شغلوا مناصب عالية ، وتمتعوا بمكانة مرموقة فى البلاط ، ومنهم من كان موظفاً جليلا فى عاصمة الدولة وولاياتها ، وكم أطلقت أسماؤهم على جوامع ومدارس ، وكم حفظتها أوقاف ومقابر إلى يومنا هذا ، أو قبيلته ، وكم وصلت إلينا مخطوطات بخطهم أو من خزائنهم تحمل أسماءهم ... وكلهم شهود على حيوية ذلك الماضى وعظمته . ومع ذلك فهناك من عاش فى ذاك الزمان ، وبث شكواه وألمه منه ، فها هو مثلا الشيخ على منق (ت ٩٩٢ / ١٩٨٢) — أحد مذيلى كتاب الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية لطاشكبرى زاده (ت ٩٦٨ — ١٥٦١) — يقول فى ذيله المعنون بالعقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم ، مشيراً إلى الشيوخ الذين عرفهم فى حياتهم وترجم لهم : « ويا عجباً من هذه البحور كيف وسعها أصداف القبور ... ولعمرى إن ذلك [يعنى تصنيفه واشتغاله بالعلم] يعد عند الأكثرين من تضييع الأوقات لأن المعارف عندهم خرافات ، فأنا قد انتهيت إلى زمان يرون الأدب عيباً ويعدون التضلع من الفنون ذنباً ، وإلى الله الحنان المشتكى من هذا الزمان قد سل سيف بغيه وعدوانه على من تحلى وتقدم على أقرانه ... » ويصل أخيراً إلى قوله ، الذى يُرَدِّدُه معه فى عصرنا هذا لسان حال العلماء والشيوخ : « يا نفس ... أقصرى عن هذه الشكاية ... فإن ذلك دأب الدهر وعادته » ، ثم يتمثل بقول الإمام الشافعى (ت ٢٠٤ — ٨٢٠) :

محن الزمان كثيرة لا تنقضى
وسروره يأتيك كالأعياد
ملك الأكابر فاسترق رقابهم
وتراه رقاً فى يد الأوغاد

رودلف زلهايم

عضو المجمع المراسل من ألمانيا الغربية



في الســـاعة الحادية عشرة من صـباح الأربعـاء ٣ من جمـادى الآخرة ســـنة ١٤٠١ هـ (الموافق ٨ من ابريل سنة ١٩٨١ م) أقام المجمع حفل استقبال لعضوه الجـديد الدكتور توفيق الطويل ، وفيما يلى الكلمات التى ألقيت فى هـذا الحفـل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

سيداتى سادتى :

لقد عرفت الزميل توفيق الطويل منذ أربعين سنة أو يزيد يوم أن لقيته بكلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٧ م .

وأشهدكم أن توفيق الطويل الذى عرفته فى ذلك التاريخ هو نفسه توفيق الطويل الذى نستقبله اليوم : أدب جم ، تواضع تام ، تفكير واضح ، روية وخلق سمح . ألف الصمت لايتكلم إلا بحساب وقدر .

توفيق الطويل الذى لقيته فى ذلك التاريخ حين كنا نعد لبسط الدراسات العقلية فى المدارس الثانوية ، وكان ذلك على أثر تقرير لراحل كريم هو المرحوم نجيب الهلالى وأعتقد أن هذا التقرير يعد من الخطوات الأولى الجادة فى تطوير التعليم العام . والنهوض به . وقد شاء الجامعيون حينذاك أن يعدُّوا العدة لتطبيق هذا التقرير وهذا الإصلاح

وكان توفيق الطويل من الرعيل الأول الذى اضطلع بهذا العبء لكى يقدم الفكر الفلسفى للشباب فى أسلوب مقبول ولغة سهلة . كان يحسن العطاء، وهو صناعته فى مصر وخارجها .

أعطى فى مصر وفى البلاد العربية . درّس وحاضَر ، وكتَب ، وألّف ولم يقف عطاؤه عند الجامعات ، بل كان له عطاء قديم فى مجمعنا هذا . فهو عضو فى لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية . وأنا على يقين من أنه سيتابع العطاء ؛ ولا أدل على ذلك من أنه يوم أن فكرنا فى إخراج جهود لجنة الفلسفة بإصدار معجم فلسفى ، كان توفيق الطويل هو الذى أشرف على هذا الإخراج. اضطلع به مع زميل آخر من أبناء هذا المجمع هو الأستاذ سعيد زايد .

هذا هو توفيق الطويل فى هذه الصورة المختصرة التى حرصت على أن أستقبله بها .

كلمة الأستاذ بدر الدين أبو غازى

فى استقبال الدكتور توفيق الطويل

سيدى الرئيس

السادة الزملاء

سيداتى وسادتى :

من أعز الأيام على مجمعنا ، ومن أرسخها فى تقاليدنا « يوم الاستقبال » ، فهو يوم لقاء المجمعيين بزميل جديد يستبشرون الخير بقدومه ، ويعقدون على انضمامه إليهم الأمل والرجاء .

ولقد أنابنى المجمع فى استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، وهو شرف أعتز به ، ومهمة أرجو أن أوفق فى أدائها .

واستقباله اليوم يذكرنى باستقبال سلفه الصالح ، من أصحاب الفلسفة وروادها فى مصر ، هؤلاء الذين شرف المجمع بوجودهم . وحظى بالمجيد من آثارهم .

استقبل المجمع عند إنشائه الأستاذ الدكتور منصور فهمى أحد أساتذة الزميل الجديد الأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، وظل منصور فهمى عضوا بالمجمع وكاتبا لسره حتى اختاره الله إلى جواره .

ثم استقبل المجمع معلم الجيل ، ورائد التعريف بالفلسفة اليونانية . الأستاذ أحمد لطفى السيد : الذى اختير عضوا بالمجمع سنة أربعين ، وكان رئيسه الثانى منذ العام الخامس والأربعين حتى رحل عن عالمنا .

واستقبل المجمع مع معلم الجيل الشيخ الجليل الأستاذ مصطفى عبد الرازق ، الذى سعد المجمع بعضويته فى السنوات السبع الأخيرة من حياته وهو شيخ زميلنا الجديد قدوته ومثله الأعلى .

وفى سنة ست وأربعين كان رئيس مجمعنا الأستاذ الجليل الدكتور إبراهيم مدكور أحد العشرة الطيبة الذين استقبلهم المجمع ولايزال يعتز برياسته له .

وظل المجمع يترقب استقبال فيلسوف جديد حتى ضم إلى عضويته الأستاذ الدكتور عثمان أمين الذى سعدنا بزمالته حينا .

وإن استقبالنا للأستاذ الدكتور توفيق الطويل ليضفى علينا سعادة خاصة ، إذ نحظى بعضو جديد من رجال الفلاسفة .

ومن حظ هذا المجمع أن يكون أعضاؤه من الفلاسفة أهل لغة ، ورجال أدب ، وأن يكونوا جميعا من الموفقين بين التخصص العلمى وبين المشاركة فى حياة مجتمعهم .

كذلك كان شأنهم ، وكذلك أيضا شأن زميلنا الجديد ، فهو خير خلف لسلف من الأساتذة العظام الذين توالوا على هذا المجمع .

تخرج الدكتور توفيق الطويل فى كلية الآداب سنة أربع وثلاثين من هذا القرن حين كانت الأزمة الاقتصادية آخذة بخناق مصر والأزمة السياسية ضاربة الأطناب ، فدستور الأمة معطل ، ونظام الحكم رجعى ، والاحتلال البريطانى متوغل فى البلاد بقوة .

وكانت مجالات العمل تضيق بخريجى الجامعة ، وأمل المستقبل تكتنفه غيوم .

وإذا كان هذا هو شأن الجامعيين فى تلك الحقبة ، فمابال أصحاب الفلسفة ؟

كان على الصحاب أن يتفرقوا وينتشروا فى الأرض سعيا وراء الرزق فى ظروف شاقة ، ولكنهم يحملون – رغم هذه الظروف – بشارة الأمل ، فهم يكتبون ويخطبون ، ويتخذون من أعلام العصر رواداً من بينهم من اتبع طه حسين ، وفيهم من اتخذ طلعت حرب قدوة ، أما أصحاب الفلسفة فقد جعلوا من شيخهم مصطفى عبد الرازق إماماً يقتفون أثره ويترسمون خطاه ، ومن هؤلاء زميلنا الجديد .

ولقد شارك توفيق الطويل فى الحركة الوطنية فى الثلاثينيات خطيبا وكاتبا ، وحمل مع زملاء له فكرة الدعوة إلى التحرر الاقتصادى من سيطرة رأس المال الأجنبى على مقدرات مصر ، واتخذوا لدعوتهم اسما مبشرا بالأمل والرجاء «عيد الوطن الاقتصادى»

واستطاع توفيق الطويل ، وهو من نعرف وثوقا وتمكنا ، أن يتفوق على الظروف والأوضاع المحيطة به ، وأن يدخل الجامعة من أبوابها متميزا منذ صدر عهده بالتدريس فى جامعة القاهرة ، ثم فى جامعة الإسكندرية ومرة أخرى فى جامعة القاهرة .

ولم يقنع فى تلك المرحلة الباكرة بالجانب العلمى المتخصص ، بل كان الجانب الاجتماعى والثقافى شاغلا له ، فأنشأ جمعية للمحاضرات والمناظرات اشترك فى نشاطها من كبار المفكرين والأدباء الأساتذة : عباس العقاد وأحمد أمين ، وإبراهيم مدكور ، والآنسة مى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وأنطون الجميل ، وإسماعيل مظهر ، وتوفيق دياب ، وإبراهيم سلامة ، وإبراهيم ناجى .

وهكذا أدخل فى محيط الجامعة نشاطا فكريا وثقافيا عاما أسهم فيه كبار المفكرين مع الأساتذة والطلاب .

وظل توفيق الطويل قوّاما على رسالته الجامعية ، وامتد أثره وفضله إلى جامعات عربية أخرى فاختارته الجامعة الليبية أستاذا بها سنة ستين ، ثم استقر به المقام أستاذا بجامعة الكويت لست سنوات بين سنتى ثمان وستين وأربع وسبعين ، ودعته جامعات البصرة ، وبغداد ، وقطر ، أستاذا زائرا تقديرا لمكانته العلمية ، فترك إلى جانب أثره العلمى أثرا عاما بمحاضراته الثقافية .

ولقد ظل الجمع بين الخاص والعام من سمات توفيق الطويل ومن الخصائص التى تميز بها ، فهو نموذج الأستاذ الجامعى الذى

يدرك ما للجامعة من رسالة فى المجتمع إلى جانب رسالتها العلمية الخالصة. وهو يستجمع خبرته وتجاربه ويقدمها خالصة للمؤتمرات والمجامع والمجالس العليا للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ثم للمجلس الأعلى للثقافة مقررا للجنة الفلسفة والاجتماع.

ولقد حرص الأستاذ الدكتور توفيق الطويل على ألا يقصر جهده على التدريس والمحاضرة والمشاركة فى الحياة العامة بل أقبل كذلك على التأليف والترجمة.

ولعل طبيعة توفيق الطويل وخصائص نفسه ومُثُله هى التى حفظته من مرض أصاب الجامعات: فجذب من أساتذتها من جذب إلى بريق المناصب فى مواقع أخرى غير علمية فخسرت الجامعة وخسر البعض أنفسهم.

أما توفيق الطويل، فظل بعيدا عن مواقع السلطان قريبا من العلم فى مظانه، وبهذا أعطانا هذا الصرح الكبير من مؤلفاته.

ويكفى أن نتأمل ثبت إنتاجه العلمى لنتبين فضل هذا العالم الجليل.

صحب هذا الإنتاج حياته الحافلة، فأصدر فى البدء كتاب «الأحلام فى الفكر الإسلامى» بتقديم من أستاذه مصطفى عبدالرازق الذى صوره أصدق تصوير فى عباراته التالية:

«الأستاذ توفيق الطويل باحث مدقق يريد أن يصل بعقله إلى بواطن الأمور وظواهرها وأوائلها وأواخرها، هو يعتمد على «العقل» صرفا. ويريد أن يؤثر فى عقول الناس لا فى قلوبهم، أدركت هذا المعنى حين قرأت مؤلفات الأستاذ الطويل ومنها مؤلفات تتصل بالتصوف والمتصوفة؛ والتصوف علم القلوب، وندرك هذا المعنى حين نقرأ من جديد هذه الرسالة — الأحلام — وقد قرأتها من قبل. وناقشت صاحبها، وسجلت شهادتى له بالنجاح الممتاز فى تأليفها، وفى عرضها على مجلس الامتحان، وما أزداد إلا رضا عن هذه الرسالة وإعجابا بمجهود المؤلف فى إعدادها أولا، ثم فيما أدخل عليها بعد ذلك من تعديل وتكميل، دلالةً على التسامى إلى الكمال؛ والبعد عن الفتنة بعلمه والغرور. وكلما ازداد علم العالم ازداد تواضعه، وكلما ازداد تواضعا ازداد علما».

هذه هى رؤية الشيخ الجليل لتلميذه، وهى رؤية صدق وتقدير ومودة.

ولقد شغل توفيق الطويل بعد التراث الفلسفى العربى فأجال فيه النظر وأصدر كتابه «التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام»، وكتابى «الفكر الدينى الإسلامى فى مائة العام الأخيرة»، و«الشعرانى إمام التصوف فى عصره».

كما ترجم فصل الفلسفة والإلهيات فى كتاب تراث الإسلام، وشارك فى تحقيق كتاب «المغنى» للقاضى عبدالجبار، وأعد بحثا مطولا مسهبا عن فلسفة الأخلاق الصوفية عند ابن عربى.

وللأستاذ الدكتور توفيق الطويل مؤلفات قيمة أخرى منها :

* مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق .
* قصة النزاع بين الدين والفلسفة .
* مسائل فلسفية . . ومشكلات فلسفية .
* قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة .
* التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى .
* الفلسفة فى مسارها التاريخى .
* جون ستوارت مل .
* قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام.

على أن للزميل الجديد اهتماما آخر بتراث العلم عند العرب ، أولاه جانبا ملحوظا من بحوثه ودراساته . كما صدر له فى مجلة « عالم الفكر » الكويتية بحثان كبيران فى حجمهما وقيمتهما :

الأول : عن خصائص التفكير العلمى بين تراث العرب وتراث الغربيين .

والثانى : لقطات علمية فى تاريخ الطب العربى .

على أنى بعد هذا التطواف أتوقف قليلا عند مؤلفيه العظيمين :

— أسس الفلسفة . الذى صدر منه حتى الآن سبع طبعات .

— وفلسفة الأخلاق ، نشأتها وتطورها وقد بلغت طبعاته أربعاً .

وإنى لأعجب كيف استطاع الأستاذ توفيق الطويل أن يوفق هذا التوفيق بين رسالته أستاذا ومدعما لأقسام الفلسفة والدراسات الفلسفية فى الجامعات العربية ، وبين إنتاجه العلمى الغزير الذى يتطلب تفرغا وجهدا وعناء .

أيكون مرجع هذا ، إلى جانب فضائله وصفاته وخلوص نفسه للعلم ، ما أتيح له من خلوة علمية حين هاجر من مصر إلى الجامعات العربية الأخرى؟أم يكون مرجعه ماتوافر له من حياة كريمة كفلت له أسباب الاستقرار ؟ كما تنبئ عبارات إهداء كتابه « أسس الفلسفة »إلى زوجته الفاضلة وماوهبته من جهد ، وقدمته من عون هيأ له أسباب الصفاء العقلى ، وأتاح له التوفر على العلم .

إن مؤلَّفَىّ الأستاذ الدكتور توفيق الطويل عن أسس الفلسفة وفلسفة الأخلاق من شوامخ المؤلفات فى تاريخ الدراسات الفلسفية بمصر ، وهما يدلان على خصائص فكره ونفسه ومنهجه .

ففيهما ما يتميز به ؛ من توفيق بين الماضى والحاضر،من عقلانية فى الحكم على الأشياء ، ومن مثالية أخلاقية رفيعة ، كما أنهما ينبئان عن جهد فى البحث عن حقائق الأشياء وجلائها بعبارات ناصعة ، ورؤية واضحة،ونزاهة فى الحكم،ودقة فى التفكير.

يقف المؤلف موقفا حكما بين دعاة هدم ماضى التفكير الفلسفى ، وأنصار التشبث بالقديم فيقول :

« الأدنى إلى منطق العقل أن نقول مع « ليون روبان » إن إغفال ماضى التفكير ميسور فى العلم نفسه ، وليس هذا هو الحال فى تاريخ الفلسفة فإن تاريخ الفلسفة فلسفة ، وهو يبدو أمام الفيلسوف فى تجدد وتطور متصل ، إلى جانب أنه يسمو على مجرد التوسع فى المعرفة ، والمشكلات التى أثارها القدامى من الفلاسفة لم تزل بعد باقية وستظل باقية دوماً ، لم تتغير موضوعاتها وإن طعمها البحث بعناصر جديدة .

« أما تاريخ العلم فليس جزءاً من العلم نفسه ، إنه ماضى العلم ، هو الجزء الفانى من المحاولات التى قام بها العلماء ابتغاء التوصل إلى الحقيقة ، أو هو الجهد الذى أدركه النسيان بعد أن بلغ أصحابه الغاية المطلوبة منه ، وهذا الماضى يشبع رغبة الطامع فى التوسع فى المعرفة ولا يتجاوز هذا الحد ، أما تاريخ الفلسفة فإنه يكون جزءاً منها ، ويشترك معها فى موضوع واحد ، والجديد فى الفلسفة يقوم عادة على قديم » .

على هذا النحو يوفق توفيق الطويل بين ماضى الفلسفة وحاضرها ، وعلى هذا النهج يمضى فى مؤلفه الكبير باباً إثر باب ، معرّفاً بالفلسفة مجالا ومنهجاً ، وشارحاً للمذاهب والنظريات الفلسفية ، فيعالج مشكلة الوجود ، ويجلو لنا نظرية المعرفة ، ويفرد باباً للقيم العليا ، ثم يلقى ضوءاً على قيم الحق والخير والجمال ؛ ومع اهتمامه بدراسات الفلسفات الغربية فإنه يتحرى كذلك وضع حكمة الشرق القديم وتراث العرب الزاهر فى مكان مرموق من تاريخ الفكر البشرى .

أما كتابه (فلسفة الأخلاق) فيضم أظهر ما عرفته فلسفة الأخلاق ، عبر تاريخها الطويل من قيم إنسانية رفيعة ، وهو يرمى بكتابه إلى هدف أبعد من الدراسة العلمية المجردة إذ يشير فى إهدائه إلى ابنيه « حسام ومنى » ، وأنه قد طاب له أن يهدى الكتاب إليهما عسى أن يجدا فى بطون صفحاته مثلا إنسانياً رفيعاً يشبع العقل ، ويستهوى القلب ، وتكون له الصدارة فى توجيه الحياة ، ذلك لأن توفيق الطويل يستشعر القلق من طغيان الحياة المادية فى عصرنا الحاضر على مدلول المثل العليا ، ومكانها الذى ينبغى أن تحتله من حياة الناس .

وكأنى بالمؤلف يخاطب الجيل كله متخذاً ابنيه عنواناً لهذا الخطاب .

ولقد مضى المؤلف فى عرض فلسفة الأخلاق عند القدماء بدءاً من مؤسس الفلسفة الخلقية فى الغرب سقراط ، حتى فلسفة الأخلاق عند المحدثين ، ويحرص المؤلف أن يفرد باباً لفلسفة الأخلاق فى التفكير العربى فى عصر الإسلام الذهبى . . ثم يختتم كتابه مؤكداً أن الخلاف بين الفلاسفة فى شأن القيم الأخلاقية إنما كان فى تفسيرها وتحليلها ، ومنهج بحثها لدراسة مضمونها ، وبعد هذا الخلاف يلتقى جميع فلاسفة الأخلاق فوق أرض واحدة ، وتحت راية واحدة ، تقديراً للقيم الأخلاقية

واستغراقاً فى إكبارها ، حتى الذين ظن البعض خطأ أنهم يمثلون النزعة اللاأخلاقية فى فلسفة الأخلاق ، كانوا فى الحقيقة يهدمون قيماً بدت لهم هزيلة بالية عسى أن تأخذ مكانها قيم أصلح وأسلم .

ويعود المؤلف فى ختام الخاتمة فيقول :

« ما أصدق أن يقال : إن الإنسان هو الكائن الأخلاقى الوحيد ، لأنه — من بين سائر الكائنات — هو وحده الذى يمكن أن يضيق بواقعه ، ويتطلع جاداً واعياً إلى ما ينبغى أن تكون عليه حياته ، وهو وحده الذى يخطط لمستقبله ، وبذلك كان من الحق أن يقال : إن الإنسان لا يكون إنساناً ، مميزاً من سائر الكائنات بغير مثل أعلى يدين له بالولاء » .

تنبىء مؤلفات الأستاذ توفيق الطويل بأن له إلى جانب غرامه بالفلسفة غراماً آخر فى اللغة تدل عليه عباراته ، وعنايته بأن يضم إلى كتابيه معجماً فى ترجمة المصطلحات والمذاهب والمسائل التى تناولها .

لقد استنزف زميلنا الجديد فى إعداد مؤلفاته جهداً كبيراً ولكن المؤلفين فى مصر يعتصرون فكرهم ويجودون علينا بروائعهم ولا يلقون عن جهدهم إلا الصمت .

لقد قرأت عن مؤلفات الدكتور توفيق الطويل صفحات كاملة من التقييم والتقدير فى جريدة النهار البيروتية ، وغيرها من الجرائد التى تصدر فى البلاد العربية ، ولكننى لم أقع على تعليق واحد عن هذه المؤلفات فى صحفنا بمصر .

رحم الله زماناً كانت الصحيفة المصرية فيه منبر الرأى والفكر ، وملتقى قصائد الشعراء وأدب الكتاب وفكر المفكرين .

لقد طغى الإعلان والخبر على الصحيفة ولم يدع للفكر إلا أعمدة تختنق بين صفحات الإعلان التجارية .

وليت المجلات الثقافية بقيت لنا لتسد هذا الفراغ .

لقد كان لنا منذ سنوات مجلة « المجلة » و « الفكر المعاصر » و « الكتاب العربى » ومجلات كانت تربطنا بتيارات الثقافة ، وبالجديد من عطاء الفكر ، ولكنها احتجبت فجأة ولم نستعض عنها بالبديل .

أيها الزميل العزيز :

وإذ أختتم كلمات الترحيب بك تتدافع إلى الذكريات والخواطر ، وأستحضر زماناً بعيداً كنا نلقاك فيه ونستمع إلى أحاديثك فى مجلس خاص فنعجب بوضاءة فكرك ،

ورجاحة ذهنك ، وهدوء نفسك ، وكم كان لهذه الأحاديث من وقع فى نفوسنا يردها إلى الطمأنينة ، ويسبغ عليها السكينة ، ويفتح لها أبواب الأمل .

واليوم ، إذ أستقبلك ، أراك كما كنت فى هذا الزمن البعيد ، وقور السمت سمح الملامح ، مستضيئاً بالحكمة والمثل . . فيك من شباب الفكر وحيويته ما يلوح وكأنه على مر السنين يزيد .

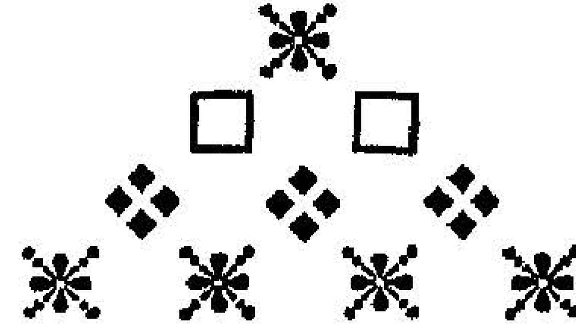
لقد اتخذت لنفسك من عطائك ونضج عقلك وذكاء قلبك مكانة فى حياتنا الفكرية .

وأحسب أن المجمعين ، إذ يستقبلونك اليوم ، يستبشرون الخير بمقدمك إلى مكانك بينهم لتضم جهدك إلى جهدهم وتسعى سعيهم الجاد النبيل .

وأنت أهل لهذا الجهد وذلك السعى .

وفقك الله وأثابك عن عطائك العظيم .

بدر الدين أبو غازى
عضو المجمع



٣ ـ كلمة الدكتور توفيق الطويل

سيادة الرئيس

سيداتي . . سادتي :

كان أملا بعيد المنال أن أنضم إليكم ، وأن أمثُل بين يديكم في مجمع الخالدين ، وكانت مفاجأة سارة أن أعلم بهذا النبأ على غير توقع ، فكان فضلا غامراً من أئمة العربية ، وقادة الفكر والأدب أن يروني خليقاً بثقتهم وحسن تقديرهم ، جزاهم الله خيراً ، ووفقني إلى أن أكون أهلا لثقتكم الغالية . لكن تبعات هذا الاختيار ينوء بحملها الصفوة الممتازة من العلماء ، فكيف لمثلي - مع عجزي وقصوري - أن يقوم بعبء هذه التبعة ؟ ولكني أعاهدكم أن أبذل أقصى الجهد في الإسهام معكم في تحقيق الرسالة الكريمة التي أخذتم أنفسكم بتحقيقها ، عسى أن أكون عضوا جديراً بشرف الانتساب إلى المجمع الموقر ، حالفكم التوفيق لقاء ما تبذلون من جهد في خدمة لغة القرآن الكريم ، ولكم الجزاء الأوفى .

وإني لأتوجه بالشكر في هذه الفرصة الطيبة إلى الأستاذ الدكتور رئيس المجمع ، وإلى السيد الأستاذ بدر الدين أبو غازي للتقدمة الطيبة التي قدماني بها إلى حضراتكم وشاء فضلهما أن يضفيا علي من الثناء المستطاب ما أراني غير أهل له ، وأراهما أجدر به مني جزاهما الله كل خير .

وبعد : فإن لغتنا العربية قديمة ضاربة في القدم ، يحرسها ويمكّن لها القرآن الكريم والمشتغلون بدراساته ، وهي تجمع بين الناطقين بها في شتى بقاع العالم العربي وخارجه ، تذكرنا بتراثنا وقوميتنا ، وتحملنا على أن نولي وجوهنا شطر مستقبل واحد ، إنها تصل بين ماضينا وحاضرنا ، وتهيء لمستقبلنا ، فنغضب لشرفنا ونثأر لعزتنا .

وقد أثبت استقراء تاريخ الفكر منذ نحو ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنها لغة علم وفن وفلسفة وحضارة ، يقول ألدوميلي Oldo mielei أكبر المستشرقين الذين أرّخوا العلم العربي - طبيعياً ورياضياً - يقول :

« إن منتصف القرن الثامن للميلاد كان نقطة تحول فكري بالغ الأهمية في تاريخ العقل البشري » ، ففي ذلك التاريخ نشأ حكم بني العباس في المشرق العربي ، وبدأ حكم الأمويين في المغرب العربي - وأقصد به بلاد الأندلس تحت حكم العرب . ففي المشرق العربي بدأت منذ ذلك التاريخ - منتصف القرن الثامن للميلاد - حركة ترجمة واسعة النطاق نقل فيها العرب إلى العربية تراث اليونان والهنود والفرس وغيرهم من مؤسسي الحضارات القديمة ، وبهذا غذوا تراثنا العربي بتراث الأقدمين من مؤسسي الحضارات ، وسرعان ما تفاعل ذلك التراث الأجنبي الدخيل مع تراثنا العربي الأصيل ،

فكان تجديداً وأصالة وابتكاراً شهد به المستشرقون الذين بهرهم عصر الإسلام الذهبي، فأشادوا به ومجدوا ما وجدوا من كنوزه، واستمرت حركة الترجمة إلى العربية – كحركة أمة أو مدرسة – قرناً ونصف قرن من الزمان، نقل خلالها العرب حضارة الأقدمين ومصطلحاتهم فى الفلسفة والعلوم، وما زال المتخصصون منا فى شتى فروع المعرفة العلمية يستخدمون مصطلحات نقلها العرب فى تلك الفترة، وهذه شهادة قاطعة بأن لغتنا قد اتسعت للإبانة عن حضارات الأقدمين ومصطلحاتهم الفنية، بل قد أصبح من عمل المجمع الموقر إحياء المصطلح العربى القديم ما أمكن.

بذلك أثبت استقراء تاريخ الفكر أن لغتنا لغة علم وفن وفلسفة وحضارة.

هذا فى المشرق العربى، أما فى المغرب العربى – وأقصد به بلاد الأندلس، تحت حكم العرب – فقد ازدهرت الحركة العقلية فى الأندلس منذ القرن الحادى عشر، متأخرة عن نظيرتها فى المشرق العربى، لأسباب لا مجال لذكرها الآن، وشاع النور فى حواضر الإسلام الأندلسية، منذ ذلك التاريخ وكان هذا فى وقت تغط فيه أوربا فى سبات عميق من الجهالة والتخلف، وقد استلفت النور العربى نظرها، فهمت باليقظة فى ضوئه، وتتلمذ علماؤها على يد علماء العرب، وبدأ هذا فى حركتين من حركات الترجمة التى نقلت فيها أوربا تراث العرب من العربية إلى لغتها العلمية وهى اللاتينية فى ذلك الوقت.

أما حركة الترجمة الأولى: فقد بدأت فى صقلية فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر، وكان رائد هذه الحركة هو قسطنطين الإغريقى الذى توفى عام ١٠٨٧

أما الحركة الثانية فكانت فى أسبانيا، وكانت أوسع نطاقاً وأكثر شمولا، ترجمت فيها أوربا التراث العربى العلمى والفلسفى إلى لغتها وهى اللاتينية فى ذلك الوقت، وقد بدأت فى طليطلة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر، وكان رائد هذه الحركة المونسنيير ريموند كبير أساقفة طليطلة، فقدر للتراث العربى الإسلامى أن يُنْتقل إلى أوربا على يد رجل من كبار رجال الكنيسة، فى وقت كانت الكنيسة فيه تشعل نيران الحروب الصليبية لتقضى على الإسلام والمسلمين باسم الدين المسيحى، دين المحبة والسلام والتسامح!

وفى هاتين الحركتين نقلت أوربا التراث العربى الحضارى إلى لغتها العلمية، وكانت العربية هى الوعاء الذى ضم ذلك التراث الحضارى كله، فأثبتت بهذا أنها لغة علم وفلسفة وفن وحضارة.

وإذا كان هناك من المؤرخين الغربيين من يرجع الحضارة الأوربية الحديثة كلها إلى اليونان، ويقول عن تراثهم الفلسفى وماضيهم من مختلف العلوم: إنه المعجزة اليونانية، ويقصدون بها أنها كانت خلقاً عبقرياً أصيلا جاء على غير مثال.

وإذا كان قد أيّد هذا أكثر الباحثين الغربيين من أمثال برتراند رسل، فإن من الباحثين الذين أكبّوا على دراسة التراث العربى منذ مطلع العصور الوسطى من يعارض المعجزة

اليونانية بما أسماه بالمعجزة العربية ، وكان فى مقدمة هؤلاء : جورج سارتون G. Sarton أكبر مؤرخى العلم فى عصرنا الحاضر ، ويفسر جورج سارتون ما يقصده بالمعجزة العربية فى كتاب (الشرق الأدنى . . الثقافة والمجتمع) .

"Near East, Culture and society"

فى بحث ألقاه فى مؤتمر نظمته جامعة برنستون بالولايات المتحدة ، وفيه يقول : إن فى وسعنا أن نتحدث عن معجزة الثقافة العربية كما نتحدث عن معجزة الثقافة اليونانية ، ويكون معنى المعجزة فى الحالين واحدا ، وقد يرى البعض أن فى هذا مبالغة رغلوا ، لكن الذى حدث فى بلاد اليونان ، ثم فى بلاد العرب ، كان من الغرابة بحيث يحمل الإنسان على التطرف فى التعبير .

وكذلك فى كتاب آخر هو :

History of Science and new Humanism

أى تاريخ العلم والنزعة الإنسانية الجديدة ، يفسر ما يقصده بالمعجزة العربية فيقول :

« إن خلق حضارة عالمية جديدة شاملة فى أقل من قرنين من الزمان ، لأمر يمكن وصفه ، ولكن من المستحيل تفسيره وتحليله على نحو مقنع ... إن هذه حركة خلاقة تتميز بالأصالة والابتكار ، بل كانت أعظم حركة علمية تتصف بالأصالة منذ مطالع العصور الوسطى حتى نهاية القرن الثالث عشر . . . ومنذ منتصف القرن الثامن للميلاد حتى نهاية القرن الحادى عشر ، فكانت الشعوب الناطقة بالضاد تتقدم موكب الحضارة فى الدنيا بأسرها ، ويرجع الفضل إلى علمائها العرب فى أن لغة القرآن المقدسة قد أصبحت لغة العلم العالمية ، وأداة التقدم الإنسانى . وإذا كنا — نحن الغربيين — نرى اليوم أن أقصر طريق يسلكه الرجل الشرقى إلى تحصيل المعرفة هو أن يتمكن من معرفة لغة من لغات الغربيين الرئيسية ، فكذلك كانت اللغة العربية بالنسبة للغربيين إبان تلك العصور ، كانت المفتاح ، بل يكاد يكون المفتاح الوحيد الذى يفتح باب الثقافة الواسعة الجديدة . . . إلخ » .

هذا هو رأى مؤرخ العلم الذى اعترف بأنه حين بدأ فى إعداد مادة لمقدمته المعروفة فى تاريخ العلوم أغفل شأن العرب مجاراة لمن يرون أن تراثهم هو تراث اليونان فى ثوب عربى ، فلما أخذ يدرس التراث العربى ويتعمق فهم أسراره ، أدرك خطأه وعدل عن منهجه ، وأولى العرب من التقدير البالغ ما جعله يصف تراثهم بالمعجزة العربية ، ليقابل بينها وبين ما سموه بالمعجزة اليونانية .

وإذا كان سارتون قد أشار فى نصه إلى أن العلم العربى كان مزدهراً من منتصف القرن الثامن للميلاد حتى نهاية القرن الحادى عشر ، فإن غيره من الباحثين الغربيين ، وفى مقدمتهم « ول ديورنت » W. Durant وغيره ، يرون أن عصر الإسلام الذهبى يمتد خمسة قرون من الزمان تبدأ بمنتصف القرن الثامن وتمتد إلى منتصف القرن الثالث عشر ، عند غزوات التتار لبغداد عام ١٢٥٨ م . ونحن نعرف ما فعله التتار حين ألقوا بذخائر

المكتبات فى نهر دجلة ، وكان الناس والخيول تعبر النهر فوق الكتب التى سدت مجرى النهر ، وسودت مياهه بمداد المخطوطات ، ولكن هذا لم يقوض الحضارة الإسلامية ، بل يقول المستشرقون : إن أوربا قد توقفت عن نقل التراث العربى منذ ذلك الغزو الوحشى ، أما الحضارة الإسلامية فقد استمرت بعد ذلك ؛ إذ انتقل القبس إلى دمشق ثم إلى القاهرة ، وظل القبس فى يدها إلى يومنا الحاضر ؛

وبعد : فلا غرابة بعد هذا أن ينشأ فى القاهرة ، إبان القرن العشرين مجمع الخالدين ؛ ليقوم على رعاية العربية بكل مضامينها : لغوياً وعلمياً وفنياً وفلسفياً وحضارياً . ولا سيما وأن الغرب المسيحى الذى يقود اليوم حركة التقدم فى العالم قد بدأ ينصف العرب بعد ظلم وإجحاف .

ويفسر مؤرخو الفكر هذه الظاهرة ، وهى تطور نظرة الغربيين إلى العرب ودورهم فى بناء الحضارة الإنسانية ، فيقولون : كان المستشرقون فى القرن التاسع عشر يستبد بهم التعصب الدينى والتحزب الجنسى ، ومن هنا استخفوا بدور العرب فى بناء الحضارة الإنسانية ، فزعموا أنها لا تدين بالفضل لغير أجدادهم من اليونان ، وأكدوا تفوق الجنس الآرى الأبيض على غيره من الأجناس ، وسبق أوربا فى الخلق الحضارى على غيرها من القارات . . . وقالوا : إن العرب وقد انحدروا عن الجنس السامى لم يخلقوا بطبيعتهم للتفكير الأصيل المبتكر ، وأن ما ضمه تراثهم من عناصر الفكر الأصيل دخيل عليهم غريب عنهم ، بل إنهم لم يحسنوا فهم ما نقلوا من التراث القديم ولم يستوعبوا كنوزه ، فشوهوه بشروحهم ، وأتلفوا حقائقه بتعليقاتهم ... إلى آخر مزاعمهم ، لكن هؤلاء الغربيين قد أخذوا منذ أواخر القرن التاسع عشر وإبان القرن العشرين يكبون على البحث فى تاريخ العلوم عند العرب ، فأدركوا مكان العلم العربى على خريطة العلم العالمى ، وكان فى مقدمة هؤلاء : جورج سارتون الأمريكى ، والإيطاليان ألدومِيلى (مؤرخ العلم العربى) ، وكارلو ألفونسو نللينو (مؤرخ علم الفلك عند العرب) ، وجوليان ريبرا الأسبانى ، مؤسس ورئيس مدرسة أيبريا الحديثة للعلوم العربية ، وماكس مايرهوف المتجنس بالجنسية المصرية . . . وغيرهم من أعضاء المجمع العالمى لتاريخ العلوم ، وقد انتشر الكثير من معاهد العربية وعلومها فى أوربا وأمريكا لدراسة ذلك التراث العربى ، ودور العرب فى تأسيس الحضارة الإنسانية ؛ ومن هنا عرف الغربيون مكان العلم العربى على خريطة العلم العالمى ، وكشف الباحثون من الغربيين فى بحوثهم العلمية ، وندواتهم الدولية ومؤتمراتهم العالمية — كشفوا عن وثائق ونصوص رفعت الحواجز بين الأجناس ، وأثبتت أن الحضارات الكبرى على اتصال وتفاعل بعضها مع بعض ، وأيدت الدعوة الجديدة هيئة اليونسكو (وهى منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة)

بجهودها ومؤتمراتها ، حتى أن رئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها بجامعة برنستون ، وهو كولر يونج Culer Young ألقى بحثاً عن ديْن الغرب المسيحي للثقافة الإسلامية ، فاختتمه « بتذكير مسيحيي أوربا المعاصرة بالدين الثقافى العظيم الذى يدينون به للإسلام منذ أن كان أجدادهم يسافرون إلى حواضر الإسلام، خاصة فى أسبانيا (بلاد الأندلس) ليتلقوا على أيدى معلميهم من المسلمين الفنون والعلوم وفلسفة الحياة ، وفى جملة ما يتلقونه ، التراث الكلاسيكى القديم الذى أحسن الإسلام رعايته ، وصانه من الضياع حتى استطاعت أوربا أن تسترده وترعاه ... » لقد قيل هذا البحث فى ندوة عالمية عن الثقافة الإسلامية عقدت فى برنستون وواشنطون عام ١٩٥٣ م .

وبعد أقل من عامين (١٩٥٥) ظهرت ترجمة بحوث الندوة فى كتاب بالعربية تحت عنوان: « الثقافة الإسلامية المعاصرة، بحوث ودراسات إسلامية » . وكان مترجمها هو العالم الذى يلاحق المستشرقين فى أقصى الأرض ويتتبع بحوثهم ودراساتهم وينقل منها لقراء العربية ما يراه صالحاً ومفيداً لهم ، ذلك هو عالمنا المجمعى الأستاذ الجليل «محمد خلف الله أحمد » . دعواتنا إلى الله تعالى أن يهبه الصحة والعافية ، وأن يحفظه من كل سوء ، لكى يواصل عطاءه للعلم وطلابه .

وسار فى هذه الدعوة الجديدة المستشرقون الذين شاركوا فى سلسلة التراث القديم والوسيط منذ أن صدرت أولى حلقاته عن تراث اليونان عام ١٩٢١ م وتلته بقية حلقات هذه السلسلة ، فأفردوا كتاباً منها لتراث الإسلام : شارك فى كتابة فصوله الكثيرون من المستشرقين ، وقد ترجم جزءاً منه بالقاهرة لجنة الجامعيين لنشر العلم عام ١٩٣٦م، وشرفت بأنى كنت مقرر هذه اللجنة ، وترجم بعض زملائنا فى جامعة الكويت جزءاً آخر ، وكان فى مقدمتهم زميلنا الدكتور حسين مؤنس أحد أعضاء لجنة الجامعيين السالفة الذكر .

ومن عجب أن يكون هذا هو فضل المستشرقين على لغتنا العربية وتراثها ، ومع ذلك يحلو للبعض منا أن يعتبروا أن بعض هؤلاء المستشرقين قد انحرفوا أو ضلوا ثم ينهالون على جميع المستشرقين طعناً وتجريحاً ، مع أن المستشرقين عامة هم الذين وضعوا أقدامنا على بداية الطريق الصحيح ، وأضاءوا لنا الطريق للكشف عن أسرار لغتنا وكنوز تراثنا .

وهكذا أصبح من المعترف به عالمياً أن لغتنا العربية لغة علم وفن وفلسفة وحضارة ، ومن أجل هذا كانت الاستهانة بها أو عدم الالتزام بقواعدها أو عدم الحرص على إحيائها فى صفائها جريمة ، فى حق الوطن العربى كله .

ومن أسف أن الفصحى قد أصابها خلال القرون السبعة الأخيرة من الضعف والهزال ما أصاب شتى القطاعات فى مجتمعنا العربى ،

فقل العلم باللغة وقواعدها حتى بين أكثر المشتغلين بها ، والذين يكسبون قوت يومهم من تعليمها ، فإذا تعذر لسان الجهال منهم فى ضبط كلمة أو إقامة جملة ، دعوا إلى اصطناع العامية أو إهمال الإعراب ، أو إحلال الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية أو غير ذلك مما ينم عن جهل أو ينكشف عن سوء نية ، يشهد بذلك استخفافهم بلغة القرآن الكريم ، بل إن لغتنا قد تعرضت للجمود بسبب تزمت بعض علمائنا السالفين الذين جمدوا بحسن نية ، وقد صدق المرحوم « الأستاذ عباس حسن » حين قال فى مقدمة كتابه « اللغة والنحو - بين القديم والحديث » : « إن أدراناً وشوائب خالطت آراء الصفوة الممتازة من علمائنا السالفين » ، منهم « طائفة أحبت لغتها وأسرفت فى الإخلاص لها ، وقصرت جهدها على اتخاذ الوسائل لصيانتها ، وهى لهذا جد مشكورة لكنها أخطأت الطريق القويم لذلك ، فزعمته التمسك بالقديم فى غير تسمح ، والجمود عليه فى غير ملاينة ، والوقوف عنده فى غير تصرف واجتهاد ، فسنت فى اللغويات ما سنته بغير حجة ساطعة أشباه لها فى الشرعيات ، من إغلاق باب الاجتهاد وسد المنافذ أمام العقل ، وقصره على ظواهر النصوص والألفاظ . . . إلخ » .

ولا سبيل إلى تدارك هذه الحال إلا بالإخلاص فى تعليم الفصحى وقواعدها ؛ والتوعية بخطر اللغة فى حياتنا الاجتماعية والعلمية بوجه خاص ، وتقريب العامية من الفصحى ، وإحياء الصحيح من كلماتها فى العربية ، وبذلك يسهل استخدامها حتى على أنصاف الأميين ، وهم الكثرة الغالبة من بنى العرب .

وبعد : فإنى أعود فأقول : إن اختيارى عضواً بمجمع الخالدين قد هز كيانى واستبد بمشاعرى ، ولم يضعف فىّ هذا الشعور أن المجمع كان قد شرفنى باختيارى خبيراً بلجنة الفلسفة عند إصدار المعجم الفلسفى ، وقد شرفت بالاشتراك فى تنقيحه وإخراجه ، وقد أريد به كما جاء فى مقدمته : « أن يكون معجم مصطلحات فحسب . . . وأنه قام أساساً على الفلسفة الإسلامية والفلسفات الغربية فى كل عصورها ، وحرص على إحياء المصطلح العربى القديم ما أمكن ، وتضمن ألفاً ومائتى مصطلح مع مشتقات موادها ... » . هذا ويسرنى أن أقول : إن لجنة الفلسفة ، والاجتماع بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية قد اضطلعت بوضع الجزء الأول من معجم أعلام الفلسفة والاجتماع ، وهو الآن فى المطبعة ، وهذه اللجنة فى وضعها الجديد فى المجلس الأعلى للثقافة تقوم الآن بإعداد الجزء الثانى من هذا المعجم ، وإن كنا نعانى الأمرين ؛ لقلة المتخصصين فى الفلسفة وهجرة الكثيرين منهم إلى جامعات العالم العربى ، ومع ذلك فإنى أقترح على مجمعنا الموقر أن نواصل المسيرة فنعمل على إعداد معاجم أخرى فى شتى فروع الفلسفة ، ونبدأ بإصدار معجم فى مصطلحات المنطق : الصورى

منه والرمزى ، مع مناهج البحث العلمى وفلسفة العلوم . ثم نضع معجماً فى فلسفة الأخلاق وفلسفة الجمال ، وهكذا نستوفى الإبانة عن مصطلحات الفلسفة فى شتى فروعها :

أما بعـد ... فقد أخذت فى مجمعنا مكان عالم نحوى ضليع هو المغفور له الأستاذ عباس حسن. ومن أسف أنى لم أحظ بشرف معرفته فأتحدث إليه وآنس بعلمه ، ولكن شهرته مع آثاره العلمية قد تكفلت بإذاعة اسمه بين قراء العربية ، فقد أيده الله بفيض من التوفيق فى دراساته ، فأرسى قدميه فى فروع من المعرفة يتتهيبها جمهرة الدارسين العازفين عن دراسة النحو لصعوبتها ، أما فقيدنا فقد كان ولوعاً بالنحو متعمقاً فى دراساته ، نافراً من كل من ينحرف عن قواعده مع قدرة على الإقناع والإبانة فى غير تكلف ولا التواء ، ولم تتهيأ له مكانته فى النحو والأدب عفواً ، وإنما سعت إليه بعد جهود مضنية ، تشهد بها آثاره العلمية وبحوثه الشيقة ، وقد أفاد منها الباحثون ونهل من معينها طلابه أجيالا طوالا ، وكثيرون منهم يشغلون اليوم مناصب علمية رفيعة ، وحسبه فى هذا كتابه « النحو الوافى » – مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة » بأجزائه الأربعة ، ثم نقده للشعر فى كتابه الذى وازن فيه بين المتنبى وشوقى فى إمارة الشعر ، وهو فى هذين الكتابين قد زاد العربية فى نحوها وآدابها خصوبة وثراء . ويقول رحمه الله فى مقدمة كتابه « اللغة والنحو بين القديم والحديث » :

« ... وصلت الأيام بينى وبين اللغة العربية بأوثق الصلات ، وجرى القدر أن أكون من العاكفين عليها تعلماً وتعليماً ، وأن أقضى السنين الطوال فى دراسة علومها ، وقراءة ما جادت به قرائح الأفذاذ من أبنائها والأعلام المشتغلين بها ، فوجدتنى أمام مورد لا ينضب ، بل بحر فسيح الجنبات بعيد الأعماق » .

كان رحمه الله غزيراً فى علمه ، مخلصاً فى تأدية واجبه ، بشهادة العالميّن المجمعيين الجليلين : الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور ، والسيد الأستاذ على النجدى ناصف . يقول الدكتور مدكور فى رثاء الفقيد : « حرمنا من صوت جهير ، قلّ أن تمر جلسة دون أن نسمعه ، ولقد كان رحمه الله وفياً كل الوفاء لمجمعه ، لم يتخلف عن جلسة من جلساته ، ولا عن لجنة هو عضو فيها ، إلا لضرورة قاهرة ... يحقق موضوعات أثيرت ، ويمحص أفكاراً عرضت ، ولا يتردد فى أن يستأنف الحديث فيما أثير من قبل ، ولا أن يطلب إعادة النظر فيما سبق أن بتّ فيه . . . يُعنَى بالمبدأ والقاعدة ، ولا يبيح الخروج عليهما ، ولا غرابة ، فقد كان نحوياً ، ونحوياً إماماً مستظهراً للقواعد النحوية استظهاراً تاماً ، وربما طغى نحوه على ثقافته كلها . . . » .

ويقول الأستاذ على النجدى : « ... ما من مصطلح يعرض فى المجلس إلا تلقاه بالنقد والتمحيص ، لفظاً وأسلوباً ، فإن كان صالحاً

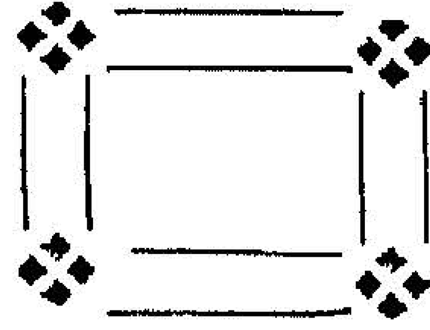
سكت عنه ولم يعترض سبيله ، وإن بدا له فيه مأخذ أمسك به وجهر برأيه فيه ، فإما موافقة عليه وإقرار له كما يراه ، وإما حوار ومحاجة تطول أو تقصر حتى ينجلى الرأى لا حجاب دونه ولا خلاف عليه ولا وجه لتمادى الحوار فيه .. وما أعرف من السادة المجمعيين الذين شرفت بزمالتهم من كان أكثر منه حديثاً فى المجلس ، ولا أكثر منه ذكراً فى محاضر جلساته » .

إننا جميعاً نقدر مدى الخسارة الفادحة التى لحقت بنا بفقدان هذا العالم الجليل ، والذين يعرفون له فضله وعلمه ، يتوجهون بالدعوة إلى الله أن يعوضنا عن فقده خيراً . رحمه الله رحمة واسعة وجعل الجنة مثواه لقاء ما قدم لتلاميذه وقرائه من علم نافع . .

أما بعد : فإنى أعود فأكرر لكم جميعاً شكرى على الثقة الغالية التى تفضلتم فحبوتمونى بها ، وعلى فضل الاستماع إلىّ ، وشرف الانتساب إلى مجمعنا الموقر ، جزاكم الله خيراً ، ووفقنى إلى الإسهام معكم فى تحقيق رسالتكم النبيلة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

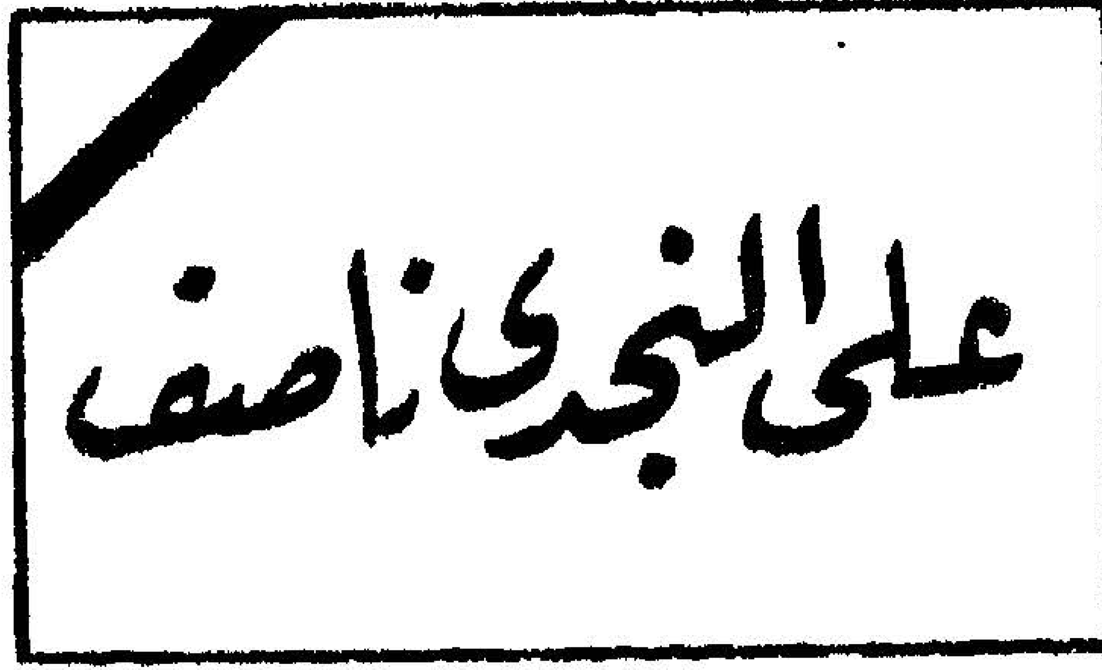
محمد توفيق الطويل
عضو المجمع



في الســـاعة الحادية عشرة من صـــباح الأربعاء ٢٠ من جمادى الآخرة ســـنة ١٤٠٢ هـ (الموافـــق ١٤ من ابريل سنة ١٩٨٢ م) أقام المجمع حفل تأبين فقيده المرحوم الأستاذ على النجدى ناصف ، وفيما يلى الكلمات التى القيت فى هـــذا الحفـــل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

في تأبين المرحوم الأستاذ



بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة :

رحم الله الأستاذ زكى المهندس ، فهو أول من وجه نظرنا نحو عالم جليل وأستاذ كبير هو فقيد اليوم المرحوم الأستاذ على النجدى ناصف ، وجه نظرنا إليه منذ خمس عشرة سنة أو يزيد ، ولم يكن حظنا سعيداً لننعم بصحبته وزمالته منذ اللحظة الأولى التى ذكر اسمه فيها بيننا ، ولكننا نعمنا به منذ ديسمبر عام ١٩٧٣ ، تسع سنوات أو تزيد قليلا قضاها معنا المرحوم على النجدى ، قضاها فى عطاء مستمر ، عطاء فى اللجان المختلفة ، عطاء فى مجلسنا ، عطاء فى مؤتمرنا ، عطاء كله ذهن صاف ، وأسلوب رقيق ، لا يتكلم لمجرد الكلام ولكنه صامت إلا إن وجد ما يقوله من كلام ، ولن أستطيع فى فتح هذا الحديث وبدايته أن أوفى الأستاذ على النجدى حقه ، وكل ما أرجو أن يجزيه الله عنا وعن أمته خير الجزاء .

وزميلنا الأستاذ الدكتور شوقى ضيف سيقول كلمة المجمع عن الفقيد ، ثم بعد ذلك كلمة الأسرة ، ويلقيها الدكتور جلال النجدى نجل الفقيد .

كلمة المجمع للدكتور شوقى ضيف

السيد الرئيس ، الزملاء الأجلاء ، السيدات والسادة :

مهما أملنا أن يمتد العمر بمن نحبهم ونودهم ونقدرهم ونعرف فضلهم فإننا نفتقدهم واحداً بعد واحد ، إذ لكل عمر مقدور وميقات معلوم وأجل محتوم : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، ولسنا نملك إزاءهم إلا التسليم لقضاء الله الذى لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

ولقد خلف اختيار الموت للأستاذ على النجدى ناصف من بيننا فى نفوس زملائه غير قليل من الأسى واللوعة ، وضاعفهما أنه حين نزل به القضاء وعلم الزملاء بالنبأ الحزن أسرعوا يحاولون تشييع جثمانه إلى مقره الأخير ، غير أنه لم يكتب لأحد منا أن يكون بين مشيعيه ، حتى ينظر كيف يوارى التراب هذا الجسد الطاهر ، بل هذا العلم الشامخ من أعلام العربية ، وكأنما شاء قاصداً أن يرحل فى هدوء دون أن يتكلف أحد من زملائه أى مشقة يوم وداعه وأفول نجمه .

وأقولها محزونا : لقد أخلى الأستاذ على النجدى ناصف فى المجمع مكاناً لا يسد أبداً ، لخلقه الرفيع النبيل وعلمه اللغوى الغزير وأى زميل له منا لا يخالجه الحزن العميق حين يذكر ما فقدناه فيه من طمأنينة النفس وصفاء الروح وطلاقة الوجه وعفة اللسان ؟ وبالمثل مافقدناه فيه من قهر المشاكل اللغوية العويصة وما كان يقدم لها من حلول سديدة فى صوت هادئ متزن لين خفيض ، وكأنما يتكلم همساً ، وهو همس كان يحمل دائماً التصويبات اللغوية الصائبة فى غير جلبة ولا ضوضاء شأن العلماء الوقورين الأجلاء . وفى اللجان ، وخاصة لجنة الألفاظ والأساليب ، كان ما ينى يضئ جوانب المبهمات العسرة ، وما ينى يصحح ويصوب ويصلح الخلل ويداوى السقم ، وما ينى يسوغ - ببراهين لغوية لا تدحض - ما يظن بعض الألفاظ ، والعبارات المتداولة من الانحراف عن الصراط اللغوى السوى .

ومنذ دخل الأستاذ على النجدى ناصف المجمع عضوا عاملا فيه كان يقدم فى كل مؤتمر من مؤتمراته طرفة بارعة من طرف بحوثه الرائعة ولم يكن يروع زملاءه فى بحوثه بتحقيقاته وما يثير فيها من أدق الدقائق اللغوية فحسب ، بل كان يروعهم أيضا بأسلوب ناصع مصفى ، وكأنما نثرت ألفاظ اللغة تحت بصره ليختار لنفسه ولبحوثه منها أسلوبا متسقا غاية الاتساق ، لا نبوُّ فى لفظة من ألفاظه ولا التواء ، بل دائما جمال فى الجرس والأداء ، فكل لفظة قد انتخبها بدقة ليحسن وقعها فى السمع مع شقيقاتها فى العبارة ، وبالمثل كل عبارة انتخبها بميزان

لتلتئم أدق التئام مع جاراتها فى نسق صوتى بديع ، والموضوع دائما النحو واللغة الشائكان ، وكان يعرف كيف يُخلى بحوثه فيهما من كل شوك ، حتى يسيغها المستمع والقارئ فى يسر . ولعلى لا أغلو إذا قلت إنه كان يحيل بحوثه فيهما إلى ما يشبه سلسالا عذبا ورياضا نضرة .

وإنها لفجيعة كبرى للمجمع إذ فجع فى الأستاذ على النجدى ناصف أديبا لايجارى وعالما لغويا لايبارى فى تعمقه للغة والنحو وسبره لأغوارهما فقها وتحليلا . وإنه لمما يعزّى المجمع عن خسارته الكبيرة له أنه أدى للعربية خدمات جُلّى تجعله ينتقل من دارنا الفانية إلى الدار الباقية راضيا مرضيا وإن سيرته العلمية وما بذل فيها من جهد شاق متصل لخليقة أن تُرْفَع نبراسا مضيئا نصب أعين شبابنا من العلماء كى نحفزهم إلى المزيد من العمل العلمى الجاد الخصب المثمر .

وقد ولد الفقيد بأخرة من القرن الماضى فى قرية الصنافين القبلية بمركز منيا القمح فى محافظة الشرقية ، لأب كان شيخا مزارعا ، ألحق ابنه بالكتاب كعادة أبناء الريف ، فحفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة ، ورأى الأب فى ابنه مخايل نجابة ، فأرسل به إلى الأزهر الشريف ليتم تعليمه ، وانتظم بين طلابه ، وأخذ ينهل من منابع العرفان فيه وينتقل متفوقا من سنة إلى أخرى ، وبدا له أن يدخل مدرسة دار العلوم ليتزود فيها زادا وافرا من اللغة والنحو والأدب ودخلها ، وأمضى سنواتها عاكفا على هذا الزاد حتى استوعبه وتمثله ، وتخرج فيها لسنة ١٩٢١ واشتغل بالتدريس فى المدارس الحكومية ومدارس المعلمين الأولية التى كانت تخرّج المعلمين للأجيال الناشئة فى القطر ، وكان القائمون على هذا التعليم يختارون له الصفوة من مدرسى العربية وتصادف أن عُيّن فى مدرسة دسوق للمعلمين ، وكان المرحوم الأستاذ الجليل عبد الحميد حسن أمين المجمع السابق مفتشا بوزارة المعارف حينئذ وزار المدرسة واستمع إليه فى بعض دروسه وحظى بإعجابه . وذكر ذلك فى استقباله عضوا عاملا بالمجمع ، إذ يقول : « فى مدرسة دسوق للمعلمين حظيت بزيارة الأستاذ على النجدى ، وكان يلقى درسا يعد من أدق الدروس وأدلها على مقدرة المعلم ومهارته فى مادته وطريقته وهو درس التعبير أو الإنشاء الشفهى ، وكان موضوع الدرس من مشاهدات البيئة المحلية وهو « دسوق فى يوم السوق » وكان فى أدائه وإلقائه وحواره نموذجا للمعلم القدير والمربى الماهر الذى يتخذ من درسه وما يعالج من حقائق وسيلة لبناء العقول وإنشاء الأنفس وكان بذلك محققا لقول شاعرنا شوقى :

أرأيت أعظم أو أجلّ من الذى
يبنى وينشىء أنفساً وعقولا

رأيت كل هذا من الزميل الكريم ، فامتلأ قلبى وسمعى وبصرى إجلالاً له وتقديراً » .

وانتقل الأستاذ على النجدى ناصف بعد ذلك إلى التفتيش ، وظل فى أثناء عمله به يتابع نشر البحوث اللغوية والأدبية فى صحيفة دار العلوم منذ ظهرت فى الثلاثينيات من القرن الحاضر إلى أن توقفت عن الصدور فى أخريات الحرب العالمية الثانية . ولفتت هذه البحوث الأساتذة بدار العلوم ، فانتخبه مجلسها مدرسا بها سنة ١٩٤٣ وتألق نجمه فيها بين زملائه ، وتدرج فى وظائف الدار العلمية حتى أصبح أستاذا ، وأحيل إلى التقاعد فتحول بها أستاذا غير متفرغ حتى لبّى نداء به ، وبذلك ظل بالدار نحو أربعين عاما يعلم ويحاضر ويربى الآلاف ويشرف على كثير من رسائل الماجستير والدكتوراه . وفى أثناء ذلك اختير عضوا فى لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وحظى المجمع بانتخابه عضوا عاملا فيه سنة ١٩٧٣ ، فنهض بمهمته على خير وجه مشاركا بالبحث اللغوى القويم والرأى الصائب السليم والألمعية النادرة وكان غزير التأليف ، كما كان غزير التحقيق لكنوز التراث ، غير ما نشره من المقالات والبحوث فى المجلات الأدبية والعلمية وفيما يلى بيان مجمل عن مؤلفاته .

وأولها كتاب سيبويه إمام النحاة افتتحه بمقدمة عرض فيها للنحو فى مؤلفاته المعاصرة ودعا تأليف لجنة تعيد النظر فيه وتخلصه من شوائبه ، وترجم لسيبويه موضحا ما يتميز به من خصائص شخصية ونفسية وعقلية ودرس بعد ذلك الكتاب دراسة تحليلية دقيقة، بيّن منهجه ولغته وما أودع فيه من أصول النحو وشواهده ، وتحدث عن قيمته ومدى تأثيره فى النحو والنحاة من بعده . وألحق الدراسة بفهارس مفصلة لشواهد الكتاب من القرآن الكريم والحديث النبوى ومن الشعر والرجز .

وثانى المؤلفات « الدين والأخلاق فى شعر شوقى » والكتاب مقــدمة ودراسة ، والمقدمة تصور سلطان النزعة المادية وانحرافها بالقيم الفاضلة عن أغراضها النبيلة مع بيان إخفاق الحضارة المادية فى إسعاد البشرية ومع الدعوة إلى حضارة روحية تستلهم الدين وتعاليمه ، ومع بيان التأثر العميق القوى بالدين . وتعنى الدراسة بعد ذلك بالموازنة بين بردة البوصيرى ونهج البردة لشوقى ، وأيضا بالموازنة بين همزية البوصيرى وهمزية شوقى فى المديح النبوى . وتحلل الدراسة بقية شعر شوقى فى الدين والأخلاق تحليلا دقيقا مع الإنصاف والعرض الطريف .

وثالث المؤلفات « دراسة فى حماسة أبى تمام » وقد استهلت الدراسة بمقدمة أرّخت لفن الاختيار فى الشعر ، وتوسعت فى الحديث عن حماسة أبى تمام وآثارها فى الدراسات اللغوية . وأخذ الأستاذ النجدى يعرض بعد ذلك منتخبات متنوعة لشعر حماسة أبى تمام دارسا ناقدا محللا ، مع الوصل بين كثير من معانى الشعراء وخوالجهم وبين واقع الحياة .

ورابع المؤلفات « القصة فى الشعر العربى إلى أوائل القرن الثانى الهجرى » وقد بدأه الأستاذ النجدى بمقدمة عن نشأة القصة وتطورها ومكانتها من فنون القول مع نقد القصة المعاصرة فى لغتها وموضوعاتها وبيان أنها فى جملتها لا تصور الشخصية العربية ولا القيم الخلقية الرفيعة . وعرض بعد ذلك أنواعا تسعة للقصة حتى أوائل القرن الثانى الهجرى وفى كل نوع قدم نماذج قصصية شعرية درسها دراسة تحليلية مفصلة

وخامس المؤلفات « من قضايا اللغة والنحو » وهو عرض لقضايا طالما أثيرت فى اللغة والنحو ، كقضية الفصحى والعامية ، وقضية الشعر الحر المعاصر ومكانه من الشعر العربى ، وقضية التأويل والتقدير فى النحو ، وقضية الإعراب والمعنى .

وسادس المؤلفات « أبو الأسود الدؤلى » وقد درس فيه الأستاذ النجدى عصر أبى الأسود وحياته ، وتحدث عن ضبطه لآى القرآن الكريم وما قيل عن وضعه للنحو قديما وحديثا ، وانتهى إلى أن النحو عربى عروبة خالصة فى نشأته لم يؤخذ عن السريانية ولا غيرها من اللغات . وختم الكتاب بفصل عن شعر أبى الأسود وخصائصه . والمؤلف السابع « ابن قيس الرقيات شاعر السياسة والغزل » وهو دراسة نقدية تحليلية لحياة ابن قيس وشعره وآرائه وخاصة ما اتصل منها بالسياسة .

والمؤلَّف الثامن « تاريخ النحو » وهو كتيب فى سلسلة كتابك التى تصدرها دار المعارف ، وهو إلمام سريع بالنحو فى نشأته وتطوره وحياته فى الأقطار العربية ، مع تراجم موجزة لأشهر النحاه .

وبجانب هذا النشاط الجم فى التأليف كان للأستاذ النجدى نشاط خصب فى تحقيق طائفة من نفائس التراث الدينى والأدبى ، منها ما انفرد بتحقيقه ، ومنها ما شارك فيه ، أمّا ما انفرد فيه فتحقيق الجزء المتمم للعشرين من كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى بتكليف من هيئة الكتاب وكان قد سبق نشره ، فأتاح له نشرة علمية محققة أدق ما يكون التحقيق .

وحقق أيضا منفردا مجلدين من كتاب الاستذكار فى فقه السنة المقارن للحافظ ابن عبد البر القرطبى الأندلسى بتكليف من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وهو كتاب ضخم متعدد الأجزاء ، عماده كتاب الموطأ لمالك وما فيه من الأحاديث النبوية والآثار . وابن عبد البر يدير مباحثه فى الكتاب على تلك الآثار والأحاديث عارضا مختلف المذاهب الفقهية ومقارنا بينها مقارنات وافية . وقد نهض الأستاذ النجدى بإحياء المجلدين اللغويين اللذين حققهما من الكتاب على خير وجه وهما يصوران جهدا علميا شاقا جديرا بكل تقدير .

واشترك الأستاذ النجدى فى تحقيق كنزين رائعين نفيسين من كنوز القراءات

للذكر الحكيم هما : كتاب المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جنى ، وكان قد بناه على كتاب شواذ القراءات لابن مجاهد أكبر شيوخ القراء فى زمنه . والكتاب الثانى الذى شارك فيه الأستاذ النجدى كتاب الحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الفارسى وكان قد بناه بدوره على كتاب القراءات السبع لابن مجاهد الذى كان لى شرف تحقيقه ونشره ، وقد نُشِر من كتاب الحجة مجلد واحد ، وكنا نأمل أن يتمهل القضاء بالأستاذ النجدى حتى يتم نشره .

وللأستاذ النجدى وراء تحقيقاته ومؤلفاته العلمية بحوث كثيرة فى الأدب واللغة والنقد كان ينشرها فى صحيفة دار العلوم والمجلات الأدبية كما أسلفنا وكذلك فى مجلة المجمع وأذكر من مقالاته فى المجلة الأخيرة مقالة ، كتبها فى عدد نوفمبر سنة ١٩٦٩ عن كتابى « المدارس النحوية » ولم تكن قد انعقدت بيننا صحبة حتى هذا التاريخ . وفيها أسبغ علىّ ثناء هو نفسه أهله ومستحقه الجدير به .

ولم أتحدث حتى الآن عن عمله العلمى بالمجمع وما أفاده من مذخور علمه وفكره ، وعملُه به صفحة ناصعة تضاف إلى صفحات عمره العلمية المجيدة ، وله فيه جهود خصبة بلجان المعجم الكبير والمعجم الوجيز والأدب والتاريخ وإحياء التراث والألفاظ والأساليب . وكان فى كل مؤتمر سنوى للمجمع منذ انتخابه عضوا عاملا فيه يقدم فى مؤتمراته بحثا نحويا أو لغوياطريفا ، وأكثر بحوثه كانت تتصل بالقرآن الكريم وآخرها بحثه الذى تلى فى المؤتمر الأخير بعنوان « بين القرآن والنحو »وقد ناقش فيه دعوة قيلت تعليقا على محاضرتى العامة بمؤتمر المجمع فى العام الماضى عن تيسير النحو مؤداها أن يُعْتَمدَ فى التيسير المنشود على نحو يستمد من القرآن الكريم ، ومعروف أن أى دعوة إلى عمل يقوم على أساس من الذكر الحكيم تقابل بالترحيب تيمنا بالقرآن وارتفاعا إلى أفقه الأعلى .

وظل الأستاذ الجليل يدير هذه الدعوة فى نفسه حتى كتب بحثه الذى استمعتم إليه فى المؤتمر ، ملاحظا أن ضروبا من أساليب العربية لا يوجد لها نظائر فى القرآن ، والنحو إنما وضع لجميع أساليب العربيـــة ، ويضيف أن لكتاب الله قراءات كثيرة يتنوع الخلاف بينها فى حركات الإعراب وفى بنية الكلمة ، بل إن قراءة واحدة من القراءات سبعية وغير سبعية قد يخالف صاحبها فيها نفسه ، فيقرأ الحركة الإعرابية للكلمة فى موضع أو مواضع بقراءة ، ثم يغير حركتها فى موضع أو مواضع أخرى ، ويضرب لذلك مثلا الآية الكريمة :(كن فيكون) فقد تكررت تلك الآية فى القرآن إحدى عشرة مرة ، وقرأها ابن عامر أحد القراء السبعة (فيكونَ)

بالنصب ست مرات ، وقرأها (فيكونُ) بالرفع خمس مرات ، وخلص الأستاذ النجدى من ذلك كله إلى قوله : « إننا حين تمنينا على الله أن يجعل لنا من القرآن نحوا لم نطلب الأمر من مأتاه الأصيل لأن القرآن ليس كتاب لغة ولكنه دستور حياة ونبراس هداية .

والأستاذ على النجدى ناصف كان يعلم حق العلم — حين قال ذلك — أن النحاة منذ سيبويه يستشهدون بآيات القرآن الكريم فى النحو ، وأن الآية منه وبعض الآية حين يستشهدون بها لقواعدهم بين ما يستشهدون به من الشعر والنثر تكون كالشهاب الثاقب والضوء الساطع . غير أن التفكير فى شواهد القواعد النحوية ومدى الاستعانة فيها بآيات القرآن الكريم المضيئة شئ ، وتيسير النحو المأمول بتذليل صعابه وتنسيق أبوابه وحذف زوائده وتبسيط قواعده للناشئة شئ آخر وعن ذلك صدر الأستاذ على النجدى ناصف فى بحثه : «بين القرآن والنحو» .

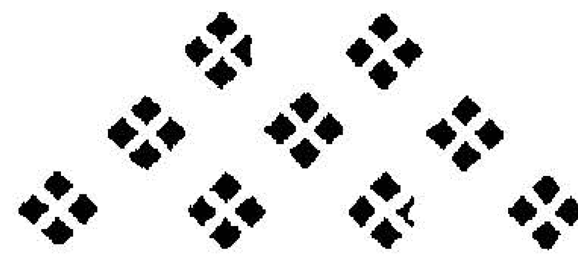
وأعترف بأنى لم أكن لأستطيع تبيان هذا الموضوع على نحو ما بيّنه فى البحث بيانا علميا وافيا .

وإذا رجعتم — حضراتكم — إلى ما قدمته لجنة الألفاظ والأساليب فى المؤتمرات طوال السنوات التسع الأخيرة فإنكم ستجدون له عشرات الفتاوى اللغوية التى سوّغ بها كلمات متداولة كان يُظَنّ أنها نابية فإذا هى بفتاويه العلمية السديدة تدخل إلى دوائرها وعملتها الفصيحة .

السيدات والسادة

لعل فيما قدمت ما يصور — من بعض الوجوه — خسارة المجمع للعالم الجليل الأستاذ على النجدى ناصف وبحوثه وفتاويه اللغوية والنحوية المحكمة ، وإنها لخسارة فادحة لا تعوّض . وسلام الله عليه يوم فقدناه ، وسلام الله عليه يوم نلقاه ، طيّب الله ثراه ، وجعل جنات الفردوس نُزله ومثواه .

شوقى ضيف
عضو المجمع



كلمة الأسرة لنجل الفقيد الدكتور جلال النجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الدكتور رئيس المجمع ،

السادة الأساتذة الأجلاء أعضاء المجمع ،

سيداتى سادتى ،

باسم أسرة المغفور له الأستاذ على النجدى ناصف ، أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى مجمع اللغة العربية ، رئيساً وأعضاء ، على الموقف النبيل الذى بدا منهم جميعاً ، مشاركة فى العزاء ونعياً بالصحف ، ثم ختاماً بحفل التأبين هذا .

وقد استن المجمع الموقر أن يكرم أعضاءه الذين مضوا إلى رحاب الخالدين ، وهو بذلك يضرب أروع الأمثال فى الوفاء ، ولا غرو فى ذلك فأنتم القدوة .

وليس لدى ما أقوله بعد الكلمة الكريمة لأستاذنا الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع والكلمة الجامعة الوافية التى ألقاها أستاذنا الدكتور شوقى ضيف عضو المجمع ، والذى كان أحد أصفياء الفقيد ، ولا أستطيع التعبير عن مدى شكرى وشكر الأسرة لكم جميعاً .

لقد أمضى الفقيد حياته فى خدمة اللغة العربية وآدابها فى كلية دار العلوم وفى مجمع اللغة العربية ، فلم ينقطع يوما عن القراءة والبحث والعطاء ، وكنت أشفق عليه من الإرهاق الذى كان يصر عليه حتى وهو مريض ، فكانت آخر محاضرة ألقاها على أبنائه طلبة الدراسات العليا بكلية دار العلوم قبل وفاته بأيام ، وكان آخر أبحاثه ذلك الذى قدمه لمؤتمر المجمع ولم يمهله الأجل لإلقائه بنفسه .

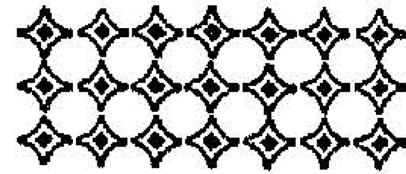
لقد مضى هادئاً إلى الرفيق الأعلى كما كان هادئاً فى حياته ، وإذا كانت وفاته خسارة فادحة للمجمع ولتلاميذه ، فقد كان رحيله المفاجىء صدمة عنيفة لأسرته ، حيث كان نعم الأب المشغول دائماً بمشاكل أبنائه ، المشير دائماً بالنصيحة .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أُنَوِّه بالمغفور له الأستاذ محمد زكى عبد القادر عضو المجمع ، فقدرثا الفقيد فى مقاله اليومى « نحو النور » بجريدة الأخبار

وشاءت إرادة العلى القدير أن ينتقل إلى رحابه بعد ذلك بأيام ، فقد المجمع علمين من أعلامه فى أسبوع ، رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته .

وفى الختام أكرر الشكر - باسم الأسرة - لأسرة المجمع ولجميع من شاركوا فى هذا الاجتماع الجليل بالإعداد أو الحضور .

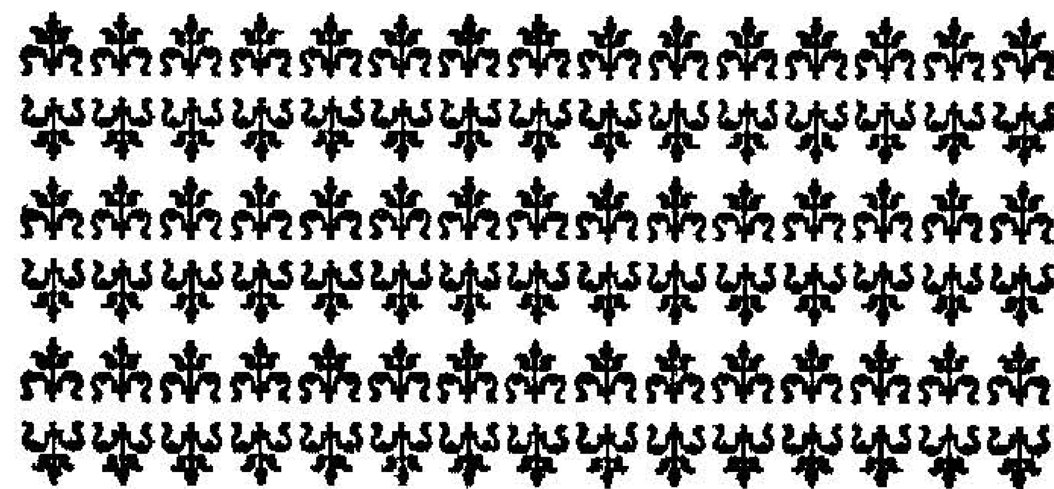
والسلام عليكم ورحمة الله



كلمة الختام للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

أيها السادة .

شكراً لكم جميعا ، وعوضنا الله فى فقيدنا وفقيد الأمة خيراً ، وجزاه عما قدم لأمته ولغته خير الجزاء .



في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٧ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢ هـ (الموافق ٢١ من أبريل سنة ١٩٨٢ م) أقام المجمع حفل تأبين فقيده المرحوم الأستاذ محمد زكى عبد القادر ، وفيما يلى الكلمات التى ألقيت فى هذا الحفل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

فى تأبين المرحوم الأستاذ



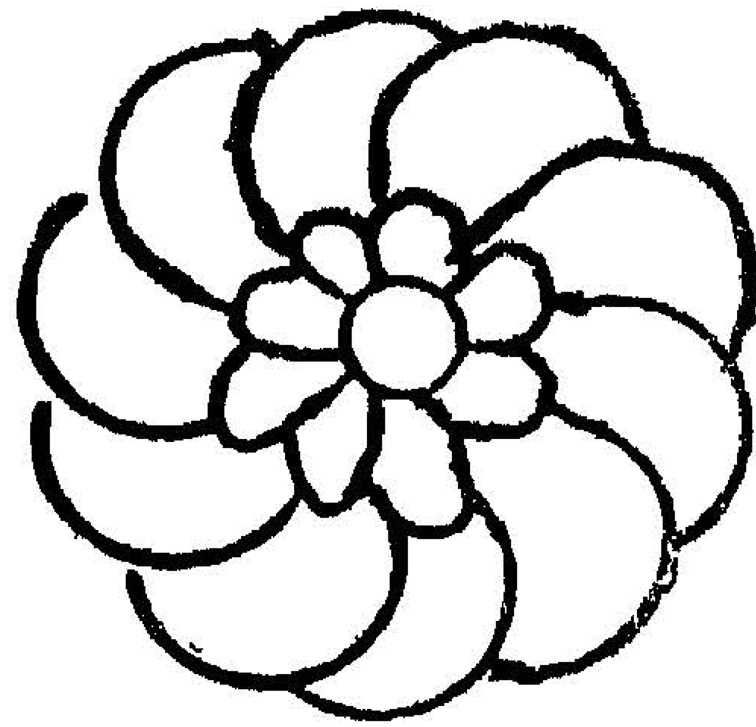
بسم الله الرحمن الرحيم

سيداتى وسادتى :

ترجع صلتى بفقيدنا الكريم إلى عهد بعيد ، فقد عرفته منذ ثلث قرن أو يزيد ، جمعتنا شئوننا العامة ، وحياتنا السياسية التى كنا نحس حينذاك شيئا من التدهور ، نأمل أن نفيق إليه وأن نوجه الأنظار نحوه ، وأن نتدارك ما يمكن تداركه من نقص ، والتقينا تحت راية جماعة صغيرة كانت تسمى جماعة نهضة مصر ، وقد أخذت هذه الجماعة نفسها بمعالجة مشاكلنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية معالجة علمية وموضوعية وتقوم على الدرس والبحث ، وتحاول أن تقدم للوطن المستنير صورة واضحة عن تلك الحياة فى جوانبها المختلفة ، وأشهد أن المرحوم محمد زكى عبد القادر قد مكن هذه الجماعة مما تيسر لديه حين ذاك من وثائق ، وأهمها مكتبه الذى وضعه تحت تصرفها ، فكانت تلتقى فيه وتتبادل الحديث فى مختلف شئونها ، وعاوننا أيضا بقلمه ، أيد غرضها ودافع عن أهدافها وفى الواقع كان زكى عبد القادر بعامة معنيا بحياتنا فى مختلف جوانبها ، معنيا بها عناية تنبعث من قلبه ويحس بها الإحساس كله ، ومن هنا حاول أن يرشد وأن ينصح وأن يوجه ، مجتمعة - كما يقول هو - نحو النور ، وكم كنا فى حاجة - ولا نزال - إلى نور ، واستطاع زكى عبد القادر طوال ثلاثين سنة أو يزيد أن يبدى رأيه فيما يعن له ، يبديه فى غير مجاملة ولا تزلف ، فلا يمارى ولا يداهن ، ولا يخادع ولا يتمنع ، ولا يتبدل ولا يتغير وكان أمة وحده فى إبداء مايراه من نصح وإرشاد على نحو ماتصوره وآمن به ، وقد مكنه قلمه من أن يعبر عما يجول بخاطره فى غير مهاترة أو تحامل خاص ،

وإنما تعبير صادق عن إحساس صادق ينشد الحياة وينشد النهوض والتقدم لأمته التي أحبها وبذل حياته في سبيلها جزاه الله خير الجزاء عما قدمه لسانه وقلمه في سبيل أمته ووطنه .

وسيقول كلمة المجمع فيه الزميل الكريم الأستاذ محمد عبد الغني حسن ، الذي سبق له أن استقبله منذ عامين تقريبا ، وأبى عليه وفاؤه إلا أن يودعه ، وسيقول كلمة الأسرة بعده نجل الفقيد الأستاذ سمير عبد القادر .



كلمة الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

رحم الله أبا نواس فى هزله ومجونه ، ورحم الله أبا نواس فى جده ونطقه بالحكمة حيث قال :

وما المرء إلا هالك وابن هالك
وذو نسب فى الهالكين عريق

فقل لقريب الدار : إنك راحل
إلى منزل نائى المحل سحيق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو فى ثياب صديق

سيدى الرئيس : زملائى الكرام ، سادتى .

بالأمس القريب جدا ، ومنذ عامين لاغير ، قدر لى أن أستقبل هنا الزميل العزيز الراحل « محمد زكى عبد القادر » عضوا نازلا ، واليوم وفى المكان نفسه وفوق هذا المنبر بعينه شاء الله أن أودعه فقيدا راحلا ، فكأننى مابين استقباله بالأمس وتوديعه اليوم أردد قول شيخنا وإمامنا « شوقى » أمير الشعراء رحمه الله :

أإلى الحياة سكنت وهى تصارع
وإلى الأمانى يسكن المسلول

لاتحفلن ببؤسها ، ونعيمها
نعمى الحياة وبؤسها تضليل

مابين نضرتها وبين ذبولها
عمر الورود ، وإنه لقليل

هذا بشير الأمس أصبح ناعيا
كالحلم جاء بضده التأويل .

نعم بهذه السرعة سبقنا زكى عبد القادر إلى رحاب الله . وقد كان دائما سباقا فى مسيرته على درب الحياة وإن كان وئيد الخطى منذعرفته منذ أكثر من نصف قرن . فقد سبق إلى نيل « البكالوريا » وسنه ثمانية عشر عاما ، وسبق إلى نيل شهادة الحقوق وسنه اثنان وعشرون عاما . وسبق إلى الظفر بالجائزة الأولى فى مسابقة نظمتها وزارة على ماهر باشا سنة ١٩٣٦ ، ثم سبق إلى رياسة تحرير « الأهرام » بعد أنطون الجميل العضو السابق بمجمعنا ، وهو كرسى لم يشغله مصرى واحد قبل زكى عبد القادر ، وإنما كان وقفا على إخواننا اللبنانيين . . . ثم جاء أخيرا وسبقنا إلى قضاء الله فى سرعة خاطفة ، فلم يقم بيننا فى المجمع غير عامين ينقصان شهرا . . . فكان بذلك من الأعضاء الملمين بالمجمع إلماما قصيرا ، مثل المرحوم عبد القادر حمزه باشا الذى لم يقم بالمجمع غير بضعة أشهر ، والمرحوم الصديق « إسماعيل مظهر » صاحب العصور الذى أقام بالمجمع أقل من عام . ومن غرائب الاتفاق أن ثلاثتهم من المجمعيين الصحافيين .

و « محمد زكى عبد القادر » يذكرنى فى أناته وفى رفق خطراته واتئاده فى مشيته منذ

عهد الشباب — وهو عهد القوة والفتوة — باثنين من كبار أدبائنا وعلمائنا ، عرفتهما عن قرب واتصلت بهما اتصال جار مجاور أو تلميذ مصادق . أولهما الأديب الكبير محمد السباعى مترجم «الأبطال» لكارليل «وقصة المدينتين لديكنز» و«التربية» لهربرت سبنسر ، «والرباعيات» لعمر الخيام وغيرها . ووالد صديقنا القصاص الشهيد الوزير «يوسف السباعى» ، فى مشيته المتأنية جدا ، التى كادت تكون ثباتا لاتحركا . . وفى وقفته الطويلة الفاحصة فى ميدان السيدة زينب رضى الله عنها ، يرصد الرائح والغادى . أو ينظر إلى السماء ويطيل النظر فيها ، كأنه يستلهم معانى فكر جديد . . أو كأنه عناه الشاعر خليل مطران بقوله فى نظرات «نابليون بونابرت» .

قالوا لنابليون ذات عشية
إذ كان يرقب فى السماء الأنجما
من بعد فتح الأرض ماذا تبتغى
فأجاب : أنظر كيف تفتتح السما

وثانيهما الشيخ الفيلسوف الأديب مصطفى عبد الرازق ، العضو السابق بمجمعنا ، الذى كان يدخل جلسات مجلس الأزهر ، أو مجالس الجامعة وكلية الآداب متأخرا عن الموعد ، كما جاء زكى عبد القادر إلى الحفل الكبير الحاشد الذى أقيم فى القاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية سنة ١٩٥٥ ، تكريما للشاعر المهجرى الصديق المرحوم جورج صيدح ، ولإبداء الرأى فى الشعر المهجرى جملة ، فجاء إلينا على منصة الخطباء متثاقل الخطوات يجر قدميه جرا ، متأخرا جدا عن بدء الحفل ، مع أن المفروض أنه كان طرفا — بل حكما — فى قضية الشعر المهجرى بين شاعرنا المجمعى العظيم : عزيز أباظة باشا ، وبين جورج صيدح ، وبينى . . . وأحس زكى عبد القادر بحرج موقفه أمام النادى كله . . . وعبر عن ذلك بقوله فى يومياته فى اليوم التالى بصحيفة الأخبار : (وحينما وصلت إلى القاعة الشرقية كان الحفل قد بدأ منذ أكثر من ساعة ، والحضور فى صمت يستمعون إلى حديث الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن شعراء المهجر . وإنى لأعرف ثقل القادم فى موعد متأخر وسوء ما يحدثه من صوت أو ضجة بقدومه ، فآثرت أن أدخل متلصصا . وأنتحى جانبا على مقربة من الباب ، حتى يتاح لى الانصراف فى هدوء . ولكن تدبيرى كان شيئا وتدبير القدر كان شيئا آخر ، فإن الأستاذ حسن العروسى لمحنى فى عين نافذة عهدتها منه ، وأخذنى من يدى ، وأجلسنى على المنصة . . .) أ هـ

والشيخ مصطفى عبد الرازق عضو سابق راحل بمجمعنا ، وزكى عبد القادر عضو جديد معجل بالرحيل . . فالموازنة بينهما فى الأناة واجبة . فقد كان عبد الرازق كما قال صديقه طه حسين : (لا يكره شيئا كما كان يكره العجلة فى القول والعمل والمشى ايضا . . كان شديد الأيثار للأناة ، وكان ذلك ربما عرضه لدعابات الصديق والزملاء . فما أكثر ما كانت تعقد الاجتماعات . ويحضر أعضاء

هذه الاجتماعات فى الموعد المقدر ، لا يتأخرون عنه الا الدقيقة أو الدقائق القليلة ، ألا « مصطفى » فكان يأتى دائما متأخرا جدا ، وكان زملاؤه لايحبون أن يأخذوا فى العمل قبل حضوره ، فكانوا ينتظرون وينتظرون ، وربما اضطرهم ذلك إلى بعض الضيق ، ولكنه كان يطلع عليهم بابتسامته الحلوة ، فلا يكادون يرونه حتى يضحكوا له . ولا يأخذون فى عملهم إلا بعد دعابة لا تمل . .) أ هـ .

وأذكر من أناة أخى زكى عبد القادر أن مؤتمر المجمع اتعد سنة ١٩٨٠ على رحلة إلى القناطر الخيرية ، وحددنا موعدا للالتقاء وركوب متن النيل فى زورق نهرى ، ولكن (زكى) فاته الميعاد فى مرفأين أو مرساتين حددناهما له ، فما كان منه إلا أن استأجر سيارة « تاكسى » لتقله إلى القناطر ، فكان أسبقنا نزولا بها . وهنا تمثلت فى خاطرى قصة السلحفاة والأرنب بكل مافيها من مفارقات الحياة . . . . .

ومن ذكريات الأناة فى خطى (زكى عبد القادر) حتى فى أيام شبابه أنه سبقنى إلى العمل محررا فى جريدة السياسة بتشجيع وترحيب من الدكتور محمد حسين هيكل ، لأنه تخرج صغير السن فى مدرسة الحقوق ، وكنت لا أزال أطلب العلم فى تجهيزية دار العلوم ، وكنت فى طريقى إلى الدار « بشارع المبتديان ، أمر على دار السياسة بالشارع نفسه ، فأجد الصحفى الناشئ « زكى عبد القادر » يأخذ طريقه إلى القصر الذى كان يحتله حزب الأحرار الدستوريين وجريدته المشهورة ، رفيق الحظى ، متأنيا فى مشيته ، كأنه أسد (المتنبى) الذى وصفه بقوله :

يطأ الثرى مترفقا من تيهه
فكأنه آس يجس عليلا

ولعل هذه الأناة فى المشية وفى الكلمة هى التى ألهمت زكى عبد القادر الأناة فى التفكير والتروية فيه ، فلم يكن عجلا فى إبداء الرأى ، وإلقاء الحكم . ولكنه كان يقلب القضايا على كل وجوهها واحتمالاتها ، حتى يخلص له فى النهاية رأى يطمئن اليه ويرتاح له .

ولقد بدا ذلك فى خلال مزاملته إيانا فى لجنة ألفاظ الحضارة التى يرأسها زميلنا الأستاذ بدر الدين أبو غازى . وفى هذه اللجنة يبدو تيار الآخذين بالألفاظ الأجنبية عن طريق « التعريب » لا « الترجمة » . . . وهو تيار يفتح الباب على مصراعيه لغزو لغتنا الشريفة بسيل من الألفاظ الوافدة الغربية المغربة التى ليست من بنية لغتنا ولا من أرومتها . كما يبدو تيار آخر غالب هو الأخذ بالتعريب فى إقلال واعتدال . « وزكى » كان جارى المحاور فى هذه اللجنة فكنت أرد اندفاعه فى الأخذ بالتعريب . وما هى إلا لحظات من التفكير المتأنى ، ليعود لمعسكرنا ، فأرضيه بهذا البيت من الشعر

لعمرو بن امرئ القيس الخزرجي جد عبدالله
ابن رواحة الصحابي الشاعر رضي الله عنه ،
وهو من شواهد كتب « البيان » :

نحن بما عندنا وأنت بما عنـ
ـدك راض ، والرأى مختلف

وبمناسبة الشعر وتسكين خاطر محمد زكى عبد القادر به ، أذكر أنه كان يحبه ، ويحب الاستماع اليه والاستشهاد به فى مقالاته ، ويومياته ، وخطراته . وكان يرى أن حكمة الشعراء وتجاربهم قد تركزت به ، وتبلورت – أو تبلرت – فيه . ومما وعيته عنه – رحمه الله – من الاستشهاد الشعرى الجيد ما ذكره فى أحد مؤلفاته الكثيرة منسوبا إلى شاعر مجهول :

البس لكل زمان بردة حضرت
حتى تحاك لك الأخرى من البرد

وأذكر له – عليه رحمة الله – أنه كان يطرب للأمثال الشعرية التى أرويها له – فى معرض الأحاديث بيننا – تصويرا لمجتمعاتنا العربية المعاصرة . من مثل قول الشاعر القديم :

ليس الشفيع الذى يأتيك متزرا
مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

وقول الشاعر الآخر

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقى صولة المستأسد الحامى

وقول الشاعر الآخر ، وهو زفر بن الحارث على ماحققته :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وكان يستزيدنى من هذه الأمثال كلما لاحت فرصة ، أو سنحت نهزة ، ويسارع إلى تقييدها فى ورقة معه .

وتبدو آراء زكى عبد القادر الناضجة فى تقديم الشعر وتقييمه – أو تقويمه – فى كلمته الكريمة التى كتبها فى يومياته سنة ١٩٥٥ عن كتابى : (الشعر العربى فى المهجر) حيث قال متفضلا : (سهرت الليلة أقرأ كتاب الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن الشعر العربى فى المهجر . . . وإنى أشعر بعرفان للأستاذ عبد الغنى أن أتاح لى فرصة ممتعة قضيتها أقرأ شعراً عربيا رصينا حينا ، وقويا فى معناه حينا آخر . وهو على الحالين يجلو مظهرا من مظاهر الأدب العربى الذى يحيا على الغربة ، ويحاول أن يحتفظ بسماته فى أرض تبعد عنه فى العقل والفكر ومناهج الحياة ، أضعاف ماتبعد عنه فى المكان . . وحسبه أنه بذل هذه المحاولة . وحسب المهاجرين أن حاولوا الاحتفاظ بمقوماتهم الأصلية جهد ما استطاعوا . وفى هذا وذاك شهادة للأدب العربى ولهم بالأصالة وعمق التأثر ، وصدق الإحساس . . .) فكان – رحمه الله – بذلك مقدرا بارعا منصفا لشعر المهجر وشعرائه ، وموفقا حكما بين الآراء المختلفة فيه .

وبهذه المناسبة . أستغفر الله ، وأستغفر الأخلاق ، وأستغفر أخي « زكي » اذا قلت إنه كان مشغولا بالفكر الأجنبي والفكر العربي الحديث ، عن الفكر العربي القديم والأدب العربي القديم . ففي تقديمه للكتاب الجميل العميق (الله في الإنسان) استشهد على وجود الله بأقوال ثلاثة من غير العرب : برنا رد شو ، حيث قال في بعض معارض رأيه : (إن أفضل مكان للبحث عن الله هو الحديقة . ففيها تستطيع أن تنقب عنه فتجده) والمهاتما غاندى حيث يقول : (لاأقول إن الله هو الحق ، ولكن أقول أن الحق هو الله) — والأمبراطور الروماني الفيلسوف الفاضل: ماركوس أوريليوس حيث يقول: (بين كل مافي الكون ، وجه عبادتك إلى أعظمها . وماهو أعظم مافي الكون ؟ إنه هذا الكائن الذي يدبر ويحكم . وكما تعبد أعظم مافي الطبيعة ، تعبد أعظم مافي نفسك ، قبسا من الله) .

وما لزميلنا المرحوم زكي عبد القادر يذهب بعيدا إلى غير الفكر العربي وعنده القرآن الكريم ، والخطابة العربية ، والشعر العربي في جاهليته وإسلامه وبين قديمه وحديثه . . .؟

فالله تعالى يقول في محكم كتابه : (أو لم يروا إلى ماخلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل ، سجدا لله وهم داخرون) سورة النحل ، آية رقم ٤٨ .

وقس بن ساعدة الايادى ، خطيب الجاهلية المشهور ، يقول من خطبته المأثورة المشهورة (ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج) ويخلص من هذا وغيره — مما ذكره في خطبته — إلى الدليل على وجود الله .

وأبو قيس بن أبي أنس الشاعر المخضرم يقول قبل أن يهديه الله للإسلام :

سبحوا الله شرق كل صباح
طلعت شمسه ، وكل زوال
عالم السر والبيان لدينا
ليس ماقال ربنا بمحال

وأبو نواس يقول في وصف زهرة :

تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وأبو العتاهية ، يقول :

فيا عجبا ؟ كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد ؟

والله في كل تحريكـــــة
وفي كل تسكينة شاهد . .
وفي كل شيء له آيـــة
تدل على أنه الواحـــد . .

فلماذا الرجوع إلى برنارد شو البريطاني، وماركوس أوريليوس الروماني ، وغاندى الهندى وعندنا في تراثنا الفكرى ، ومأثورنا الأدبى ، وكتابنا العظيم غناء كبير ، وحصاد ثمين ؟ ؟

وزكى عبد القادر كان كاتبا بارعا مترسل الأسلوب في انسياب وسهولة وسلامة بناء ، ووضوح عرض ، ورشاقة تعبير ، وقد كان بلا مراء صاحب قلم منفرد متميز ، ولم يكن رحمه الله من ذوى الأقلام العنيفة من أعضاء مجمعنا هذا ، ولكنه كان رقيقا رفيقا حتى في المخاصمة في الرأى ، والمخالفة في الفكر . ولا أجد أصدق في الدلالة على عفة قلمه من قول «شوقى» في رثاء «حافظ إبراهيم» :

قلم جرى الحقب الطوال ، فما جرى
يوما بفاحشة ولا بهجـــاء

وهو – فوق منزلته الصحافية التي جلتها يومياته ونحو نوره – قصاص بارع . وما كان بهذا غريبا عن نظراء له في الصحافة ، وزملاء قدامى في أعضاء مجمعنا الراحلين – من أمثال أحمد حافظ عوض ، والدكتور محمد حسين هيكل، وإبراهيم المازنى ، وعباس محمود العقاد، وأحمد حسن الزيات ، ومحمد فريد أبى حديد . . وبعض قصصه كما قال في مقدمة كتابه (الخيط المقطوع) : (ينحو نحو التحليل ، وبعضها الآخر يعتمد على الحركة ، وبعضها الثالث يصور مواقف معينة ، وهى جميعا تنبع من صميم حياتنا . عرفت بعض أبطالها ، وعايشت بعض حوادثها . وعشت بأعصابى في أجوائها) .

وقد تميز فقيدنا بلون من أدب المناظرة والجدل في مقالاته ويومياته ، فهو لا يفرض رأيه على أحد ، ولا يحتد في النقاش ليكسب القضية . ولكن الهدوء كان ديدنه في أمره كله .

وما أجمع كلامه في كتابه : (رسائل ومسائل) حيث يقول :

(ولست ألزم أحداً برأيى بل لعل من الخير إلا يلتزم أحد به ، وأن يجرى كل إنسان – صحفيا أو غير صحفى – على سجيته . فإن هذا الاختلاف في الاتجاه والطبيعة والتفكير هو الذى يتيح للقراء مايتيح اليوم من ألوان صحفية متعددة ، فيحصل كل إنسان على مايريد من متاع . .) .

وبمناسبة هدوء فقيدنا محمد زكى عبد القادر في نقاشه – المنطوق لا المكتوب – أذكر أننا – نحن المجمعيين – على ماهو مفروض فينا من كبرة السن ، وحنكة التجربة ، ووفاء السنين المكلل بالمشيب ، قد يفلت منا – أستغفر الله : أعنى من بعضنا – في مجلس

المجمع وبلجانه زمام الهدوء فى النقاش والجدال ، على درجات تختلف قوة وضعفا ، ومشادة وملاينة ، حتى لتحكى فى ذلك النوادر ... لأنه خلاف ونقاش لا يرمى إلا إلى الوصول إلى الحق والحقيقة ، فهما مناط الخلاف ، وبلوغهما هو نهاية المطاف . كما يقول شاعرنا القديم :

أدور ، ولولا أن أرى أم جعفر
بأبياتكم مادرت حيث أدور

أو كما قال الشاعر الآخر :

تقول سليمى : لو أقمت سررتنا
ولم تدر أنى للمقام أطوف

وأشهد مارأيت زكى عبد القادر يوما منفعلا فى خلاف ، أو ثائرا فى نقاش ، على الرغم من أنه كان يخالف ويناقش ويعارض فى « لجنة ألفاظ الحضارة » التى كشفت لنا عن سواء طبعه ونقاء فطرته . ومارأيته غضبان منفعلا يوما فى واحد من مجالس المجمع ، إلا فى جلسة يوم الإثنين ٢١ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٢ هـ — ١٥ من فبراير سنة ١٩٨٢ — أى قبل مؤتمر المجمع السنوى بأسبوع واحد ، وقبل وفاته — رحمه الله — بثلاثة أسابيع كوامل . وهى جلسة بلقاء مشهورة فى تاريخ مجمعنا . .

لأنها كانت محل النقاش فى موضوع لغوى خطير ، أثارته لجنة الأصول ، يتصل بقرار اتخذته فى ضبط عين الفعل المضارع من (فعل) المفتوح العين ، بالضم والكسر معا .

ودار جدال لغوى عنيف حول هذا القرار ، ألقيت بدلوى فيه بين الدلاء . . .

ورأيت — بعد الإشادة بالجهد العظيم الذى بذلته لجنة الأصول الموقرة — أن نعرض الموضوع على المؤتمر بمن سيشهده من إخواننا العرب ، وأن نتوقف فى مجلس المجمع عن إبداء الرأى فيه . . .

ورأى شيخ القانونيين فى مجمعنا (الأستاذ مصطفى مرعى) : (ألا يحال الموضوع على المؤتمر إلا وقد أبدى المجلس رأيا فى قرار اللجنة) . ثم رأيت — كما هو مسجل حرفيا فى مضبطة المجمع — : (أن يؤجل النظر فى هذه المسألة إلى ما بعد المؤتمر . . .) وهنا دخلنا فى مسألة قانونية أثارها فقيدنا ، فلما اعترض عليه من ناحية القانون بطريقة لم تعجبه رفع صوته عاليا — لأول مرة — محتجا وغضب غضبة حسبتها مضريه إلا أنها لحسن الحظ لم يهتك لها حجاب الشمس . .

ولست أيها السادة بهذه الحكاية أكشف سرا من أسرار جلسات المجمع ، وأستاذنا الرئيس الدكتور إبراهيم مدكور يعلم مدى حرصى على العمل بالحديث الشريف : (المجالس بالأمانة) . .

وقد طبعت المناقشات فى محضر الجلسة التاسعة والعشرين على الآلة الكاتبة كما نقول نحن ، أو رقنت على المرقن ، كما يقول إخواننا التونسيون وأهل المغرب : وصارت علنية ، وبهذا زايلتها صفة السرية .

وانطبق عليها المثل العربى : (مايوم حليمة بسر) .

ومن فضائل فقيدنا في هذا الباب أنه كان لايتشبث بالرأى إذا بدا له وجه الخطأ فى وجهة نظره . وأذكر له فى هذا المعرض هذه الحادثة التى وقعت قبل وفاته بأيام معدودات

فقد كنا فى يوم من أيام مؤتمرنا السنوى التى لاتنسى ، نتفكه بأطايب الفكر ولذاذات الحديث ، حول مائدة سخية بأطايب الطعام .. وجرتنا شئون الحديث وشجونه إلى أن أروى قول الشاعر :

قالوا يزورك أحمد وتزوره

قلت : الفضائل لاتفارق منزله

إن زارنى فبفضله . . . أو زرته

فلفضله، والفضل فى الحالين له...

وأشدت بكياسة هذا الشاعر — الذى سأذكر اسمه عما قليل — لأنه ورط صديقا له كان من أصحاب الجاه وأرباب النفوذ فى الدولة العباسية . فلم يزره الشاعر مخافة أن يتهم بتملقه إياه ، وتزلفه منه، واعتذر بهذين البيتين البليغين . . . .

فاعترض الفقيد محمد زكى عبد القادر على بأن هذا ضرب من النفاق الاجتماعى لايحبه! فقلت له : سبحان الله : أتسمى هذا الحشد من الكرامة والكياسة واللباقة والبراعة فى التخلص نفاقا ؟ فقال : نعم : هذا نفاق :

فلما ذكرته بأن هذا الشعر للإمام الشافعى — رضى الله عنه — وهو من هو فى علمه وخلقه واستقامة سلوكه ، سكت ولم يعقب .

ولقد أحب زكى عبد القادر الريف ، بل تعشقه ، بما فيه من سماحة الفطرة ، وأصالة الطبع ، وخصه ببعض مؤلفاته قصصية ، من أمثال (صور من الريف) و (الخيط المقطوع) و (دعاء الخطيئة) . وعبر فى تقديمه لهذا الكتاب الأخير عن حبه العميق للريف حيث يقول : (وفيه – أى فى هذا الكتاب – المزج نفسه بين صور من الريف . وصور من المدينة : الأولى تمتاز بأصالتها ، وتعبيرها عن حياة الريف بكل ما تضطرب به من خوف وطمأنينة – وحب وكراهية ، وإيمان واعتماد على الله ، وما يشيع فيها جميعاً من روح مصر العريقة التى طاولت الزمن ، وعاشت عبر القرون ذات شخصية متميزة لم تذب فيها على الرغم مما عرض لها ووقع عليها من اقتحام وغزو ، سواء فى العصر القديم أو العصر الحديث ، والفضل فى هذا كله راجع إلى تقاليد الريف التى صانت للوطن أصالته وحيويته ودفعت عنه بعد المدى الطويل أو القصير كل من طرأ عليه من الدخلاء . . .) .

ولعل (ريفية) زكى عبد القادر هى التى أفضت به إلى إيمانه التام « بالحرية » ، إلى حد أنه وضع فيها كتاباً برمته ، جمع فيه أقوال الفلاسفة والمفكرين والأحرار فى « الحرية » ولم أطرافها من أمم مختلفة ، ولغات شتى على مر العصور ، ما بين قديم وحديث . وإذا كان كتابه (الحرية والكرامة الإنسانية)

قد ضم ما قاله غيره فى الحرية منذ أن خلق الله الناس أحراراً ، إلى يومنا هذا ، فإنا ننتهـز هذه السانحة لنقتنص رأيه هو فى الحرية الذى أبداه فى تقديمه لكتاب (محنة الدستور) حيث يقول : (فالحرية هى صمام الأمان ، وهى الكفيلة أن تنمى فى الشعب الملكات والقدرات ، وتستخرج أقوى ما فيه من مزايا وفضائل . وهى قادرة بتفاعلها الصحيح مع الشعب - أن تجعله قادراً على تحمل مسئولياته ، صلباً فى الدفاع عن حقوقه واسترداد الضائع منها) .

لقد أحب زكى عبدالقادر الريف والقرية ، كما أحب الحاضرة والمدينة ، وأحب القديم كما أحب الحديث ، وأحب وطنه مصر ، كما أحب أوطان الدنيا كلها ، فقد كان مؤمناً عميق الإيمان بالتناسق فى الحياة ، وما أصدقه وهو يقول فى مقدمته لكتابه (على حافة الخطيئة) : (وما فى الحياة يبدو كأنه مختلف متناثر . هو فى حقيقة أمره متناسق متآلف مع طبيعة الحياة . . .) على أن الحياة فى تقدير راحلنا العزيز – وهو تقدير سليم – لاتكون حياة إلا بالتناقض فى المظاهر ، فلو كانت مستوية لكانت رتيبة مملة . وكثيراً ما ألمح إلى هذا المعنى فى صلب كتبه ضمناً ، وفى مقدمات كتبه صراحة ، كالذى قاله فى مقدمة كتابه (قال التلميذ للأستاذ) : (وعلى الجملة فإن الأقسام الثلاثة – فى هذا الكتاب – تمثل فلسفة فى الناس والحياة منسوبة إلى الواقع ، آخذة منه صادرة عنه . وقصارى ما أرجوه أن يثير هذا الحوار العقل للتأمل ، وأن ينعم القلب بالنبض ، والوجدان بالتعمق والنفس بالتوثب بين الرغبة فى السمو والانحدار إلى ما هو أدنى . . .) . أو كالذى قاله فى مقدمة كتابه نماذج من « النساء » : (هذه نماذج من النساء ، رسمتها من الواقع ؛ فيها سمات من تضحية تبلغ أحياناً حد القداسة ، وفيها قلق يبلغ أحياناً حد الانحدار ، ولكنها جميعاً تصور نماذج تسعى بيننا ونصادفها فى كثير من الأحيان ، وهى ، بعد ، تسرى فيها جميعاً الغريزة بنبضها السليقى والعاطفة بسموها الوجدانى . ومن الالتحام بين الاثنين تجد المرأة . . . ولكن لماذا المرأة ؟ قل : تجد الإنسان . . .) .

وهذا الإيمان بالتناقض فى الحياة هو الذى جعل من زكى عبد القادر رجلا متفائلا بالحياة ، طامعاً فى الوجه الآخر الجميل منها ، مادامت ذات وجهين ، ومادام كل وجه لا يثبت على حال ، بحكم حركة « التغير » الدائم فى الحياة . وما أرقه رحمه الله وأجمل تفاؤله وأمله العريض فى فضل الله حيث يقول من خاطرة له عنوانها « القلب وأوراق الشجر » : (تبارك الله العلى من منا يرى الورق الجاف يزهر ، والزهر القاتم يضحك ، والشجر العارى يكتسى ، ثم يجحد فضل الله أو يحسب داءه لا دواء له ، وجرحه لا برء منه ، ويأسه لا أمل فيه ؟ كلا : كلا إن الربيع الذى يجىء بالمعجزة فى الشجر الذى مات ،

والزهر الذى جف ، قادر أن يجىء بمثلها فى القلوب التى انكسرت ، والأفئدة التى انجرحت . . .) .

وها نحن أولاء نودع فى « الربيع » أخانا زكى عبد القادر . . . ولعل هذا الربيع الحزين – قادر بحكم ما فى الربيع من إعجاز الخالق المتغير – أن يصح قلوبنا التى انكسرت بفقد زميلنا العزيز ، وأن يضمد جراحنا برحيله المفاجىء .

وبعـد :

فإن الموت حتم علينا . وقد ذهب « زكى عبد القادر » ، كما ذهب الناس من قبله ، وكما سنذهب من بعده ، لم يدم أحد ، ولن يدوم أحد . . . ولو دامت الدنيا لواحد قبلنا لمـا وصلت إلينا . وما أصدق الأثر الكريم القائل : (إن أمرأ ليس بينه وبين آدم حى واحد لمعرق فى الموتى) . وأختم باستحضار بعض القصيدة التى قالها شوقى فى رثاء شيخى وأستاذى فى دار العلوم الشاعر البدوى الشيخ محمد عبد المطلب ، رحمهما الله ، فهى تنطبق على زكى عبد القادر :

رجل الواجب فى الدنيـا قضى
ينصف الأخرى ويقضى ما وجب

عاش عيش الناس فى دنيـاهمُ
وكما قد ذهب الناس ذهب

أخـذ الدرس الذى لقنه
عجم الناس قديـماً والعرب

والله يرحم فقيدنا « زكى » ، ويبـارك أعماركم .

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع



كلمة الأسرة لنجل الفقيد الأستاذ سمير عبد القادر

إن تأبينكم اليوم لفقيدنا الغالى وأنتم صفوة العلماء والدارسين والباحثين إنما يدل على قيمة ما قدمه الراحل الكريم لوطنه وأمته من بذل وعطاء فى علم اللغة والأدب والصحافة ، كما أنه تعبير صادق عن وفائكم وتقديركم لشخصه وفكره وعلمه .

لقد كان فقيدنا العزيز يعتز أيما اعتزاز باختياره عضواً فى مجمعكم الموقر ، وكان لهذا الاختيار أطيب الأثر فى نفسه ، فقد عاش حياته يساهم فى تطوير اللغة العربية ، ويحاول فى كتاباته اليومية فى الصحف ، التقريب بين العربية بنقائها وصفائها وقوتها وأصالتها ، والعربية التى تتحرك مع نبض الحياة اليومية ، متمثلة فى لغة الصحافة التى تخاطب الجماهير العريضة ، على اختلاف نزعاتها ومستوياتها الثقافية .

وكانت حصيلة هذه الحياة الفنية من الفكر والعلم والأدب عشرات المؤلفات التى تولى الفقيد إصدار ما يزيد عن نصفها . وكانت أمنيته أن يواصل إصدار ما بقى منها ، ولكن القدر لم يمهله حتى يحقق هذه الأمنية . ونحن نعمل الآن على تكملة رسالته وتحقيق أمنيته بتجميع مخططاته التى لم تنشر تمهيداً لطبعها وإصدارها .

كما أننا نقوم إلى جانب ذلك بتجميع ما صدر من مؤلفاته فى مجلدات تضم أعماله كاملة بهدف الحفاظ على تراثه ومبادئه وفكره .

إننى أتقدم إليكم بالأصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن أفراد أسرتى بالشكر والعرفان لما أظهرتموه نحو الفقيد من مشاعر فياضة وتقدير ، راجياً لكم جميعاً التوفيق فى رسالتكم الوطنية .

كلمة الختام للدكتور رئيس المجمع

سيداتى وسادتى :

باسم الزملاء أعضاء المجمع أشكر كل من شاركنا فى حفلنا هذا ، وأسأل الله لفقيدنا الرحمة وحسن الجزاء وعوض أمته فيه خيراً .